رحلة ضياع

رواية

ديمة جمعة السّمّان

الطبعة الأولى
2011

جميع حقوق الطّبع محفوظة للمؤلّف

صدرت عن
دار الجندي للنشر والتّوزيع
النّاشر سمير الجندي
00972548059184
E.mail:jundi46@hotmail.com

صورة الغلاف
الفنان علاء البابا
جوال: 0598504148

بحّار.. بحّار يا سيّدتي.. شتّت النّوّ سفني.. مزّقت الرّيح شراعي.. هدم الموج مركبي..

ابتلع اليمّ رفاقي. الموت خلفي وحش يلاحقني.

هلاّ فتحت الباب وآويتِني؟

قالت حميدة:

– "هناك طارق بالباب" .

نظرت خلود إلى أمّها نظرة استغراب:

– " الجوّ عاصف.. والبحر هادر.. والرّيح شديدة.. إنّه صوت الرّعد يدوّي.. يدفع النّوافذ.. ويهزّ الباب.. فتظنّين أنّها يد طارقٍ للباب يا أمّي. من سيأتينا في مثل هذا اليوم؟ لو تجرّأ أحد وأقدم سيجرفه البحر إلى أعماقه.. فموج البحر يكاد يصل عتبة البيت ".

تدخّل إدريس يدحض قول أمّه:

– " إنّه صوت البحر يجلده الرّيح.. فتستغيث أمواجه.. هل تسمعين صوت عذابه يا أمّي ؟"

تلاه خميس يؤكّد شدّة العاصفة:

– " إنّها العاصفة ترمي الغيم في فم البحر.. تسقيه بعد أن جفّ حلقه خوفاً من صوت الرّعد ومنظر السّفن يحرقها البرق على سطح مائه يا أمّي".

نهضت حميدة تقول:

– " لن أكذّب أذني. أنا أسمع صوت استغاثة".

حذّرها ابنها إدريس:

– " لا تفتحي الباب يا أمي، قد يعصف البحر ببعض مائه".

فتحت حميدة الباب غير عابئة بتحذير ابنها.. فاندفعت العاصفة تحتلّ البيت.. وتنثر أشياءه، تدور به وتعيث به فساداً. تبعها أبناؤها إدريس وخميس وخلود يسحبونها داخل البيت ليقفلوا الباب.

صرخت:

– " هناك (زوال).. أشكّ أنّني رأيت شيئا يلفّه الضّباب. يجب أن أتأكّد.. لقد سمعت بأذني أنّاتٍ وآهاتٍ".

قاطعتها خلود ضجرة متأفّفة تمسك بذراعها.. وتشدّها نحو الدّاخل.. تحاول أن تقفل الباب لتتّقي شرّ العاصفة:

– إنّها تهيّؤات يا أمي. من سيأتينا في مثل هذا الجوّ العاصف؟"

قالت الأم:

– قد يكون غريبا رماه النّوّ حدّ طرف البيت.

هيّا ساعدوني.. فلن يهدأ لي بال حتّى أتأكّد.. إنّها حياة إنسان".

قال إدريس:

– " وهل يعقل أن تبقي هذه العاصفة على حياة إنسان إذا انفردت به؟"

قالت حميدة وقد نفذ صبرها وشحنتها العاصفة بشيء من حدّتها:

– " ابعدوا عن الباب.. واخلوا السّبيل.. فقد يكون عزيز لنا خلف هذا الباب".

اعترض الإبنان محتجّينِ :

– " ستدخل أوهامك شرّ العاصفة إلى البيت".

قالت تبعدهم عن دربها:

– " لا تجادلوا.. قلبي يحدّثني بأنّ خلف هذا الباب حياة.

لقد سمعت آهات وأنّات .. إنّه صوت إنسان يتعذّب".

امتثل الأبناء لمشيئة الأم.. وخرجوا إرضاءاً لرغبتها غير مقتنعين بهواجسها.. فالضّباب كثيف.. وصوت العاصفة يصمّ الآذان.. وموج البحر يصل حد جدران البيت.

إذا بالأمّ تصرخ وتستغيث:

– " إنّه رجل .. رجل.. ما زلت به حياة. إنّني أسمع أنفاسَه وأنّاتِه. هيا احملوه إلى الدّاخل. وقرّبوه من المدفأة.. هيّا يا خلود، جهّزي له شيئاً ساخناً.

وأنت يا إدريس هات شيئاً من ملابسك نبدّل بها ملابس الرّجل المبتلّة ".

علا صوت الرّجل :

– "مزّقت الرّيح القلاع.. قصفت العاصفة الصّاري.. ابتعد يا روّاد عن حافّة المركب. يا إلهي.. إنّنا نطير على سطح الموج.. المركب يهرب بنا نحو الصّخور.... أشهد أن لا إله إلا الله .."

كان الرّجل يهذي.. فعرفت الأسرة قصّتة.. وما عاناه من الشّدائد مع العاصفة.

قالت حميدة تستحثّ ولديها:

– " هيّا معي أيّها الرّجلان إلى الشّاطئ.. علّنا نكون طوق نجاة لإنسان لم يستسلم بعد.. أو آخر تتردّد في صدره بقايا أنفاس.. فنكون لهم مصدر حياة.

إبقي هنا أنت يا خلود مع الرّجل.. أسعفيه وقدمي له العون.. سنذهب أنا وأخوك نستحثّ همّة رجال الحيّ علّنا نكون عوناً لهؤلاء المنكوبين على مصابهم".

بعد عدّة خطوات ابتلع الضّباب الأمّ وولديها.. وبقيت خلود مع الرّجل تقوم بالواجب. خرج كلّ شهم من الرّجال ممن انتخت بهم حميدة وولداها يبحثون عن أحياء.

شتّتت الرّيح الرّجال عن بعضهم.. وأضلّهم الضّباب.. وصفعات موج البحر.

استمرّ البحث والدّنيا لا تشي بالوقت.. فخيوط الشّمس كانت تطلّ متكسّرة هزيلة من بين غيوم كثيفة وضباب ثقيل. تضيء الدّنيا بنور باهت.. يتوه فيه الرّجال عن السّاعة والوقت. حتى شدّتها المسؤوليّة تسأل عن مصير الرّجل الّذي تركته في عناية ابنتها.. فاستأذنت الرّجال لتعود إلى ضيفها.. ورجتهم أن يواصلوا البحث.. فالرّجل يهذي باسم صديق آخر كان معه.

أمسكت بيد ابنها خميس تستعين به على الثّبات من شدّة الرّيح.. ونادت على إدريس.. فما تكاد تنطق باسمه حتى تأتي الرّيح وتأخذه من فمها صفيراً يصمّ الآذان.. أو تقتله على شفتيها فلا يُسمع لها صوت.

بقيت على هذا الحال تصرخ.. وتقتل الرّيح صوتها في صدرها.. حتّى استنفدت طاقتها.. وما عادت أنفاسها تساعدها على النّداء. أشارت إلى ابنها خميس أن يعود معها إلى البيت.. فقد بدأت قواها تنهار.. وباتت تحتاج إلى معين.

قال :

– " ونترك أخي إدريس؟!! لا.. لن أترك البحر ينفرد به.

البحر غدّار يا أمي.. يجب أن نرجع بأخي".

قالت حميدة :

– " لست وحدك من ينادي.. أنصت.. هناك كثيرون مثلنا أعماهم الضّباب.. وفرّقت بينهم العاصفة.. فباتوا مشتّتين تائهين".

ثار خميس:

– " نخرج ثلاثة ونعود اثنين؟! نكون أربعة في البيت ونصبح ثلاثة ؟! نخرج لننقذ النّاس فنموت نحن"؟!

قالت غاضبة تُعنّفه:

– " لا تدخل الشّؤم إلى قلبي ، ولا تنس أنّنا كنا نقوم بالواجب مهما كبرت التّضحية".

– " لن أذهب وأترك أخي".

ساء الأمّ عصيان ابنها وعدم طاعته لها.. فصرخت به :

– " من عصاني ليس منّي. إنّنا الآن أعجز من أن نقف ندّاً لثورة الطّبيعة. إذا كانت العاصفة قد أعمت عين الشّمس.. فما نفع عيوننا؟ وإذا كانت الرّيح قد اقتلعت الشّجر من جذور، فلا تطلب من أرجلنا الثّبات. هيّا.. أنا أشعر أنّ رجليّ تهتزّان تحتي.. ولا تقويان على حملي.. هيّا إلى البيت قبل أن تفجع أختك بغيابنا نحن الثّلاثة".

دفعته أمه فمشى ممسكا بذراعها وهو ينادي بأعلى صوته:

– " إدريس .. إدريس .. إدريس ..... "

رجعت حميدة وخميس إلى البيت فانتفض جسد خلود خوفاً.. وسألت:

– " أين إدريس ؟ "

أراد خميس أن يتكلّم فلكزته أمّه بكوعها في خاصرته وقالت:

– " لقد أبت عليه شهامته أن يحضر معنا.. وصمّم أن يستمرّ في البحث مع الرّجال".

نقلت خلود عينيها بين أمها وأخيها، فدخل الخوف قلبها وصرخت مصعوقة:

– " هل تآمر البحر والعاصفة على إدريس يا أمي.. فأرسلوا به إلى حيث يرقد أبي؟

سأقتل البحر.. سأقتل البحر.. سأبصق على العاصفة حتّى أطفىء ثورتها.. لقد استبدلتِ بأخي الغريب يا أمي.. لقد اسبدلت بأخي الغريب أمي "!!

سرت صرخة خلود في جسد أمها كلسعة أفعى ، وبحركة لا إراديّة لطمتها على وجهها بكل ما آتاها الله من عزم:

– " ليس لنا على الغريب جميل. إنّه الواجب.. وقد ذهب أبوك ضحيّة الواجب.

لا تدخلا الشّؤم إلى قلبي.. فإدريس سمكة.. والبحر لا يغرق أسماكه ".

قالت خلود تتحسّس خدّها بكفّها :

– " البحر غدّار حقود يا أمي.. لو استطاع أن يتخلّص من أسماكه ما أبقاها في أحشائه. عاش أبي مع البحر ستّين عاماً.. كانا كلّ يوم يلتقيان من الفجر حتى مغيب الشّمس. وفي النّهاية قتله البحر".

وفجأة هجمت عليها صحوة كبرياء.. فمسحت خدّها ثانية وقد عزّ عليها أن تصفعها أمّها . فنظرت إليها نظرة عزيز مجروح وقالت بلهجة العتاب :

– " لا تصفعيني ثانية يا أمّي . فقد كرهت جنود (يهود) لكثرة ما نالني منهم من الصفع والركل ، وأنا ابنة احمد الزعفران التي لا تقبل المهانة".

قالت حميدة:

– " البحر لم يقتل أباك. كانت معركة جاهد فيها حتّى نال الشّهادة " .

ثم أضافت بلهجة تروّض فيها ابنتها وتوحي لها بأنها لا تخشى تهديدها :

– "حدّثيني الآن عن الغريب . هل عرفت عنه شيئاً . اسمه مثلاً ، عائلته، بلدته؟ هل هو أجير أم صاحب مركب"؟

– " لا شيء يا أمي . لقد استمرّ هذيانه (مزّقت الرّيح القلاع .. قصفت العاصفة الصّاري .. ابتعد يا زيّاد عن حافة المركب .. يا الهي خطف الموج زيّاد.. لقد أخفاه الضّباب في عتمته وألقمه للبحر .. البحر عملاق جاهل يحطم عندما يثور.. يا إلهي إننا نطير فوق الموج وتحتنا صخور.. أشهد أن لا إله إلاّ الله ..) لم أسمع منه سوى هذه الكلمات طيلة غيابكم . حاولت جهدي أن أردّه إلى وعيه فلم أستطع".

هزّت حميدة رأسها أسى وقالت:

– "مسكين هذا الرجل . أظنّه قد عانى كثيراً من العاصفة".

تقدّمت من الرّجل تضع يدها على جبينه، فسحبتها تقول:

– " حرارة الرجل مرتفعة جداً.. إنّ جسده يشتعل ناراً.. ايتوني بكمّادات ماء باردة".

أعطته بعض المسكّنات والأدوية المخفّضة للحرارة.. حتى فتح عينيه واستردّ وعيه .

ساعدته على الجلوس فوق السّرير.. وأخذت تحدّثه بالّذي يطمئنه.. ويخفّف عنه.. حتّى تبعد عنه وحشة الغربة وخسارة المال والرّفاق.

كانت هيئة الرّجل تدلّ على أنّه من رجال البحر.. فالبشرة خشنة سمراء داكنة لوحتها شمس محرقة.. والجسد عضلاته بارزة أعطاها البحر قوة لا يغطّيها شحم يدلّ على ترف أو رفاهية.. له هيبة البحر.. فرغم هدوئه تشعر أن في أعماقه موجاً.

قالت حميدة توجّه كلامها للضّيف:

– " هل نتعرّف إلى ضيفنا الكريم" ؟

– " اسمي العريد".

قالت تستغرب الاسم:

– " هل هذا هو اسمك الحقيقي أم لقبك؟ "

– "بل الاسم الحقيقي، وأنا من عائلة الحنش، من مدينة حيفا.

كان البحر يتسلّى بمركبنا.. كأنّه لعبة وقعت في أيادي الشّياطين. مزّق القلاع وقصف الصّاري. ورفع المركب على أمواجه فوق النّجوم وخطف الرّجل عن سطح المركب. كان يتسلّى بموتنا كما يتسلّى القطّ بموت الفأر. ولكن أين أنا"؟

– " أنت في غزّة . في بيت آل الزعفران . لا تخش شيئاً فأنت في أمان ".

– " هل يعقل أن أكون في غزة ؟ لقد رفعني البحر على موجه إلى أعلى سماء، فظننت أنّه قذفني فوق النّجوم. الحمد لله أنّني ما زلت على الأرض".

ثم سأل بلهفة:

– " ماذا عن صديقي رشّاد"؟

– " لا تزعج نفسك. مازل الرّجال يبحثون.. ومنهم ابني إدريس.. فقد ظننا أنّكم أكثر عدداً ".

نهض يقول:

– " إذا ماذا افعل أنا هنا ؟ دلّيني يا خالة على الطّريق".

اتّكأت حميدة على كتفه برفق تعيده إلى السّرير وتقول:

– " اهدأ يا بني . الدّنيا ضباب ، والرّيح شديدة ، وجسدك ضعيف لا يقوى على مجابهة العاصفة. إنّها من أعتى العواصف التي مرّت على هذه البلاد".

قالت خلود تهمس في أذن خميس:

– " هذا العريد ابن الحنش أسقانا مرارة سمّه بفقداننا أخانا إدريس".

انتبهت الأمّ إلى الهمس ، فرمت ولديها بنظرة عتاب. انتبه العريد فقال:

– " خلق الرّجال للشّدائد، فإذا كان همسكما اليوم تستّراً على الحقيقة، فغدا ستظهر. والموت حقّ. البحر عوّدنا نحن الصّيادين أن يطعمنا من رزقه مدى ما كتب الله لنا من عمر. ولكنّه في النّهاية يأكلنا. أبي صيّاد أكل من البحر مدى ثمانين عاماً، وفي النّهاية أكله البحر.. وجدّي كذلك. فقد ورثت هذه الحرفة عن الجدود. ولا أعرف لأجدادي قبراً، فالجميع أطعمهم البحر ثمّ أكلهم".

قالت خلود وقد علت وجهها حمرة الخجل:

– " ما تحدّثنا عن رفيقك يا ضيف الرّحمن.. إنّما شغل بالنا غيبة أخي إدريس.. لم يعد حتى الآن.. وقد زاد الضّباب من سواد اللّيل وظلمته حتى بات يصعب على الإنسان أن يتبيّن طريقه".

قال العريد:

– " أنا ابن حيفا، وقد وصلت شهرة آل الزّعفران إلينا.. فهم رجال.. ولا أظنّ أنّ الجبل يهزّه ريح. وكذلك فارس البحر لا يضلّه ظلام عن الطّريق. لا تخشوا شيئاً. سيعود إليكم سالماً بإذن الله. ولولا أن الضّعف يعجزني ما تأخّرت عن القيام بالواجب والبحث عنه هو وصديق العمر زيّاد".

دمعت عينه، فمسحها بكمّ قميصه بسرعة الحريص الّذي لا يريد أن يظهر ضعفاً. كان في كلام العريد منطق وحكمة ورجولة أكسبته احترام آل الزّعفران.

مع منتصف اللّيل ، كان مفتاح إدريس يعالج باب البيت، فانتبهت خلود واندفعت إلى الباب تحضن أخاها، والعين دامعة تحمد الله على سلامته.

ثمّ أخذه خميس إلى صدره يحضنه، يتمتم وتتسابق على لسانه كلمات فرحة. وكذلك الأم. إلا أنّها كانت أقل اندفاعاً وأكثر تماسكاً. وكان في عينيها عتاب:

– " لماذا انسلخت عنّا وقد اتّفقنا أن لا نفترق. لقد رميت الرّعب في قلوبنا"؟

– " كان الأجدى يا أمي أن يبحث كلّ واحد منّا في جهة".

– "نفترق في هذا الجوّ يا بني ونحن في قلب العاصفة؟! لقد كنت أرعناً مستهتراً".

وهمّت أن تتركه وتدخل غرفة الضّيف ، ولكنه استوقفها قائلاً:

– " على رسلك يا أمي. سمعت أن العدوّ استأجر عملاءً، وأنّ له جواسيس يوزّعهم في كلّ مكان، وأصبح علينا أن نتأكّد، فالرّجل غريب ولا نعرف عنه شيئاً ".

قالت حميدة:

– " لقد تعرّفت عليه.. فهو ابن مدينة حيفا.. صيّاد.. ورث مهنة الصّيد عن أبيه وجدّه.. من آل الحنش.. واسمه العريد" .

– " الحيطة واجبة يا أمّي. نحن في بيت مستهدف.. زرع العدوّ حوله العيون. ولا يمرّ علينا يوم نسلم فيه من تحقيق. والبيت دائم العرضة للتّفتيش".

– " حسناً.. أُدخل وتعرف إليه علّك تخلص إلى شيء".

قال خميس:

– " إذا كان كذلك . قسماً إنني سأتبرّع به إلى البحر حتى يلحق برفيقه".

قالت خلود منزعجة:

– " لا أظنّ ذلك. يا ويلتنا لو ثبت أنّ الرّجل عميل، فيقال إنّ بيت الزّعفران مأوى للعملاء. هيّا.. تأكّد يا أخي واشحذ فطنتك وذكاءك".

قال إدريس يستنكر عليهم منظر الهلع:

– " مالي أراكم وقد دخل الخوف إلى قلوبكم، قد يكون الرّجل عكس ذلك تماماً. أنا لا استبعد أيضاً أن يكون من إخواننا المناضلين. جاء وجلب معه السلاح. فنحن معهم على موعد. لذا يجب علينا أن نأخذ ولا نعطي.. نسمع ولا نتكلم.. وبعدها نقرر".

دخل إدريس غرفة الضّيف.. فما أن رآه وتعرف إليه حتّى نهض يهلّل ويكبّر:

– " الحمد لله على سلامتك يا إدريس. أقلقتنا عليك يا رجل. إنّني جدّ آسف على ما سبّبته لكم من قلق وتعب، فخروجكم في مثل هذا الجوّ العاصف أكبر دليل على أصالة آل الزّعفران" .

ثمّ قال بلهجة الملهوف:

– " أخبرني.. هل عثرتم على أحياء؟ كان بودّي لو أنّني كنت مع فرق الباحثين أقلّب مياه البحر قطرة قطرة، وأنقذ حياة رنّاد شريكي ورفيق عمري. لقد حذّرته أن يبتعد عن حافّة المركب، ولكنه كان شهماً جريئا.. يعتبر نفسه ندّا للبحر.. لا يخافه ولا يحترمه . كان يقول دوماً: (البحر غدّار.. قوانينه ظالمة. السّمك الكبير يأكل الصّغير. ولا حياة فيه إلا للقويّ. لذا فأنا أكرهه. آه لو أنني لست سمكة من مائه.. كنت بحثت عن أي مورد آخر للرّزق بعيداً عن مخاطر، وقلّة وفائه. لكنني ولدت على الشّاطئ. وكان أول هواء يملأ رئتي نسائم رقيقة بعثها مع موجاته. وساعة أن فتحت عيني أهداني زرقة مائه. ويوم مولدي ولدت الحيتان. وفقس بيض الأسماك. وكانوا لي إخوة توائم).

جمد الدّمع في عينيه.. وحبس أنفاسه حفاظا على بقايا صمود يحافظ فيه على كبريائه.. قال:

– " كان رنّاد فيلسوفاً رحمه الله.. عند كلّ وجبة طعام فيها أسماك كان يقول: كل يا عريد، فسوف ينهش أحفاد هذه الأسماك من لحمك كما تنهش أنت اليوم من لحم آبائهم وأجدادهم.. فأقول: لا تدخل الشّؤم إلى قلبي.. ولا تصدّ نفسي عن الطّعام.. كأنك تتنبّأ لي أن أموت غرقاً. فيقول: ما الفرق؟ الأرض تطعم أهلها ثم تبتلعهم في أحشائها. وكذلك البحر، يطعمنا.. وفي النّهاية يبتلعنا في أحشائه. فأقول: في أحشاء البحر يأكلك السّمك. يقول: وفي أحشاء الأرض تأكلك الدّيدان.. فما الفرق؟ ولِمَ تخشى الغرق؟ عندها أُغلب على أمري.. وأقف مهدّداً: إمّا أن تنهي الحديث في هذا الموضوع، أو أترك الطّعام. فيقول: جبان يا صديقي جبان.. فهل تغطّى الشّمس بغربال؟ هذه نهاية كل إنسان. فقد وُلدنا ولا بدّ أن نموت..(ولا بدّ يوماً أن ترِدَ الودائع).. ولا أسف على هذه الحياة.. كل بنفسٍ يا عزيزي.. تمتّع وتلذّذ.. واغنم من الحاضر لذّاته.. فليس من طبع الليالي الأمان. هكذا قال الشّاعر.. خاصّة ليالي البحر في عتمة الليل.. حيث لا تسمع سوى هدير الموج يلطم جدران المركب.. يعلمه أنه ليس مرغوب فيه.. ويدخل الرّعب

في قلوبنا.. فلا يبقى لنا من صديق سوى النّجوم في السّماء.. نمسك بشعاعها حتى لا نضل الطريق. هات العود يا عوّاد.. والطّبلة يا طبّال.. وغنّوا ما حلا لكم الغناء حتى يعلو صوتنا على صوت الموج نسكته ولو إلى حين.. إلى حين أن يحكم البحر شباكه حولنا .. فنحن المعتدون.. نمدّ أيدينا إلى رزقه فنأكل.. وتطول أيدينا على جواهر، ونفائسه نزيّن بها نساءنا".

فأقول: ما دمت تعتبر البحر عدوّاً لك.. وأنّه في يوم من الأيام لا بدّ قاتلك.. لماذا لا تبتعد عنه؟ فيقول زيّاد: البحر بالنّسبة لي كالمرأة.. شرّ لا بدّ منه.. هو عدوّي اللدود الذي لا غنى لي عنه أبدا.. أنا لا أتقن في الدّنيا من عمل سوى قيادة دفّة المركب.. والتّحايل على الأسماك.. أصطادها. حتّى أنني أصبحت كالفقمة أو الحيتان.. لا تستطيب نفسي سوى لحم الأسماك. فإذا ابتعدت عنه من أين أحصل على الرّزق؟ وبيتي؟ كيف ابتعد عن بيتي.. بيتي هو مركبي الّذي دوما يتناغم مع الموج في حركاته.. يهدهدني حتّى يجلب النوم إلى عيني. البيوت الّتي على الأرض ثابتة جامدة. لها أساس لا تتحرّك.. فكيف أنام..؟ وقد مضت أعوام طوال والموج يهزّني كما تهزّ الأمّ وليدها بالسّرير حتّى ينام".

ويواصل زيّاد حديثه: "إنّني أعلم علم اليقين أن صدر البحر لن يتّسع لي مدى الحياة، وسوف تغفو عيناي ذات يوم.. فيوعز إلى عواصفه أن تدمّرني.. أو أمواجه أن تبتلعني.. أو إلى أسماكه الضّخمة أن تقرقش عظامي.. فأسأله: ما الذي يجبرك على مصادقته ما دمت لا تثق به وتخاف منه؟ فيقول: أنا لا أخافه، ولكنّني لا أثق به".

وهكذا كان ينتهي نقاشنا يا خالة.

في هذه الأثناء سمع صوت جلبة وطرقات شديدة على الباب. خرج آل الزّعفران يستطلعون الخبر. علا صوت أحد الرجال:

– " بوركت يا حميدة ، فنخوتك للرّجال أفادت. لقد وجدنا هذا الرّجل على صخور المرجان الشّماليّة.

– " هيا ادخلوا يا رجال، فما زال به نبض حياة، علّ الله يشفيه ويعافيه على يد آل الزعفران".

أجاب أحد الرّجال:

– " لقد عملنا حتى نفدت قوانا، وما عاد عندنا عطاء أكثر، فالرّياح والظّلام والثّلج كرات كبيرة بدأت تتراكم على الشّاطئ. إنّها ظاهرة حدثنا عنها الأجداد ذات مرّة ، وقد آن الأوان أن نعود إلى بيوتنا نطمئن الأهل، فلا بد أن القلق قد استبدّ بهم الآن.

قالت حميدة:

- " أدخلوا الرجل إلى غرفة العريد ، نسأله إذا كان يعرفه."

ما أن وقعت عين العريد على الرّجل حتى صاح وهلّل وكبّر:

- " إنـه رنّاد .. إنـه رنّاد شـريكي وصـديق عمـري.. أعطـوه مـن دمـي.. أعطـوه مـن روحـي يـا أمّ إدريس.. ساعدوه.. إنّه شهم.. وهو خير رجل يحفظ المعروف".

تعلّقت عيون الرّجال على وجه حميدة . فلم يستبشروا خيراً . فيه وجوم وقلق . قالت ملتاعة :

- " لقد تأذّى الرّجل كثيرا ، فصخور المرجان مزّقت لحمه ، ولكننا لن نيأس . سيعيش بإذن الله. نبضه ما زال قوياً.. والعظام سليمة. قرّبوه أكثر من المدفأة.. صعّدوا اللهب أكثر.. أريد أن ترتفع درجة حرارة الغرفة ".

أحضرت المنعشات تقرّبها من أنفه. بدأت تخرج الآهات من صدر الرّجل ، فاستبشر الجميع خيراً.

وكان كلّما تصاعدت الأنّات مع أنفاس رنّاد ، انتعش العريد وانفرجت أسارير. بعدها أخذ رنّاد يتقلّب ، ويهذي بلسان ثقيل لم تتضح كلماته ، فارتعش العريد ، وبدا غير مستريح ، وحاول أن يشوّش على صوت رنّاد . وعندما بدأ يتّضح كلامه ، نهض العريد يشكر الرجال ، ويستأذنهم أن يتركوا الغرفة حتى يستريح.

أذعن الرّجال للأمر ، وبقيت حميدة ، فاستأذنها أن تتركهما لتأخذ قسطا من الرّاحة.. وأنه سيسهر على راحة صديقه .

قالت حميدة بلهجة الأمر:

- " ارجع إلى سريرك ، فأنت تحتاج إلى من يعتني بك أكثر منه ".

علا صوته بلهجة الصّحيح المعافى:

- " ألا تثقين بي يا أم إدريس؟"

- " بلى، ولكنّك مريض أكثر منه، فلولا كمّادات الماء البارد والمسكّنات والدّواء المخفّض للحرارة ما كان حالك هكذا. عد إلى سريرك. إن تعبت أنا فهناك خلود وإدريس وخميس يتناوبون السّهر عليه . لا تخش شيئاً . إن شاء الله ستكون أنت وزميلك بخير".

أخذ صوت رنّاد يعلو ويتضح أكثر، وبدأت حميدة تعطيه آذاناً صاغيه ، فدخل الخوف قلب العريد وقال:

- " إنّه يهذي كما السّكارى . دعيك منه ولا تستمعي إليه .."

دخل قلب حميدة شكّ من حديث العريد وتصرّفاته فقالت:

- " لا تنس أنّك أنت أيضا كنت تهذي حين حضرت إلينا".

نهض العريد مذعوراً يجلس على سريره يسأل :

- " ماذا كنت أقول ؟"

- " بيت الزّعفران لا يفشي سراً أبداً يا بنيّ " .

قطع حديثها ضحك هستيري متواصل من زيّاد:

- "لقد نجونا من خفر السّواحل الإسرائيليّ يا عريد لنقع في يد من هي أعظم شدّة وبلاء. إنّنا في قلب العاصفة يا العريد.. سيتحطّم المركب وتلهو الأسماك بالسّلاح تقتل بعضها مثلما يفعل البشر . ذهب تعبنا هباءاً. لقد استعجل البحر موتنا . ألم اقل لك أنّه غدّار؟ "

رمى العريد الغطاء عن جسده ونهض إلى زيّاد يكمّم فمه بكفّه، فدفعته حميدة غاضبة تعيده إلى السّرير وتصرخ في وجهه:

- " ماذا .. تريد أن تقتل صديقك" ؟

- " إنّه يهذي بكلام لا معنى له . قتلنا قاتله الله . لقد فضح أمرنا وأفشى سرّنا" .

- " أنت في قلب الأمان يا العريد. عد إلى سريرك واعط نفسك طمأنينة وراحة. إذا ذهب السّلاح.. فالرّجال ما زلوا موجودين.. السّواعد قوية.. والنّفوس عامرة بالإيمان.. توكّل على الله ولا تخش شيئاً" .

وهمّت بالخروج لتعطيه فرصة للرّاحة.

أمسك بها وقال:

- " بربّك لا تتركينني وحدي، فالحديث أكبر كثيراً مما يسعه صدري. إنّه يكبر ويكبر حتّى يكاد يفجّرني . إذا كنت من أخواتنا المناضلات.. قاسميني همّي. وإذا كنت لا سمح الله من طرف الأعداء سلّميني. فمهما تشدّد العدو في تعذيبي لن يكون أشدّ من عذاب البحر والعاصفة. خسرنا كلّ شيء.. المركب والسّلاح.. ابتلع البحر كلّ شيء وأبقى علينا نحن الإثنين.. كان علينا أن نسلّم المركب إلى المناضل أحمد الزّعفران .. كيف أقابله ؟ ماذا أقول له؟ إنّه هو والرّفاق في انتظارنا على أحرّ من الجمر.. فهم بحاجة إلى السّلاح حاجة الظمآن إلى الماء."

ضحكت تهزّ رأسها بأسى:

- " أشهد أنّك أنت العريد الحنش قد سلّمت المركب والسّلاح أنت ورفيقك زيّاد عمران الحمد إلى المناضل أحمد الزعفران " .

فغر العريد فاه.. وتوسّعت حدقتاه ينظر إلى حميدة باستغراب ويقول:

- " تشهدين زوراً يا أم إدريس ؟"

- "بل هو قول الحق."

- "كيف "؟

- " أحمد الزعفران زوجي.. استشهد في البحر وهو قابع الآن في جوفه.. والمركب والسّلاح الآن أيضا في جوف البحر.. فأيّ خطأ فيما قلت " ؟

قال يضرب كفاً بكف :

- " لا حول ولا قوة إلاّ بالله.. نحن الآن في بيت الشّهيد البطل أحمد الزعفران رحمه الله..!! الجماعة هناك يعلّقون عليه آمالا كبيرة".

قالت بعزم المؤمن:

- " من خلّف ما مات يا ولدي. قبل أن يموت زرع أربع شوكات في كبد العدوّ ، حميدة وإدريس وخميس وخلود. تصبح على خير يا ولدي.. نحن في الفجر.. أرح جسدك قليلاً، فقد كان يومك مشهوداً. لتطمئنّ نفسك، فأنت في قلب الأمان. أنت في بيت الزّعفران.. أمّك حميدة وأخواك إدريس وخميس وأختك خلود ".

قال :

- " ألا تريدين أن تعرفي شيئاً عنا وعن المهمة التي جئنا من أجلها "؟

- " سيكون لنا حديث طويل غداً ".

- "بورك البيت.. وبورك أصحابه.. وأدامه الله ذخراً وملجأ لأمثالنا نحتمي بهم حتّى نواصل مسيرة النّضال".

شكرته وخرجت تحمل شقاء يومها تلقي نفسها على سريرها ، فأقبل إدريس وخميس وخلود يسألونها.

قالت:

- "إنّهما طاهران نقيّان ، من خيرة شبابنا المناضلين".

- " أوضحي يا أمي" .

- " التّعب يحتلّ جسدي ويغمض جفوني ويضعف صوتي. دعوني للرّاحه الآن. سنتحدث غداً.."

- " من أين لنا الصّبر يا أماه " ؟

- " ومن أين لي القوّة؟ الحديث طويل يحتاج إلى تدقيق وتحليل. لا تدخلوا عليهما. لا تسألوا ولا تستفسروا. اطمئنّوا. إنّهما بخير. دعوهما في خلوة يبحثان أمورهما بحرّية وروية".

قالوا بلهجة المتعطّش إلى المعرفة:

- " هل هما منّا" ؟

- " نعم هما منّا. لهم ما لنا.. وعليهم ما علينا."

- " هل معهما دليل " ؟

- " مع نور الصّباح يتّضح كلّ شيء. العجلة من الشّيطان . تصبحون على خير ".

دثّرت نفسها بالغطاء من رأسها حتى أخمص قدميها.. لا ترى ولا تسمع ولا تتكلّم

قال إدريس:

- " أيّ حيرة رمتنا بها أمّنا. أيّ أعصاب هذه التي تصبر على إيواء غريبين أتيا من البحر.. والغموض يحيط بهما؟ كيف يأتينا نوم وقد عرفنا أن وراء هذين الغريبين خفايا وحكايات وأسراراً قد تشكّل لنا خطراً لا نجاة منه"؟

قالت خلود تحتجّ على قلق أخويها:

- " لو كانا يشكّلان خطراً ما غفت عين أمّنا، فأنتما تعرفان جيداً حرصها ودقّة تحرّياتها".

قال خميس :

- " إذا كانا منّا، لماذا لا ندخل عليهما كي نضع النّقاط على الحروف ونتفاهم"؟

قالت خلود:

- إنّ أمّك تمنحنا وتمنحهم فرصة للتآلف والرويّة والتّفكير، فنحن غرباء عن بعضنا، ولا يمكن أن يسلّم أحدنا للآخر لمجرّد أنه أواه أو ساعده ورعاه .. فلا بدّ من اكتساب الثّقة حتى يؤمّن أحدنا للآخر.. خاصة وأن كلينا يعرف الكثير.. إذا زل لسان أحدنا لا سمح الله أخرب بيوتاً وأفسد خططا.."

وتفرّق الأخوة كلّ يلجأ إلى سرير، طلبا للراحة بعد قضاء ليلة شاقّة.

نامت حميدة بعد أن دخلت قلبها الطمأنينة والأمان من جهة العريد ورّاد.. ولكن لم تمض ساعة حتى نهض إدريس يوقظ أخاه وأخته:

- " من باب الحيطة والحذر.. أرى أن نترك الضّيفين مع أمّي ونتفرّق كل منّا في مكان. فلو كشف أمرنا لا سمح الله.. لن يكفي قضاة إسرائيل أن يحكموا على كل منّا عشرات المؤبّدات.. نقضيها في ثلاّجاتها إلى يوم يبعثون. هيّا يا خميس.. سنقضي الليالي القادمات خارج المنزل".

قالت خلود:

- " لم الهرب والتّخفّي.. فأمركما مجهول بالنّسبة للسّلطات .. لا يعرفون عنكما شيئاً ".

قال خميس:

-" ما أدراك أن يكون هذان الرجلان قد جاءا لكشف أمرنا والإيقاع بنا" ؟

أجابت خلود:

– " الرّجلان ما زالا في بيتنا لم يخرجا بعد، ولم يسمعا منّا ما يديننا أو يثبت علينا مخالفة للقانون".

قال إدريس:

– "الحيطة واجبة.. هل ستذهبين معنا"؟

– " لا.. أنا لا أرى ما يوجب ذلك".

دثّر إدريس نفسه بعباءته.. وكذلك فعل خميس، وخرجا في قلب العاصفة يبحثان عن مكان آمن.

في هذه الأثناء عاد زنّاد إلى وعيه، فأخذ يبسمل ويقول:

– " أين أنا.. أين أنا "؟

قام إليه العريد يهدّئه ويطمئنه:

– " أنت في الأمان . نحن في بيت آل الزّعفران".

أمسك زنّاد يد العريد يستعين به على خوفه وقال:

– " بل نحن في قاع البحر يا العريد.. نحن روحان أو شبحان.. ألم أقل لك أنّ البحر غدّار ليس له أمان.. لكنّه في العادة يصبر ويكون أكرم. لا أدري لماذا وضع حدّاً لحياتنا باكراً، فنحن ما زنا في شرخ الشّباب. لو أنّه أكمل جميله وصبر علينا يوما أو يومين حتى نصل بالسّلاح إلى من هم متلهفون عليه. وفي أشدّ الحاجة إليه".

هزّه العريد هزّاً عنيفاً يقول :

– " اصمت.. لا تلق بنا إلى التّهلكة أهلكك الله، أنت حيّ ترزق.. لم يقصف البحر عمرك بعد، ولكنّك إذا استمرّيت في هذيانك فلسانك هو الّذي سيقصف عمرك وعمري. أحجم عن الكلام وإلا قطعته".

أخذت زنّاد ضحكة هستيريّة طويلة:

– " أتذكر يا العريد عندما قلت لك كُلْ من لحم الأسماك، تلذّذ وتمتّع، فغداً سينهش لحمك أحفادها. هل آمنت الآن أن قولي كان حقا؟ هيّا حدّثني بما عندك.. وسأحدّثك بما عندي قبل أن يأتينا سمك القرش، فلا يُبقي شيئاً منّي ولا منك ".

خرج العريد من غرفته ينادي حميدة.. همس في أذنها:

– " يا أمّ إدريس إنّ زنّاد يهذي ولا يكف عن ذكر الرّفاق والسّلاح. ماذا أفعل "؟

نادت حميدة على ابنتها خلود وقالت:

- "لا بدّ أن حرارة الرّجل قد ارتفعت، فداويه بكمّادات ماء بارد، وأعطيه مسكّنا ومخفّضا للحرارة، وبعدها سيكون بخير".

ثمّ وجّهت كلامها إلى العريد قائلة:

- طمئنه يا العريد.. وأخبره أنّكما في الأمان.

استميحك عذرا..أريد أن أعود إلى النّوم، فأنا في أشدّ حالات الإرهاق والتّعب.. يجب أن آخذ قسطا من الرّاحة الآن.. حتّى أعرف كيف نتدبّر أمورنا غدا.

تصبحون على خير".

وغطّت في نوم عميق.

نهضت خلود تقوم بالواجب، فعالجت الرّجل حتى هدأ وخفّت حرارته وذهب في نوم عميق. وكذلك أسلم العريد نفسه للنوم، فقد كان في أشدّ الحاجة للرّاحة.

(2)

أصبح الصّباح والعاصفة ما زلت شديدة، وجميع من في بيت الزّعفران ما زلوا نياما، فنهار الشّتاء قصير لا بركة فيه.. كأنّه موصول باللّيل مرتبط به. صحا الجميع على طرقات شديدة تضرب الباب.. وصوت ذو لكنة غريبة:

- " افتح.. افتح.. جيش الدّفاع الإسرائيليّ".

اجتمع الأربعة في غرفة واحدة : حميدة وخلود والعريد ورنّاد.

صاح رنّاد ملتاعا:

- " إننا في كمين. رحنا ضحيّة خيانة.من أعلم الإسرائيليّين أننا هنا؟

أتيت البيت الخطأ يا العريد.. لقد أوقعتنا في يد العملاء".

أمسك بتلابيب حميدة بيد.. وخلود باليد الأخرى وأخذ يصرخ:

-" لا.. لا.. لن أموت قبل أن أقتل".

قال العريد:

- " لم آت هنا بخاطري. لقد رماني الموج أمام هذا البيت".

قذفت حميدة وخلود رنّاد بعيداً وخلصتا نفسيهما:

- " اخرس.. لا ترفع صوتك حتى نجد طريقة للخلاص".

ثم وجهت الحديث إلى ابنتها:

- "نهاية العمر قربت.. أعطي لكل منّا سلاحاً يدافع به عن نفسه.

أين إدريس وخميس" ؟؟

- " ذهبا ليبحثا عن مكان آمن".

انفرجت أسارير حميدة وقالت:

- " حسنا.. دعي السّلاح في مخبئه.. وليكن العريد بدلاً من إدريس.. ورنّاد بدلا من خميس".

ثم استدركت تقول :

- " قد لا تنطلي هذه الحيلة على الإسرائيليين.. فليس معهما هوية ".

قالت خلود:

– " هويتا إدريس وخميس موجودتان هنا.. فقد خرجا بملابس النّوم متلفعين بعباءتيهما".

أدخل الحوار بين الأم وابنتها الطّمأنينة إلى قلب العريد ورّاد ، وشعرا أنهما حقاً في بيت أحمد الزّعفران.

قالت حميدة للعريد:

– " حسناً، أنت ولدي إدريس".

وقالت لرّاد:

– " اهدأ وكفّ عن هذيانك وشكوكك حتى تسلم ونسلم نحن، فأنت الآن ولدي خميس . هيّا عودا إلى سريريكما ، فقد فاجأتكما العاصفة في البحر، وانقذكما البحارة".

خرجت حميدة بسرعة تفتح الباب، دفعها الجندي يصرخ:

– " لماذا لم تفتحي الباب بسرعة "؟

– " وما أدراني من أنتم؟ لقد ظننت أنّ العاصفة هي التي تضرب الباب".

قال الضّابط:

– " هناك آثار أقدام كثيرة آتية من شاطىء البحر إلى هذا البيت. من هؤلاء، وماذا كانوا يفعلون؟ جاءتنا إخباريّة أنّه تم تسليم السلاح هنا. أليس هذا بيت أحمد الزّعفران "؟

رنّت عليه بعين شرسة لا تخشى التّهديد:

– " نعم هو بيته رحمه الله".

أمسك الضابط بتلابيبهما وقال:

– " أنت سيدة عجوز، لا أظنّك تحبّين أن تنتهي حياتك كما انتهت حياة زوجك. وأظنّك تحرصين على سمعة ابنتك. لا تحوجينا أن نأخذها إلى التّحقيقات والسّجون . أعطينا أسماء من جلبوا السّلاح واكشفي عن مخبئه تسلمين أنت وابنتك " .

رفعت يده عنها بشدّة ورنّتها إلى نحر، وقالت:

– " إن الطّريقة التي انتهت بها حياة زوجي ليس فيها عيب أو عار..إنّها أُمنية كلّ مواطن، وكلّ بيت عندنا يتمنى أن ينال أبناؤه الشّهادة. أمامك البيت.. ابحث وتأكّد.. فإن وجدت شيئاً.. دع القانون يأخذ مجراه. كفى هذا البيت ما ناله من شروركم".

كان في نظراتها عنف، وفي صوتها شدّة، وفي ملامحها جرأة أحبطت من ثورة الضّابط، فقال بلهجة من يبحث عن المنطق:

– " إذاً من الّذي جاء بهؤلاء الرّجال إلى هنا في مثل هذا الجوّ العاصف"؟

– " إنّهما ولداي إدريس وخميس صيادان، أدركتهما العاصفة وهما في عرض البحر، فحطّمت قاربهما، وهبّ الرّجال لإنقاذهما، وأتوا بهما إلى البيت وهما على هذه الحالة من الإعياء" .

دخل الضّابط مصطحباً ثلاثة جنود إلى الغرفة.. وبقي ثلاثة يأخذون مركز الحراسة.

تقدم الضّابط إلى العريد يهزّه بخشونة:

– " من أنت"؟

– أنا إدريس أحمد الزّعفران".

– "أين هويتك"؟

مدّ هويّته إلى الضّابط، وكان منظر خشونة العريد قد شغله عن التّدقيق فيها.

انتقل إلى رنّاد:

– " من أنت"؟

– " أنا خميس أحمد الزّعفران".

– " ماذا تعمل"؟

– " صياداً.. كان لي أنا وأخي مركب.. تحطّم المركب يا خواجا.. مصدر رزقنا ومعيشتنا".

اقشعرّ بدن الضّابط والجنود من منظر،.. ورمى له الهويّة وخرج من الغرفة يطلب الأم وابنتها. أمر الجنود أن يبحثوا في البيت، وهو يقلّب المكان بعينيه ويُعيث به خرابا بيديه، حتى عاد الجنود يخبرونه أنّهم لم يجدوا شيئاً".

قال والخبث يلمع في عينيه:

– " أخبرني ولدك أن قاربه تحطّم، وأنّه ما عاد عندكم شيء تعتاشون منه. جيش الدّفاع جاهز ليمدّ لكم يد العون إذا قدّمتم أنتم له المساعدة، والمثل العربي يقول (حكّلي لأحكّلك .. أليس كذلك)"؟

قالت تهزأ به :

– " إذا كان عندك مرض الجرب يا خواجا وتحتاج إلى من يحكّ لك، فنحن والحمد لله سالمون معافون.. ليس عندنا جرب.. ولا نحتاج إلى من يحكّ لنا".

غضب، وبدت علائم الانتقام واضحة على وجهه:

– " إذا لم يجد الجنود السّلاح في البيت، فأنا أعرف أين تخبّئونه" .

قالت:

– " حسنا، ماذا تنتظر؟ هيّا أخرجه، فقد تكون تعرف أشياء بيتنا أكثر منّا".

قال يركّز عينه على خلود:

- " السّلاح مُخبّأ في ملابس ابنتك".

انتفضت حميدة غضباً، وفهمت ما يرمي إليه وقالت:

- " ماذا تقصد" ؟

- " أقصد الّذي فهمتيه.. أو نتعاون معاً".

- " كلّ عمل في الدّنيا أسهل من الخيانة" .

- " إذن.. فنحن مضطرّون أن نفتّش ملابسها".

وأمر جنديّا أن يقوم بالمهمّة.. تجمّدت الأم وأغمضت عينيها. وما كاد الجندي يقترب من خلود خطوة حتى رمته بنظرة شرسة.. ودفعته بأقصى قوّتها:

- " لن أسمح لأحد أن يمسّني، أنا أخلع ملابسي قطعة قطعة غير هيّابة أو خجلة إذا كان هذا انتقامكم، فافتحوا أعينكم".

بدأت تخلع ملابس الشتاء الكثيرة، ولكنّ الضّابط جبن أمام جرأتها فقال:

- " حسنا. اكتفي بهذا القدر.. ردّي عليك ثيابك".

وخرج الضّابط وجنوده.

نظرت الأم إلى ابنتها، ولكن عينيّ خلود كانتا تهربان من عينيّ أمّها. ضمّت الأم ابنتها إلى صدرها:

- " بنيّتي..ارفعي رأسك.. ارفعي رأسك عاليا.. فما اقترفت ذنباً ولا عاراً.. افخري بصمودك".

بكت خلود وهي تمسح عينيها بصدر أمّها، ولكن داخلها كان مليئاً بالفخر. وشعرت أنّها كانت على قدر كبير من المسؤوليّة، فزادتها تلك الحادثة ثقة بالنّفس وحقدا على عدوّها".

قالت :

- " لقد حفر هذا الضّابط صورته في بؤرة الحقد داخل أعماق نفسي، لذا فلن أنساه أبدا، وستناله ذات يوم يدي. ولا شيء في الدنيا يشفي غليلي سوى أن افقأ عينيه بإصبعيّ هاتين".

ومدّت اصبعيها السبّابة والوسطى.

تنهّدت حميدة بعد أن اطمأنّت على ابنتها:

- " الحمد لله.. لقد مضت الحادثة على خير. سلمنا وسلم ضيفانا. وحافظنا على الأسرار في صدورنا".

دخلت على الضّيفين فوجدتهما يأكلان أصابعهما ندماً.. كلّ يتّهم الآخر بالخطأ وقصر النّظر. اقترب منها العريد وأمسك بيدها اليمنى يقبّلها. وكذلك فعل رنّاد بيدها اليسرى يطلبان السّماح. قالت تسحب يديها وتهزّ رأسها استنكاراً للشّك والظّنون التي لعبت في رأسيهما.

– " كادت شكوككما أن تونيا بكما وبنا إلى الهاوية. لننس الآن ما حصل. ولنجعل من هذه الحادثة توثيقاً لعرى الصداقة والثقة بيننا. ولكن حذار من غلطة أخرى. فأعمالنا لا تحتمل الخطأ أبداً ".

(3)

العريد ابن مدينة حيفا الفلسطينيّة.. لجأ إلى بيروت طفلا مع أهله عام 1948 بعد أن اشتدّ هجوم الإسرائيليين على المدينة. حمله أبوه مع ما خفّ حمله وغلا ثمنه.. وهرب به وبأسرته تجاه البحر.. فالوالد صياد له مركب. وعندما وصل الشّاطىء وجد أنّه تعرّض للقصف وغرق، فركب الوالد مع أسرته على ظهر باخرة.. تدفق النّاس عليها بالمئات، ولم يكونوا يعرفون وجهتها. كان همّ الوالد أن ينجو بأسرته فيلتجىء إلى أي مكان.. بينما كانت الباخرة تتهادى على موج الأحزان.. إذا بالمهاجرين يرون من بعيد مدينة تتلألأ بالأنوار.. فاختلفوا على ظهر الباخرة.. منهم من قال إنّها الإسكندرية، ومنهم من قال إنّها جزيرة قبرص، ومنهم من قال إنّها اللاذقية.

مع طلّة الصّباح انكشفت للمهاجرين مدينة بيروت، ما زال النعاس يملأ عينيها. نزلوا إلى الميناء، وتوجّهوا إلى مركز التّجمع الشرقي للاجئين الفلسطينيين.. وحصل كلّ منهم على خيمة.. وذاق مع أسرته من شظف العيش هناك ما لا يحتمل ولا يطاق.. كان والد العريد صيادا ترك مركبه أشلاء أخشاب متناثرة تطفو على سطح البحر.. وما كان له من صنعة يرتزق منها سوى الصيد.. فشمّرت الأمّ عن ساعديها.. وباعت بعض أساورها الذّهبيّة.. واشترت من حانوت بقالةٍ متخصّصٍ في بيع الجملة.. بضاعة (متنوعة) تلزم كل بيت.. ولا يستغنى عنها.. فردتْها على شرشف كبير أمام الخيمة. وأخذ أهل المخيم يشترون لوازمهم منها، فحسّن الله أحوالهم.. وأصبح الشّرشف حانوتاً كبيراً يبيع بالمفرق والجملة، اشترك في إدارته الأب والأم.. وأصبح مصدر رزق للعائلة يغنيهم عن ذلّ السّؤال.

(4)

زيّاد عمران الحمد من سكان مدينة عكّا الجزر.. هازم نابليون، ومحطّم آماله في احتلال باقي مدن السّاحل الفلسطينيّ. كان أبوه أيضا صيّادا يعيش على ما يجود به البحر من أرزاقه.

في عام 1948 اشتدّ هجوم العصابات الصّهيونيّة على الفلسطينيّين.. وهيّأ أهل عكا أنفسهم للدّفاع عن مدينتهم.. مصمّمين على أن يعيدوا ذكرى تاريخها المجيد ويقفوا في وجه العدو. ولما كان يعوزهم السّلاح وكان عمران أبو زيّاد أحد المناضلين المتحمّسين ، فقد وافق على اقتراح لجنة تولّت مسؤولية تسليح المدينة. وكان عليه أن يذهب إلى سوريا ولبنان ليجلب ما يسع مركبه من سلاح وعتاد، إلا أنّه أثناء وجوده وزملائه المكلّفين بمهمة جلب السلاح خارج البلاد، اشتدّ هجوم اليهود على المدينة، وحاصروا جميع منافذها، بحيث لم يبق أمام أهلها من منفذ سوى البحر.

في منتصف اللّيل طُرق باب البيت، وصاح الطّارق.

– " أنا جاركم نمر العبد يا أم زيّاد . لقد سقطت المدينة . اليهود يقتلون ويذبحون ويهتكون العرض . هيا جهزي نفسك يا "ببية" أنت وأطفالك لنلجأ إلى مكان آمن".

قالت الأم:

– " كيف أذهب وعمران زوجي في طريق العودة يحمل السلاح؟ فلا بدّ أنه سيهزم اليهود ويسترجع المدينة" .

صرخ بها جارهم نمر العبد بلهجة الأمر:

– " هيا جهزي نفسك وأطفالك، واحملي ما خفّ وزنه وغلا ثمنه، فاليهود يهجمون بالدبّابات، ولن يرجع زوجك ومعه دبّابات.. ذهب زوجك وتركك أنت وأطفالك أمانة في عنقي.. لن أذهب وأتخلّى عنكم.

قالت الأم وقد كانت عنيدة:

– " لن أذهب.. لن أذهب حتى يعود زوجي.. سأنتظر، ولو استدعى الأمر أن استقبله وأنا ميتة".

– " أيّتها المجنونة، إذا كنت لا تخافين على نفسك فخافي على أطفالك ، فاليهود يهتكون العرض ، ويقتلون النساء والشيوخ والأطفال. هل سيسرّ زوجك وجودكم دون شرف؟ أو أن ينظر إليكم قتلى متعفّنين"؟

جذبها من يدها وأمرها بأن تسرع. وقد كان صاحب هيبة:

- " هيا جهّزي نفسك وأولادك، فالمركب واسع يكفي لأطفالي وأطفالك".

وعندما رآها ما زالت مترددة قال:

- " حسناً. أعدك أننا سنعود فور أن يستريح زوجك والمناضلون المدينة".

كانت كلمته الأخيرة هي التي أقنعتها.. فقد كانت ترى زوجها كفؤ لاسترجاع المدينة. صعد الجميع إلى المركب.. وكانت فرقعة القنابل تصم الآذان.. وأزيز الرّصاص يزغرد فوق الرّؤوس.

صاح نمر العبد:

- " اخفضوا رؤوسكم، واذكروا الله. أطلبي السّلامة من رب السّلامة يا لبيبة.. وأنت يا صابرين – وكان هذا اسم زوجته – إقرأي آية من القرآن الكريم علّ الله يجعل لنا ببركتها السّلامة".

أبحر المركب طوال اللّيل متّجها إلى الشمال، على أنه سيحطّ الرّحال في مدينة صور.

قالت لبيبة "أم زياد":

- " بل نواصل إلى بيروت، فهي العاصمة، أكثر ناساً وأيسر رزقاً. ثمّ واصلت حديثها:

- " من يدري.. قد نلتقي بزوجي عمران، كانت وجهته بيروت ".

استجاب نمر العبد إلى طلبها.. واستحسن فكرتها:

- " حسناً.. نكمل إلى صيدا.. ثمّ إلى بيروت بإذن الله.. قد نصادفه في إحدى هذه المدن".

وصلوا إلى صور، فصادفوا الكثير من المهاجرين الفلسطينيين الوافدين من يافا وحيفا وعكّا وباقي المدن الفلسطينية القريبة من السّاحل. سألت لبيبة عن زوجها عمران. فلم تعثر له على أثر. ولم تسمع عنه خبراً.

ابتاعوا من صور لوازم السّفر، ووصلوا إلى صيدا. في عرض البحر بين صور وصيدا لمح نمر العبد مركب عمران (أبي زياد) كان على أتمّ المعرفة به، فالعشرة والخبرة واشتراكهما في حرفة الصيد لا تجعله يخطئه أبدا ، فاتجه إليه ، واقترب المركبان من بعضهما.

قفز عمران إلى مركب نمر العبد ، وقد زفّت له روحه برؤية أسرته سالمة . حمد الله . وبكى بكاءاً مرّاً. اشترك في ابتزاز دموعه أمران: سلامة أسرته، والحسرة على ضياع مدينته.

قال عمران لنمر العبد:

- " لا أدري ماذا أفعل أنا والرّجال؟ لقد سقطت المدينة قبل أن نرجع إليها بالسّلاح. أين نذهب به يا نمر؟ الرّجال مصمّمون على استرداد المدينة وما زالوا يظنّون أنّ المناضلين يختبئون في مكان ما في المدينة ينتظرون السّلاح".

سأل نمر العبد عن كميّة السّلاح التي عاد بها هو وزملاؤه. قال عمران:

– " عشرون بارودة .. اثنتا عشرة بارودة من أصل إنجليزي .. وثماني بواريد عثمانية.. وخمسة وثلاثون مسدّسا.. وحوالي ستة آلاف رصاصة... القليل يصلح منها للبواريد العثمانيّة".

ضحك نمر العبد وقال:

– " انج بروحك أنت وزملاؤك. لقد دخل علينا اليهود بالدّبابات والمدافع والرّاجمات الصواريخ والبنادق سريعة الطّلقات، فلا ترم بنفسك وزملائك إلى التّهلكة".

أخذ عمران نمر العبد من يده:

– " هيّا معي نعلم الرّجال بحقيقة الأمر.. فإذا لم أعُد بالسّلاح إلى عكّا.. فأين أذهب به"؟

تجادل نمر العبد مع الرّجال، وحاولوا أن يعتدوا عليه، واتّهموه بأنّه هو وأمثاله طابور خامس.. وأصّروا أن يعودوا بالسّلاح إلى عكّا. وعندما سألهم نمر العبد كيف سيدخلونها؟ قالوا:

– " نحن أبناء المدينة أدرى بخفاياها".

وصرخوا في وجهه يلعنونه ويعنّفونه ، وأخذوا يحثّون عمران على السّرعة:

– " لا وقت للعواطف يا عمران. سيعود أهلك إلى عكا خلال أيّام. لا تستمع إلى مرّوجي الإشاعات. هيّا نكمل ونتوكّل على الله، فلا بد أن الرّفاق بالانتظار" .

عاد عمران مع نمر العبد إلى مركبه.. وأخذ يعتذر له عمّا بدر عن زملائه ، وطلب منه السّماح ، فهم رجال مناضلون مخلصون.. لا تستوعب عقولهم أنّ عكا قد انهارت واستسلمت، فالحماس ما زال يملأ الصدور. واتّفق عمران مع نمر العبد أن يذهب بالعائلة إلى بيروت في مكان حدّداه حتى لا يضلا عن بعضهما حال عودته.

واصل عمران الإبحار مع زملائه إلى عكّا، وواصل نمر العبد دربه إلى الشّمال حتّى وصل مدينة صيدا . وكان حال المهاجرين الفلسطينيين هناك لا يقلّ سوءا عن المهاجرين إلى صور، فلا تُصادف أحداً إلا ويسألك عن قريب أو عزيز: أين رأيته؟ هل هو حيّ أو ميّت؟ هل باقي المدن والقرى الفلسطينية صامدة ؟ هل ستطول الغربة ؟ متى نعود إلى البلاد؟ أشواق، دموع، خوف، غربة، موت، شتات، تيه، ضياع، كأنّه يوم الحشر، لا أحد يعي ما هو فيه.. النّاس سكارى وما هم بسكارى.. أحيانا يسكت اللّسان وتتكلّم الدّموع.. أحيانا ترى النّاس لا دموع ولا لسان.. عيون مفتوحة وخطوات تائهة تقطع الأرض إلى المجهول.. لا هدف.. لا زمان.. لا مكان . طريق طويل لا يعرف أحد له هدفاً أو بداية ولا نهاية .

في صيدا .. وبينما كانوا يسيرون مع التّائهين.. سمعوا منادياً يحمل طفلا على كتفه:

– " يا ناس.. يا ناس.. هذا طفل تائه.. الثّواب لمن يدلني على أهله".

تجمّع النّاس وتفرّقوا. دمعت عيونهم على الطّفل الغريب، ذهب كلّ في طريقه، وبقي صوت المنادي: (يا ناس.. يكاد الطّفل يموت جوعاً.. ارحمنا يا رب. إرحمنا يا رب.. يوم يفرّ المرء من أخيه.. وأمّه وأبيه.. وصاحبته وبنيه. صدق الله العظيم. لا بدّ أنّه يوم الحشر. الله أكبر.. الله أكبر.. طفل عربي يموت جوعا بين آلاف الأمّهات. لا يجد ما يقتات به من صدر أم عربيّة حرّة . أين الرّحمة والحنان يدرّ من صدوركنّ حليبا)؟

أيّ عقوق هذا للعروبة والدّين؟

دفعت الشّهامة صابرين زوجة نمر العبد إلى المنادي . أمسكت بالطّفل وقالت:

– " أنا أقسم الرّزق بينه وبين ابني عوّاد".

وألقمته ثديها. تنهد الطّفل على صدرها.. جفّت دمعته.. ارتوى من حليبها.

وعندما شبع بحث نمر العبد عن المنادي فلم يجده. ترك الطّفل وولّى الأدبار.. فحمله وأخذ يدور به بين المهاجرين يبحث له عن أهل حتّى تعبت قدماه.. ولكن دون جدوى. وانطلقت الشّائعات.. قال قائل:

– " إنّ الّذي أعطاهم الطفل هو والده.. ماتت زوجته على الطّريق فلم يجد من يطعمه.. فاستبقاه أمانه عندهم".

وقالوا :

– " والدا الطّفل عجوزان.. ماتت الأم وتبعها الأب حسرة وبقي الطّفل.. والرّجل الّذي وهبكم الطّفل فاعل خير" .

وقالوا .. وقالوا .. وقالوا .. ولكن..

قال نمر العبد لزوجته صابرين:

– " الظّاهر أنّ هذا الطّفل سيظلّ يقاسم ابننا رزقه مدى الحياة.. وسيكون أخاً له".

قالت صابرين والدموع تملأ عينيها عطفا على الطفل:

– " أهلا بولد لم يحمله بطني.. لك ثدي ولأخيك ثدي.. أنت ولدي.. لا تمييز.. ولا تفريق.. والله على ما أقول شهيد".

حملوا الطّفل إلى المركب، وقد زاد عددهم واحدا، واتّفق الجميع أن لا يأخذ السّائل إلا جواباً واحدا "فوّاز" هو الأخ التّوأم لابنها "عوّاد".

واصلوا الإبحار إلى بيروت، وذهبوا إلى مركز تجمع المهاجرين الفلسطينيين الشّرقي. وحصلت لبيبة على خيمة من وكالة غوث اللاجئين باسم زوجها عمران الحمد وحصل نمر العبد على خيمة أخرى أيضا. وأقاموا الخيمتين إلى جوار بعضهما.

وصدف أن كان إلى جوار خيمتهما آل الحنش.. " أبو العريد" وأمه وهو وحيدهما.
كان القلق قد تغلّب على الصّبر في صدر لبيبة أم زّاد.. فلم تعد تقوى على المكوث في الخيمة.. فكانت تترك أولادها عند جارتها صابرين وتذهب مع جارها نمر العبد إلى الشّاطىء تنتظر عودة زوجها عمران، وتعود معه في المساء بعد أن ينتهي من الصّيد.

مضى ثلاثون يوما ولبيبة تسأل كلّ من حطّت قدمه على الشّاطئ عن زوجها عمران، وكانت تعود كلّ يوم بحالة لا يعلمها إلا الله.. فتارة تعود متفائلة.. فقد سمعت من البعض أنّهم رأوه حيّا يرزق، حتّى أنهّم تحدّثوا إليه، وأنّ غيبته لن تطول.
وتارة تعود حزينة دامعة العين تقول أنّ المقاومة في عكا قد انتهت.. والقوى الضّاربة من رجال المقاومة استسلمت. ومعنى هذا أن زوجها عمران أسير أو شهيد.
في الصّدر نار.. والدّعاء ليل نهار.. وصوتها في قلب الليل يعلو:
– " ماذا افعل أنا هنا ؟ سأذهب إلى عكا وأعود بالخبر اليقين. عذّبني كلام النّاس.. فيوم يحيونني وآخر يميتونني. ما عدت أطيق الحياة مع القلق. هل أولادي أيتام؟ أم أنّ والدهم أسير؟ أم أنّه طريد شريد في الجبال؟ أوغريق في قعر البحار.. أو أنّه من سكّان القبور.."؟
فيأتي نمر العبد وزوجته يهدّئانها، ويسألانها الصّبر والسّلوان، فلا بدّ أنّ زوجها عمران عائد.
فتقول:
– "إلى متى يا نمر ستبقى حاملاً همّي وهمّ أطفالي؟ يكفيك الّذي عندك. إنّ حملك ثقيل أيّها الجار الطّيب. يجب أن يعود عمران ليرعى أطفاله ويخفف عنك الحمل" .
– " إنهّا مستورة يا لبيبة ، فالرّزق آتٍ من البحر، ووكالة الغوث تعيننا بالطّحين والملابس . والله لا ينسى أحداً من فضله".

(5)

بعد ثلاثة وثلاثين يوما من السّاعة التي قابلت فيها لبيبة زوجها عمران على سطح المركب، وكان اللّيل قد شارف على منتصفه.. دخل الخيمة شبح.. صحت عليه لبيبة.. وصرخت:

– " من؟ من؟ من؟ " وهبّت كالنمرة تدافع عن نفسها وأطفالها.

فرنّ الصّوت خافتا:

– " لا تزعجي الأطفال يا لبيبة. أنا عمران".

ولكن صوتها كان قد أيقظ الجيران . فهجموا على الخيمة من كل صوب. وكان لقاء الفرحة بعد صراخ خوف.

تجمّع الجيران المهاجرون من عكا يسألون عن الأهل والبيت وما تركوا خلفهم من أهل ومال وعقار ، فوحشة الغربة أفرغت في قلوبهم كل الشّوق إلى الوطن والأرض ، وقد جعلهم الفقر والعوز يتذكرون البلاد وخيراتها، وكيف كانوا يعيشون في بحبوحة.

سأل نمر العبد صديقه يتندّر:

– " هل استرجعتم البلاد بالعشرين بندقية يا عمران"؟

– " لقد استشهد الرّفاق جميعهم يا نمر العبد ".

– " بل قل أنهم رموا بأنفسهم إلى التّهلكة. لو أنهم عرفوا قدرة العدوّ وطاقاته، لو أنّهم تدرّبوا على السّلاح واستعمالاته لكانوا قد أصابوا كبد العدو وعاشوا يقلقون راحته. ولكنهّم صيادون، لم يخبروا فنّ القتال، ولم يمارسوا العمل مع السّلاح حتى ينالوا من العدوّ ويعرفوا كيف يحافظون على أنفسهم. لو انهم أتقنوا فن استعمال السلاح كما أتقنوا فنّ استعمال الشّباك، لما انتهى حالهم إلى هذا!!

قال عمران:

– " لا عقل يستوعب الّذي حصل يا نمر العبد. أكاد أجنّ. عكّا الّتي عجزت عن احتلالها جيوش نابليون، يسلمها أحفاد الجزار فريسة سهلة لعصابات الهجانا وشتيرن؟

أي عقل يصدّق هذا يا نمر؟

– " لكلّ زمان دولة ورجال".

وأشار إلى "فوّاز" يقول:

– " هل ترى هذا الطفل يا عمران؟ إنّه طفل تخلّى عنه أبوه، فلم يجد بين آلاف الأمّهات من تسدّ رمقه بقطرة حليب حتى شارف على الموت فحضنته صابرين وهرب أبوه. هل كنت تجد مثل هذا الأب في زمن الجزّار؟ هل كنت تجد مثل هؤلاء الأمهات اللواتي يبخلن على طفل بقطرة حليب ؟ الزّمن تغيّر. والرّجال تغيّروا. والنّفوس تغيّرت. لا تقارن رجال اليوم برجال الجزّار. ولا أمّهات الوطن في زمن الجزّار بأمّهات هذه الأيّام".

قال عمران:

– " لماذا .. لماذا ونحن الأحفاد؟

العلاقة بين الوطن وأهله كالعلاقة بين الشّمس والصّباح ، فلا صباح بدون شمس . ولا وطن بدون أهل . هل كنّا شمسا للوطن ؟ هل أعطيناه ؟ هل اعتنينا به ؟ كنا كنجم أعمى معلّق في الفضاء . لا افدنا أرضا ولا أنرنا سماءاً. الآن بعد الضّياع نضرب كفاً بكف ونسأل عن الوطن. يا للغباء"؟!!

كان حديث عمران أكبر كثيراً من فهم جيرانه البسطاء. الجميع يهزون رؤوسهم مبهورين بحماسه، خاصّة وأنّ الجميع يعتبرونه مناضلاً، دافع وقاوم وجلب السّلاح ، وآخر من ودّع البلاد . وعندما سألوه كيف تسلّل وعاد مع رفاقه إلى عكّا قال:

– " انتظرنا في عرض البحر حتّى حطّ اللّيل ، ثمّ اندفعنا بكل قوّتنا تجاه المدينة.. فوصلنا قبل الفجر بقليل. سحبنا المركب وأخفيناه في عريشة آل المنصور.. وانطلقنا نبحث عن الشّباب، فلم نجد سوى من عجزت رجلاه عن حمله على الهرب. وجدنا العجائز والكهول ووجدنا اليأس والإحباط والذّهول.. لا أحد يعي ما حصل، فالكارثة أكبر مما يستوعبه عقل. تباحثنا نحن الرّفاق مع بعضنا وكنّا خمسة.. ولما كان معنا عشرون بندقيّة.. كان يلزمنا خمسة عشر رجلا حتى يكون عددنا بعدد البنادق الّتي معنا فنكون بذلك قد شكّلنا قوّة. قلبنا المدينة بحثا حتّى استطعنا أن نعثر على العدد المطلوب، ولكنّهم كانوا جميعا مثلنا، قليلي خبرة في استعمال السّلاح، لا يملكون سوى الحماس والحقد على الغاصب المحتلّ، حتّى أنّ بعضهم لم يكن قد رأى سلاحا في حياته إلا على كتف الجنود الإنجليز. فمن أين له أن يتعرّف إلى السلاح وأنواعه؟ إنّهم مثلي صيّادون: نسري مع الفجر.. ونعود مع الغروب بما قسم لنا الله من رزق. كسرنا باب بيت آل منصور، إذ أنه مهجور، وتمركزنا فيه ووزّعنا أنفسنا إلى خمس مجموعات، كل مجموعة تتكون من أربعة أفراد. وجعلنا من كلّ واحد منا نحن الرفاق الخمسة قائداً على مجموعته. وحلمنا بثورة نقلب فيها المدينة رأسا على عقب ، يشترك فيها الأطفال والنساء والشّيوخ حتّى نخرج الإسرائيليين من المدينة. كانت الخطّة أن نحتل مراكز

الجيش الصّغيرة أولاً.. ونحصل على السّلاح نوزّعه على أبناء الشّعب الّذين علموا بوجودنا.. ثمّ ننتقل إلى المراكز الأكبر.. والمعسكرات حتّى نحرّر المدينة من (يهود) .. هذا كان أبعد ما جاد به علينا تفكيرنا، والّذي ظننّا أنّها الخطّة المحكمة التي لا احتمال للخطأ فيها ، والتي ستوصلنا إلى استرجاع المدينة، حتّى إن تفكيرنا هرب إلى الأبعد ، حيث حلمنا أنّنا سنواصل تحرير المدن المحتلة الأخرى. حدّدنا الزّمان والمكان وبدأنا الهجوم على خمسة مراكز، وكنت أنا قائد المجموعة الثالثة أحمل بندقية عثمانية تواضعاً. تمركزت مع رفاقي قريباً من المركز الذي كان عليّ أن أهاجمه، وأعطيت أمراً بالهجوم، وأطلقت الرّصاصة الأولى، ولكنّني عندما حاولت أن أطلق الأخرى لم تستجب البندقيّة. هجم رفاقي الأربعة، وبقيت أنا مع الحيرة أعالج سلاحي الذي تعطل. هل أهجم بيدي على العدو؟ ماذا افعل؟ دقائق وكانت رشّاشات العدوّ تعمل في كل اتجاه تحصدنا حصدا. رأيت زملائي وقد سكت سلاحهم، والله أعلم إذا تكلّم أو مثل سلاحي كان أخرس. سكتت أصواتهم وجرى الدّم ثلاث قنوات من نبع أجسادهم يخضّب الرّمال ويطوله الموج، فيصبغ الماء بلون أحمر . أرواحهم في السّماء ، ودماؤهم على الأرض شاهد . رميت البندقية وانسحبت بين الجموع العربيّة التي كانت تهلّل وتكبّر .. وتقول بدأ الهجوم المعاكس.. سنصدّ اليهود ونعيد عكا عربيّة.. الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر. بكيت وبكيت وبكيت.. تركتهم وحدهم يهلّلون ويكبّرون. تركتهم مع الأمل.. يعيشون مع الفأل الحسن، وعدت إلى بيتي تأكلني الوحشة وفراق الأصدقاء.

في صباح اليوم الثّاني سمعت أن تسعة عشر مقاتلا قد استشهدوا . كانوا مقدمة لهجوم عربي كبير آتٍ من البحر تعطّل في اللّحظات الأخيرة . بقيت في المدينة مدة ثلاثة أسابيع حتى هدأت الأحوال. كنت أخرج من الصباح وأسير حتى المساء، وكان كل ما يصادفني أطلالاً".

أصبحت عكا أيّها الأخوان أطلالا. حتى أهلها الذين بقوا فيها صاروا أطلالا.. وجوه شاحبة . عيون زائغة . نفوس ضائعة .. مات فيها الأمل وهربت منها الحياة ، كأنّهم هياكل عظميّة خرجت لتوّها من القبور. يتساءلون: هل هذا هو يوم القيامة؟ هل لليهود الجنّات ولنا عذاب المخيّمات؟

عندما شعرت بالأمان، استعنت ببعض الأخوة الصيّادين، وسحبنا المركب من عريشة آل المنصور، وأبحرت إلى صور.

هناك ذهبت إلى مركز تجمع الفلسطينيين، فرأيت أهل العزّ مشردين مشتتين فقراء. محتاجين. بحثت عن الرفاق فأحزنني حالهم. واصلت الإبحار إلى صيدا بعد قضاء عدة ليال مع الأصحاب، فلم يكن

حال الأهل هناك أحسن من حال الّذين في صور. قضيت عندهم عدّة ليال أيضا، ووٰصلت الإبحار إلى هنا.. الحمد الله أنّكم جميعاً بخير وعافية.

امتدّ الحديث حتى الصّباح.. وقبل أن يغادر الجيرٰان الخيمة.. شكر عمرٰان صديقه نمر العبد:

- " كنت نعم الجار المخلص الأمين. قدّرني الله على ردّ الجميل".

(6)

بدأ البحر يرمي بغيمات الخريف الرّطبة إلى سماء بيروت، وبدأ العقلاء من المهاجرين يحذّرون من شتاء مبكّر لا تنفع معه الخيام ، فدبّت في المخيّم حركة بناء جماعية نشطة ، تأتي كل أسرة بأعمدة خشبية تغرسها في الأرض وتثبت عليها ألواحا من الصّاج، فيصبح لها بيت من الزينكو أكثر قوّة وثباتا من الخيمة ، في وجه الرياح والعواصف والثّلوج. وقد بنيت هذه البيوت متراصّة متلاصقة، وتستند إلى بعضها استناد الضعيف إلى الضعيف ، فبان للناظر أن جميع بيوت المخيم بيت واحد من زينكو، له امتداد البصر.. وشح رزق البحر، وضاقت الدنيا في وجه نمر العبد، فانتحى ذات ليلة بعمران:

– " شحّ رزقي وضاقت الدّنيا في وجهي، ونفسي لا تطاوعني أن أمد يدي. دفنت أمام بيتي في عكا ذهبات زوجتي وخمسين ليرة ذهبية إنجليزية " أم حصان" ورثتها عن أبي.. وأنا عازم على أن أتسلّل إلى عكا لأسترجّها. أوصيك بالأهل والبيت والأولاد " .

تصدّى له عمران مستنكراً:

– " إنّك تهذي، تتحدث حديث المجانين وأنت عاقل".

– " لماذا يا عمران؟ لماذا؟ لقد فعلها الكثيرون. تسللوا وعادوا بأموالهم وأشيائهم سالمين غانمين".

– "كان ذلك في البداية، أما اليوم فقد صعبت الأمور، ولا يستطيع عصفور أن يتخطّى الحدود".

الدنّيا ما زلت بخير يا نمر العبد. أقسّم اللّقمة بيننا ولا أدعك تعرض نفسك لخطر الموت. ما زل في يد لبيبة أربعة مباريم ذهب خالص. نبيعها ونجتاز ضائقة العسر. ولا بدّ أن الفرج آت. لا ينسى الله من فضله أحدا. لا تخش شيئا يا صديقي. ذهباتك في أمان.. لن يفكر أحد أن ينبش الأرض ويستولي عليها، وسوف تعود إلى عكا عاجلا أم آجلاً.. وستجدها في انتظارك. أم انّك تظن أننا سنقضي العمر حبيسي هذه الأكواخ؟ إنها وسوسة الشيطان تحثك على أن ترمي بنفسك إلى التهلكة. استعذ بالله وابعد عنك هذا الوسواس، واتّق الله في نفسك وأهلك وأطفالك، وفيّ أنا صديقك. فمن لي في هذه الغربة غيرك"؟

ونادى على زوجته يقول:

– " لبيبة جهزي مائدة العشاء.. فعائلة نمر العبد ضيوفنا هذه الليلة".

قال نمر العبد متأثّراً بكلام عمران:

– " الليلة أطعمتني يا عمران.. غدا، هل أبحث عن صديق آخر يطعمني"؟

قال عمران يستنكر قوله:

– " استغفر الله، الخير خير ربنا، وخيرك سابق. لقد أودعت أهلي عندك شهرا كاملا ، وكنت الصديق الكريم الوفيّ" .

تناولت العائلتان طعام العشاء معا.. وطالت السّهرة على غير عادة.. رغم أن نمر العبد ليس له قدرة على السّهر.

مع منتصف الليل.. خرج نمر العبد يشدّ على يد عمران شاكراً . استغرب الجميع تصرّفه.. فما كان بينهم مثل هذه المجاملات، فالبيت واحد .

(7)

مع الفجر.. نهض عمران ينادي على نمر العبد حتّى يخرجا إلى الصّيد معا كالعادة، فأجابت زوجته صابرين أنّ نمر ذهب بعد السّهرة فورا إلى البحر، وقال انّه سيجرب حظّه مع صيد الليل، فالليلة مقمرة، والأسماك تطفو على السطح تلاحق ضوء القمر على الأمواج المتكسّرة.

ضرب عمران كفّا بكفّ وقال:

- " اللّهم أعد نمر العبد سالما إلى أهله وأولاده.. لا حول ولا قوة إلا بالله".

عاد عمران مع الغروب من البحر يقسم الرّزق بينه وبين عائلة نمر العبد. وعندما سألت صابرين عن زوجها قال:

- " لقد يسّر الله لزوجك الرّزق الوفير في سفرة إلى صيدا ، ثمّ إلى صور ، وبعدها يعود لك بإذن الله سالماً مع المال الوفير" .

قالت مستغربة:

- "لماذا لم يخبرني" ؟

- "كانت سفرة مفاجئة، ربحها وفير، فخشي أن تفلت منه" .

فتحت صابرين يديها تدعو لزوجها بالسلامة والرّزق.

مضت الأيّام وصابرين تسأل وعمران يصبّرها. ولما طالت المدّة، دخلت بيت عمران ذات ليلة تحمل القرآن وقد طفح بها الكيل بعد أن نفذ صبرها:

- " ناشدتك الله يا عمران أن تخبرني بالحقيقة. أين زوجي؟ ها هو القرآن بيني وبينك شاهد على قولك.. أين زوجي..؟ فلا أحد يعلم سرّه سواك".

قال عمران يتهرب من سؤالها:

- " هل ينقصك شيء يا صابرين؟ يشهد الله أنني أقسم الرّزق بيني وبينكم" .

قالت بحرقة والدموع تملأ عينيها:

- " ينقصني زوجي يا عمران، أبو أولادي، فسؤالهم عنه يفتت كبدي. لقد ملأت آذانهم بالعهود والوعود، وبالكلام الذي تصبرني أنت دائما به حتّى باتوا لا يصدّقونني".

- "توكّلي على الله واجلسي يا صابرين".

ونادى على زوجته:

- " جهزي الشّاي يا لبيبة".

قالت صابرين:

- " يحرم عليّ زادك يا عمران إذا لم تعلمني بالحقيقة".

وهكذا تمكّنت صابرين من أن تحاصر عمران، فاضطر أن يصارحها بالحقيقة.

لطمت على وجهها ، فتطاير رذاذ الدموع عن خديها:

- " سامحك الله يا عمران ، لو أنك أخبرتني لحطمت المركب ومنعته من ارتكاب مثل هذه الحماقة .. لماذا لم تمنعه وهو أقرب إليك من الأخ الشّقيق " ؟

- "يشهد الله يا صابرين أنّني تحدّثت إليه حتّى ظننت أنّه اقتنع وأبعد الفكرة عن رأسه. لقد حدثني زوجك بما يجول في رأسه عند المغرب وسافر في الليل ، فما كان هناك وقت لأنبّه أو أحذّر".

انسحبت صابرين من بيت عمران يملؤها الغضب، تتّهم عمران بالتقصير وعدم الوفاء للصّديق.

عندما جاء المساء، وحاول عمران كالعادة أن يقسم الرّزق بينه وبين عائلة صديقه، رفضت:

- " لن أطعم أولادي إلاّ من عرقي، ولا أقبل أن يكون لأحد عليهم من فضل سوى الله وكدّي وتعبي. أعانك الله ويسّر لك الرزق.. لقد حمّلك زوجي فوق طاقتك، وآن الأوان أن ترتاح قليلا. لقد قرّرت أن اعتمد على نفسي في معيشتي أنا وأولادي".

- " هداك الله يا صابرين.. الرّجال عاطلون عن العمل.. فكيف وأنت سيّدة لا تعرفين حرفة.. وأولادك صغار"؟

- " المعين هو الله يا عمران. لقد تعلّمت فنّ الخياطة والتّفصيل في عكّا وأنا عذراء.. أرجو أن تكون لي الحرفة مصدر رزق الشّرفاء".

- " ومن أين لك آلة الخياطة وتوابعها مما يلزم القصّ والتّفصيل" ؟

- " سأستأجر أو أستدين، والله على رزق العيال ميسّر معين. ذهبْت هذا الصّباح إلى كريمة الحنش أم العريد، وطلبت منها المعونة. فاشترطت أن أرهن عندها شيئا ثمينا تحافظ به على حقها ساعة أعجز أن أرد لها دينها، ولا أملك شيئاً ثميناً يفي بالغرض".

- " توكّلي على الله يا صابرين، لن تطول حيرتك وأنا حيّ أُرزق".

حدّث عمران زوجته بالأمر، فاستكبرت فيه ذلك:

– " لقد عشنا أنا وأولادك أيّاما طوالاً على مائدة نمر العبد وأنت غائب. هل نأكل اليوم ويجوع أولاد الجار؟ حاشا لله أن يطولنا العار.. لا.. لن يكون نمر العبد أكرم منّا".

رفعت كمّ يدها.. وسحبت إسورة ذهبية من رسغها وقالت:

– " غداً نذهب أنا وأنت إلى السّوق.. ونشتري لها ماكنة خياطة ولوازم التّفصيل فنفاجئها بها.. علّ الله يجعلنا سبب الفرج عليها وعلى أطفالها.

نهض عمران يقبّل جبين زوجته:

– " أصيلة يا لبيبة.. أصيلة يا أمّ زيّاد.. لو لم تنتخي كنت أنوي أن أرهن المركب عند كريمة الحنش وأفرّج على هذه المرأة وأطفالها.

بوركت يا أمّ زيّاد. كم أنا فخور بك".

(8)

في الصّباح الباكر ذهب عمران وزوجته إلى سوق الصّاغة وعرض الإسورة على تاجر عرف بالأمانة. أمسك الرّجل بالاسورة يسومها والشّك يرتسم على وجهه، ثمّ أعادها إلى عمران يهزّ رأسه أسفا:

- " ممّن اشتريت هذه الإسورة"؟

قال عمران وقد رجّ الخوف صوته:

- " أتينا بها من البلاد.. من عكا " .

- " إنّها مزيّفة.. مطليّة بماء الذّهب.. الله لا يبارك لأولاد الحرام.. عوضك على الله ".

صكّت لبيبة على وجهها:

- " غير معقول.. غير معقول.. لا يوجد في بلادنا غشّاشون. إن هذه الاساور كلّ ما نملك في الغربة".

وكشفت عن الأساور الثّلاث الباقية في يديها، وسحبتها تضعها في يد الرّجل ، فاعطى الرّجل الإجابة نفسها.

خرجت لبيبة تتعثّر وعمران يسندها تحدث نفسها: أنا لا أصدّق هذا الرّجل. يبدو على وجهه المكر والخداع. يريد أن يشتري بضاعتنا بالرّخيص.

أخذ عمران يطمئنها ويهون عليها.. قالت:

- " لا بد أن نسأل تاجرا آخر.. فالأمانة لم تعرف الا في بلادنا".

طاوعها عمران وذهبا إلى تاجر آخر، فأعطى الإجابة نفسها.

عادت لبيبة إلى بيتها تبكي وتولول، فخاف عمران أن يجتمع الجيران على صوتها.. صرخ بها:

- " ليس من شيء تفكّرين به سوى نفسك؟! لماذا الولولة والبكاء؟ رزقنا وفير والحمد لله، فبدل اللّطم والبكاء فكّري بجارتك المسكينة صابرين التي لا تملك من حطام الدّنيا شيئا. ذهب المعيل ولم يترك لها ما يسد الرّمق أو يسكت جوع أطفالها".

فارتدّت لبيبة إلى نفسها والدّموع ملء عينيها:

- " إنّها ذكرى من البلاد يا عمران".

قال والحسرة تملأ صوته:

- " وأيّ ذكرى يا لبيبة؟ أيّ ذكرى"؟

لم يمض وقت طويل حتى اندمجت لبيبة مع عمران يفكّران في هموم الجارة صابرين، والوسيلة التي تمكّنهما من أن يفرّجا عن كربها.

كانت الحيرة تملأ قلب عمران، فهو يعتبر نفسه الأمين على عائلة صديقه والمسؤول عنها، خاصّة وأنّه سبق لنمر العبد أن حمل مسؤولية أسرته في غيابه، فكان أميناً صادقاً في تعامله معهم. وقد أصرّ عمران أن لا يكون أقلّ منه شهامة وكرما ووفاءاً.. بحث في بيته عن شيء ثمين يبيعه ويشتري بثمنه ماكنة خياطة فلم يجد. وعندما انقطع الرّجاء قال لزوجته:

- " ما عاد أمامنا سوى أن نطرق باب كريمة الحنش.. نطرح عليها المشكلة.. فقد يرق قلبها".

قالت لبيبة:

- " ابحث عن مخرج غيره، فليس لهذه المخلوقة قلب".

- " دعينا نجرّب، فلكلّ ساعة رحمن".

- " حسنا، نذهب إليها في اللّيل نحدّثها في الأمر.. فساعات النّهار بيع وشراء، ولن تلتفت إلينا".

(9)

في المساء.. ذهب عمران وزوجته إلى بيت كريمة الحنش.. فرحّبت بهما. كان الحديث عاما، معظمه عن الوطن والشّوق إلى البلاد. كان الجميع راكباً الخيال، سارح الرّوح بعيداً إلى حيث عاش أجمل أيام عمر، في أرضه، في وطنه، بين أهله، إلى أن بدأ عمران يتحدّث عن حاجة صابرين، فتغيّر وجه أم العريد، وبدا عدم ارتياحها للحديث واضحا، ولكن عمران واصل حديثه مستدرّاً عطفها بكلام يفتّت قلب الحجر.

قالت :

– " من يضمن لي نقودي؟ فالمرأة ليس لها معيل، وليس لها مورد ترتزق منه حتّى يمكّنها أن ترتّ لي نقودي".

قال عمران فورا:

– " أقدم لك مركبي رهناً مقابل نقودك".

فأحرجت وما عاد بإمكانها أن تتراجع:

– " غداً نذهب إلى محامٍ ونوثق كل شيء حسب الأصول والقانون، وبعدها أعطيك النّقود".

وافق عمران، ودخل الخوف قلب لبيبة فقالت:

– " المركب مصدر رزقنا الوحيد يا عمران".

– " توكّلي على الله يا أم زّاد، النيّة عمل خير، والله لا يخذل الخيّرين".

بعد أن وثّق المحامي كلّ شيء حسب القانون، أخرجت كريمة الحنش النّقود من عبّها.. المكان الأمين المكين الذي لا تثق بغير، مخبأ، وقدّمت النّقود إلى عمران تعدّها وتتحسّر على فراقها.

ذهب عمران ولبيبة إلى السّوق واشتريا ما يلزم لتبدأ صابرين عملها في مهنة الخياطة. وما أن دخلا على صابرين يحملان ماكنة الخياطة حتى هجمت على يد عمران تقبّلها والدّموع تملأ عينيها:

– " سترتني وسترت أولادي.. أسدل الله ستر، عليك وحماك وحمى أطفالك من كلّ ضيم ".

سحب عمران يده قائلا:

– " استغفر الله، أنتم أعزّاء يا صابرين. لقد فرش نمر العبد ونحن نغطّي، فليس لنا فضل ولا جميل ".

(10)

كانت صابرين نشيطة.. أخذت تدور على المخيم بيتاً بيتاً.. تسأل عمّن تحتاج إلى أعمال خياطة بأجر زهيد.. حتى اشتهرت، وأصبح معظم أهل المخيم يأتون إليها ، فتوسّع عملها، وزد عدد ماكنات الخياطة عندها، وأصبح لديها عاملات خياطة، وانتشرت شهرتها خارج المخيم، وأعطاها الله من رزقه ما فاض عن حاجتها ، فأصبحت تعيش في بحبوحة من العيش.

أصابت الغيرة كريمة الحنش الّتي اعتبرت نفسها رب نعمتها وسبب سعادتها ، فأخذت تطالب عمران بسداد الدّين، ولكن من أين؟ رزق يومه بالكاد يكفيه. فاستصبرها لحين ميسرة، إلا أنّها أبت وأعطته مهلة أسبوع، وإلا فستعرض المركب بالمزاد العلني . جنّ جنون لبيبة، فالمركب مصدر رزق العائلة، فاقترحت على زوجها أن يخبر صابرين بالقصة.. فغضب عمران غضبا شديداً وهدّد:

– " تكونين طالقاً بالثلاثة يا لبيبة.. لا يرنّك مذهب ولا دين إن فعلتها وأعلمت صابرين بالحكاية. ماذا يقول الناس ؟ عمران يبصق ويعود فيلعق بصاقه ؟ عمران منّان؟ عمران يقدّم الخير ويندم؟ عمران يقدّم باليمين ويأخذ باليسار؟! أنسيت أنكم شبعتم أنت وأولادك أيّاما طوالا على مائدتهم؟ لم يعيّرني الرّجل، ولم يطالبني بدين، فليذهب المركب إلى الجحيم. والله لو رأيت أولادي يموتون جوعا واحداً تلو الآخر ما استرجعت ما قدّمت وجادت به نفسي ".

قالت لبيبة بحرقة الأمّ الحريصة على بيتها وأطفالها:

– " لا يكلّف الله نفسا إلا وسعها.. ولا جود إلا من الموجود.. صابرين سيّدة عاقلة.. تعي تماما قلّة ما باليد وأحوال الإنسان ساعة عسر، فقد مرّت بالتجربة. أؤكد لك أنّها تعذر.. وهي الآن في حالة يسر، والمبلغ الذي استدانّاه أصبح تافها بالنّسبة لممتلكاتها.. فلا تأخذك الشّهامة، وترمي نفسك وأولادك في مذلّة العوز.. هناك أولويّات".

– " كانت هجرتي إلى الله ساعة أن أدّيت المعروف يا لبيبة، والله سبحانه وعد فاعل الخير بالجزاء الحسن، وأنا أؤمن بأن وعد الله حق، ولن يحرمني رزق أولادي مقابل حسنة قدّمتها لمن يستحقّها".

– " مضى الأسبوع ولم يبق سوى الغد يا عمران، وبعدها ستقعد ملوما محسورا، يأكلك الندم لأنك فرّطت برزقك ورزق أولادك. فلو كانت صابرين في عسرة لأيّدتك، ولكن المبلغ المطلوب لن ينقص شيئا من أموالها".

قال يلومها:

– " هل أصابتك عدوى كريمة الحنش، وأصبحت عيناك تطولان حتى بدأت تحصين على الناس أموالهم وأرزاقهم"؟

– " معاذ الله أن أكون حسودة يا عمران. أنت تعلم أنّني من بيت كريم ميسور. مال الدنيا لا يغويني، فعيني قانعة، ولكنّ الظّرف يحكم في بعض الأحيان..

يا عمران.. إنّ صابرين عندها ما يكفيها.. ونحن نعيش الكفاف.. فلا ضير من أن نبيّن لها عذرنا، وهي أعلم النّاس بحالنا".

– " إنّ صابرين تعلم أن عندك أربع أساور ذهبيّة تتصرّفين بها ساعة عسر. لا تعرف أنّها مزيّفة".

– " نذهب ونشرح لها عذرنا، ونعلمها بأنها أساور مزيّفة".

– " وهل ستصدّق؟ ستظنّ أنّنا نحن المزّيفون.. وإنّنا طمعنا في مالها. لا تجادليني أكثر، فأهون عليّ أن تُقطع يدي الّتي قدّمت الخير على أن تستعيده".

وانتهى الجدل إلى هنا. فقد كانت لبيبة أعلم بطبيعة زوجها.

(11)

في المساء.. وبينما كانت مائدة العشاء تجمع الأسرة ، فاجأت صابرين آل عمران بزيارة:

- " يا لحسن حظنا، منذ زمن لم تجمعنا مائدة يا آل عمران ".

فاستقبلوها بحرارة. كانت الأسرتان في قمّة الشّوق لبعضهما، فقد تركت صابرين بيتها لآل عمران يوسعون به على أنفسهم، وذهبت تسكن بعيداً عن المخيّم في شقّة واسعة.. تستطيع فيها أن تمارس أعمالها بحرّية أكثر في أرقى أحياء بيروت.

اجتمعت العائلتان تستعيدان الذّكريات، والأولاد لا تسعهم فرحة اللّقاء، وعيون عمران تحذّر زوجته إن باحت بالسّر.

طالت السّهرة.. سرق الشوق الليل.. وقصر مداه.. ونهضت صابرين تستأذن.. ولبيبة تلجمها نظرات زوجها.. إذا بصابرين تمدّ يدها في محفظتها وتقدم وثيقة رهن المركب إلى عمران وتقول:

- " كنت نعم الجار، نعم الأخ الوفيّ.. جازك الله خيراً.

لن أنسى أن خيرنا جاء على يديك " .

استوقفها عمران بنظرات الشكّ يسأل منفعلا:

- " أطلب يميناً على كتاب الله أن تعلميني كيف علمت بالأمر".

- " أنت تعرف كريمة الحنش.. لا يستقرّ لسانها في فمها.. فقد أرادت أن تبيّن للنّاس أنّها سبب النّعمة والرّخاء التي نعيشها.. فعمّمت الخبر حتى وصل إلى إحدى العاملات الّتي تعمل في مشغلي.. فأخبرتني في الوقت المناسب، فذهبت وردت لها دينها شاكرة .. أمّا أنت يا عمران، فما كنت أغفر لك لو أنك تركت مركبك يباع بالمزاد" .

مدّ عمران يده يأخذ اتّفاقية الرّهن من صابرين خجلا آسفاً أنّ الحظّ لم يسعفه على تسديد الدّين حتى يبقى الأمر سراً.

قالت صابرين:

- " لقد قدّمت الكثير يا عمران، بحيث أنّنا لن نستطيع أبدا أن نردّ الدّين".

وأكملت حديثها:

- " قدمت الليلة ومعي اقتراح ..أرجو أن توافقاني عليه.. أرجو أن آخذ معي ابنتكما زهرة.. أعلّمها حرفة الخياطة والتّفصيل، فقد أصبحت في السّن المناسب لتتعلّم هذه الحرفة".

أعطت لبيبة الموافقة فوراً شاكرة، أما عمران فقد تردّد:

- " لا نريد أن نثقل عليك يا صابرين، ثم إن لبيبة لا تستغني عن زهرة.. إنّها المعين الوحيد لها في شؤون البيت".

- " سآخذ زهرة شئت أم أبيت يا عمران. أريد أن أعلّمها.. أن أحصّنها ضد نوائب الزّمن.. تنفع نفسها وتنفعكم.. فما جدوى أن تبقى إلى جانب أمها!؟ الدّنيا تركض ويضلّ من لا يتابعها. أطلق البنيّة تثبت وجودها في مجتمعها ولا تكون عالة عليه. إنّ ابنتكما جميلة ذكيّة، وسيكون لها شأن باذن الله".

فهم عمران ما ترمى إليه صابرين:

- " لا نستطيع أن نرفض لك طلبا.. خذي زهرة وعلّميها..ولكن دون أجر، فنحن والحمد لله بخير".

قالت تستغرب قوله:

- " كم أنت قاس يا عمران.. تظلم نفسك وتظلم أولادك.. الأجر يمسح عرق العامل ويذهب تعبه.. فلا تدع تعب زهرة وزراً في رقبتي".

- " هذا شرطي يا صابرين".

ولما كانت صابرين هي الأخرى تعرف طبع عمران، وافقت على مضض.

ذهبت صابرين، وأخذ عمران يضرب كفاً على كف:

- " يا سواد وجهك يا عمران.. ماذا سيقول الناس عنك غداً"؟

فقالت لبيبة :

- " سيقول الناس إنّك رجل مخلص.. حملت الأمانة ووفيت بالعهد، وكنت الرّجل الأمين الّذي حضن الأيتام وساعدهم حتّى أوصلهم برّ الأمان. ماذا تريد أكثر؟ من كان الله دوما على لسانه هل يخاف ألسِنة النّاس"؟!

قال غاضبا:

- " لا تدخلي الشّؤم إلى قلبي.. نمر العبد لم يمت.. سيرجع قريبا إلى بيته وأهله".

(12)

ذات ليلة.. غفت عين عمران على أنّات تعب موجعة.. فأيقظته زوجته تسأل عن حاله فقال:

– " نخر التّعب جسدي كما ينخر السّوس لبّ الشّجر، وما عاد منّي فائدة ترجى. لقد أصبح صعباً عليّ أن ألقي بالشّبكة وأسحبها، ولولا وجود ابني زيّاد وصديقيه العريد وفوّاز ابن صابرين يساعدونني، كنت تقاعدت".

ربّتت على كتفه تقول:

– " وَلَوْ! (الدّهن في العتاقي يا عمران)".

– " لا تشجّعيني.. أنت تنفخين في قربة مقطوعة، هدّني التّعب، ويئست من البحر، فهو في كل يوم يزداد بخلا.. لن اذهب إليه غدا.. هيّا مدّي لي الفراش. أنا في أشدّ الحاجة إلى الراحة".

ما كادت تنهض لتمدّ الفراش حتى سمعت صوت صابرين تستأذن بالدّخول.

فرح الجميع بلقائها.. وهجمت عليها لبيبة تقبّلها بحرارة مشتاق، ونسي عمران تعبه، وطار النّعاس من عينيه، لكنها عادت واستأذنت بدخول شابين يحملان ماكنة خياطة وكل ما يلزم للقصّ والتّفصيل.

استغرب عمران وسأل:

– " ما هذا يا صابرين"؟

– " أصبحت زهرة خيّاطة ماهرة تستطيع أن تعتمد على نفسها وتشقّ طريقها في الحياة وتكون عوناً لكم".

– " ومن أين لنا أن ندفع ثمن كلّ هذا "؟

– " لا جميل لأحد على زهرة.. إنّه تعبها.. لقد ادّخرت لها أجرتها على مدى الأيّام الّتي عملت بها.. وتذكّرت نفسي.. فقرّرت أن أسدّد ديني.. فأرجو أن يثمر عطائي كما أثمر عطاؤكم".

حاول عمران أن يرفض، ولكنها رمته بنظرة عتاب:

– "هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ لقد نالك من الإحسان إلينا ثواب عظيم، فلا تحرمنا الثّواب يا عمران".

ولما رأت الرفض في عين عمران، علت بصوت الغضب:

- " لا يمكنك يا عمران شرعا ودينا وقانونا أن تحرم زهرة من حقها في تعبها وعرقها. إنّ مهنة الخياطة تعب القلب.. فنّ الصّبر.. وتعب العين من الحرص والدّقّة ونقل النّظر من الغرزة إلى الغرزة، فلا تدخل عليّ الحرام يا عمران وتطعمني تعب ابنتك.. أنا لست بحاجة إليه ".

خجل عمران وأعلن الرّضى.. ففرحت زهرة ولبيبة.. وقبل أن تغادر صابرين بيت عمران سألت:

- " ألم تسمع شيئا عن نمر العبد يا عمران "؟

- " والله ما وقعت عيني على وجه غريب إلاّ سألته ولا جواب. صدّقيني لو أنّني أعلم أنّ سمكة آتية من عكا لسألتها، ولكن مَنْ دخل الحدود من الصّعب أن يعود، ولكنّني آمل خيراً، علّه يكون في البلاد يتحيّن فرصة العودة".

- " أرجو من الله ذلك".

والتفتت إلى زهرة تطمئنها:

- " لا تقلقي.. سوف أرسل لك الزّبائن".

ثم استأذنت بالخروج.

نظرت لبيبة إلى زوجها وفي عينيها حسرة:

- " ما زلت المسكينة تعيش الأمل على أن يعود زوجها سالما.. حقّق الله أحلامها".

حذت زهرة حذو صابرين.. فأخذت تدور على كل بيت في المخيّم تسأل عن أعمال خياطة بأجر زهيد.. فتعرّف عليها أهل المخيم، خاصّة أنّها كانت تعمل عند خياطة مشهورة مثل صابرين، وأصبح الزّبائن يأتونها إلى البيت.. فوُفّقت، وأصبح دخلها جيدا. وأحال رنّاد والده على التّقاعد واشترك مع فواز نمر العبد وعريد الحنش في الصّيد.. يتقاسمون الرّزق فيما بينهم عند عودتهم من البحر.. إلاّ أنّ رنّاد كان أكثرهم حاجة إلى المال.. أصرّ أن يتحمّل مسؤولياته ويقاسم أخته زهرة مصروف البيت قدر استطاعته، ولو أن العبء الأكبر كان يقع على زهرة، فما زل رنّاد في مراحل الدّراسة الثّانوية النّهائية، وكانت الدّروس تأخذ زمنا غير قليل من وقته.

(13)

كانت معاناة الفلسطينيين صعبة: المخيّمات مكتظّة.. الجوع منتشر.. الأمراض سارية. وعود الدّول العربيّة في استرجاع فلسطين كاذبة.. قرارات هيئة الأمم المتّحدة فارغة. هذا الجوّ من الغربة والاضطراب والتشرّد والحنين أفرز عندهم حالة من القناعة والإيمان بأنّ فلسطين لن تعود إلاّ بسواعد أبنائها.. وانعكس هذا على نشاطات منظّمة التّحرير الفلسطينية التي أصبحت رمزالعودة لكلّ فلسطينيّ وأمله.. فاشتدّ نشاطها العسكري .. وأصبحت لها طلعات تعرقل العدوّ وتلحق به خسائر فادحة.. وأصبح لها نشاط سياسيّ فتح عيون العالم على حقوق الشّعب الفلسطيني في أرضه. فأيّدها واعترف بها عدد كبير من الدول، وأصبح لها نشاط اقتصاديّ احتوى عدداً كبيراً من الفلسطينيّين العاطلين عن العمل، مما أنعش أحوال المنظمة اقتصاديّا، وحسّن أوضاع اللاجئين.

كان مردود هذا الإخلاص والتّضحية والتّفاني إيمانا وثقة وتضحية من الشّعب لا حدود لها.. فانضمّ الشباب إلى الجناح العسكريّ فدائيين ، كلّ يأخذ من دموع الأمّهات وعذاب الآباء والأجداد والغربة والتشرد واليأس مرارة يزرعها في روحه قنابل يدحرجها فيقتل ويجرح ويسقي العدو من الكأس الذي أسقاه منه ، فيموت الجسد على التّراب الفلسطينيّ ، وتسكن الرّوح فضاء فلسطين الرحب راضية.

وكان نتيجة ذلك أن انضمّ الأصدقاء الثلاثة رشّاد والعريد وفوّاز الى الجناح العسكريّ بعد أن أنهوا الدّراسة الثّانوية. وقد رحّب بهم المسؤولون كثيرا لعلاقاتهم بالصّيد والبحر.. وأخذ يدرّبهم بحارة فلسطينيون خبراء أشدّاء حتى أتقنوا استعمال السّلاح والقتال في البحر وصناعة الالغام وتفكيكها. .كانت فترة تدريب قاسية تولاهم بعدها علماء نفس وأطباء علّموهم أساليب التّحقيق والتّعذيب الإسرائيليّة.. وكيفيّة التّعامل مع المحقّقين.. إلى أن أتمّوا جميع التّدريبات اللازمة الّتي تؤهّلهم للقيام بعمليّات عن طريق البحر بكفاءة.

****

مضى من الليل أكثر من نصفه. استيقظ عمران يحدث زوجته:

– " لا ادري يا لبيبة لماذا لا يفارقني طيف نمر العبد هذه الليلة. أكاد أجنّ.. كأنّي أسمع صوته يناديني".

نهضت لبيبة تقول:

- " أكاد أقسم أنّني سمعت صوته ".

عاد عمران واستلقى على فراشه:

- "اللهم اجعله خيراً ".

ولكن الصّوت عاد ينادي:

- " يا عمران.. يا أبا زيّاد.. ائذن لي بالدّخول. أنا صديقك نمر العبد ".

قالت لبيبة :

- " أنصت يا عمران. النّداء يتكرّر".

نهض عمران يقول:

- " لا يمكن أن نكون كلانا تحت تأثير حلم في وقت واحد".

توجّس عمران خيفة:

- " ترى من هذا الذي يدّعي أنّه نمر العبد"؟

قالت لبيبة:

- " إنّه صوته".

- " هل يعقل أن يكون ما زال حيّا يا لبيبة؟ لقد مضى على غيابه ما يقارب العشرين عاما ".

نهض عمران بخطوات بطيئة يتجه نحو باب البيت.

صرخت لبيبة:

- " كن حذرا يا عمران".

- " أحذر ممّن يا لبيبة؟ فما سلكت يوما سوى طريق الخير. أنا رجل مسالم وليس لي أعداء، ولا يوجد عندنا ما يطمع به أهل الشّر".

أطلّ عمران من شقّ باب البيت فرأى رجلا تخفي معالم وجهه عتمة الليل. صاح عمران:

- " من أنت يا رجل "؟

اقترب الرّجل من عمران يسحبه من داخل البيت ويضمّه الى صدر، ويقول تخنقه العبرات:

- " أنا صديقك أنا أخوك.. أنا نمر العبد يا عمران".

فتحت المفاجأة فاه عمران، فواصل نمر العبد حديثه:

- " عدت أقضي البقيّة الباقية من عمري في صحبتك. افتقدتك كثيرا يا عمران. تصوَّر أنّني غبت عنك عشرين عاماً.. غربت فيها الدّنيا فلم أجد مثلك صديقا.. أين زوجتي.. أين أولادي"؟

صاح عمران وقد أنسته الفرحة سؤال نمر العبد:

- " لبيبة.. يا لبيبة.. نمر العبد حيّ يرزق.. لم نكن نحلم يا أم زياد.. نمر العبد حيّ يرزق".

نهضت لبيبة ترحب وتهلّل وتكبّر:

- " والله لولا أنّني أخاف أن يقول الجيران أن لبيبة جنّت لزغردت وملأت المخيم فرحة بعودتك . أهلا. أهلا بك يا نمر العبد.. ألف حمد وشكر لله على سلامتك".

- " جهّزي الطّعام يا لبيبة، لا بدّ أن نمر العبد جائع، فهو قادم من سفر بعيد".

قال نمر العبد:

- " لقد حلمت عشرين عاماً أن تجمعني مائدة مع زوجتي وأولادي. أين هم يا عمران؟ بدأ الخوف يدخل قلبي.. أجبني".

- " فوق.. فوق السّحاب ما شاء الله".

لم تحمل نمر العبد رجلاه.. فركع على الأرض يسأل:

- "ماتوا؟ ماتوا جميعهم يا عمران"؟

أمسك به عمران يرفعه وقد أدرك خطأه:

- " كفى الله الشّر يا رجل.. إنّهم بخير والحمد الله. لقد أوسع الله عليهم من نعمه، فهجروا المخيم، وامتلكوا شقة واسعة في أرقى أحياء بيروت تتسع لهم ولأعمال زوجتك".

- " تعني أنّهم جميعا أحياء"؟

تبادلت لبيبة وعمران نظرات الحيرة. ماذا يقولان ؟ كيف يعلمان الرجل بالحقيقة ؟ ومن يتكلم؟ طلّ الخوف من عيني نمر العبد، وعلت دقات قلبه.. صرخ:

- " ليتكلم أحد.. ماذا حدث لزوجتي وأولادي؟ بدأت أشعرأن مصيبة حلّت على بيتي اثناء غربتي".

قالت لبيبة:

- " قبل سبعة عشرعاما حلّ وباء الكوليرا على المخيم، لا غذاء ولا ماء نقيّاً ولا دواء، فحصد من أهل المخيم الكثير. والّذين نجوا كان الله قد كتب لهم عمراً جديداً ".

قال نمرالعبد يضرب على رأسه:

- " تكلّمي يا لبيبة. تكلّمي. من مات؟ ومن ما يزل حيّا من أسرتي"؟

- " ابني سمير وابنتي سميرة انتقلا إلى جوار ربّهما".

- " وأنا يا لبيبة. من بقي من أسرتي"؟

- " ذهب ابنك عوّاد مع سمير وسميرة، وبقي فوّاز مع أمه. أدامهما الله لك".

قال يضرب كفا بكف:

- " مات الولد الذي من صلبي وعاش الذي تبنيناه"؟!

هزّ عمران رأسه يقول:

- " كفكف دمعك يا صديقي واحمد ربّك، فقد أبادت الكوليرا عائلات بأكملها".

- " خذني إليهم أرجوك".

- " الآن"؟

- " ما المانع"؟

- " لقد اقتربنا من الفجر يا نمر، والمشوار بعيد يحتاج إلى سيارة. نأكل سويا ونتحدث قليلا حتى ينبلج الصّباح. والمثل يقول (صابح القوم ولا تماسيهم) ".

- " عشرون عاما يا عمران. كان الصّبر يأكلني كما تأكل النّار الهشيم".

ضحك عمران:

- " لتكن عشرين عاما وبضع ساعات. ما باليد حيلة يا نمر العبد. أقسم لك أن زوجتك وابنك بخير وعافية، وهما في حالة من اليسر فوق ما يصوّر لك خيالك. حدّثيه يا لبيبة".

قالت لبيبة:

- " الجميع بخير والحمد الله. سوف لا تصدّق نفسك عندما تدخل بيتك الجديد. إنّه قصر يا نمر العبد".

-" قصر!!؟ من أين جاءهم المال؟ هل ربحوا في ورقة يانصيب؟ هل عثروا على كنز؟ من أين جاءهم هذا الغنى الفاحش"؟

أجابت لبيبة:

- " عملت زوجتك في مهنة الخياطة، ففتح الله عليها وأغناها".

هزّ نمر العبد رأسه حسرة وقال:

- " مسكينة صابرين، لقد أحوجها الزّمن أن تعمل من بعدي خياطة".

وأخفى وجهه وأخذ يتمتم:

- " يا للعار ! يا للعار"!!

أزاح عمران كفيّ نمر العبد عن وجهه:

– " تغرّبت عشرين عاماً ورجعت كما أنت، بنفس عقليّة زمان! ما العيب في عمل شريف؟ لقد تعلّمت ابنتي زمرّ عند زوجتك وفتح الله عليها هي الأخرى. وهي تساعد في مصروف البيت، وإلا لأذلّنا العوز. الدّنيا تغيرت، والزّمن تبدّل. ما من فتاة في المخيّم إلا وتعمل.

زفر نمر العبد زفرة طويلة حمّلها عذاب السّنين:

– " الزّمن دوّار.. (لا اللي بيكون فوق يبقى فوق.. ولا اللّي تحت بيفضل تحت). كانت نساء فلسطين ملكات في بلادهنّ. راعيات لبيوتهنّ.. حافظات لأرضهنّ.. أمّا اليوم فهنّ خادمات في أرض الغربة. ما أصعب أن تنقلب اليد العليا إلى سفلى، وأن ينقلب السيّد إلى عبد.. والمعطي إلى سائل.. والقادر إلى عاجز.. لقد أصبحنا نوجد تبريراً للعيب.

هل كان يوافق أحد أن تعمل زوجته أو بناته في عكّا خارج بيته يا عمران"؟

– " الزّمن تغيّر، والمجتمع تقدّم وتبدّل، والجوع كافر.. عندما كانت تهبّ العاصفة في البحر، كنّا ننزل الشّراع ونطأطيء رؤوسنا حتى تمرّ.. أليس كذلك يا نمر العبد؟ إنّك تحدّثني كأنّك من عالم آخر، ولا تعيش في هذا المجتمع، ولم تتابع التّغيير والتّجديد فيه!!"

أين كنت طوال هذه المدّة؟

– " كنت في السّجن يا عمران.. تصوّر.. عشرين عاما قضيتها في السّجن بعيداً عن النّاس من أجل ذهبات دفنتها أمام بيتي قبل أن نهاجر.. قرار أهوج اتّخذته ساعة حاجة ويأس.. وليتني عدت بفائدة. ذهب الذّهب.. وذهب العمر.. وها أنا أعود لأجد زوجتي تعمل من أجل أن تعيش هي وولدها".

ضحك عمران يهزأ من الدّنيا وقال:

– " أنت ذهبت لتحضر ذهباتك، أما نحن فقد أحضرنا ذهبنا معنا، وعند الحاجة وجدناه مزيّفا.. هل تذكر الأساور الذهبيّة الأربع التي كانت في يديّ زوجتي، وقلت لك لا تذهب وتخاطر بنفسك.. وإنّنا إذا أحوجنا الأمر نبيعها ونجتاز ضائقة العسر؟ عندما احتجناها وذهبنا نبيعها وننتفع بثمنها وجدناها مزيّفة".

ثمّ أكمل حديثه:

– " المثل يقول: (ولا يغلب الدنيا إلاّ من رضي).. لوكنت رضيت يا نمر العبد ما مال حالك هكذا".

صرخ نمر العبد صرخة موجوع وقال:

– " كنت صابرا وراضيا يا عمران، وأنت تعرف أنّني قنوع، ولكن الجوع لم يصبر معي. فتك بمعدتي، وأدمع عيون زوجتي وأولادي.. أتذكر؟ لقد دعوتنا تلك الليلة إلى مائدة عشاء فكنت منقذاً. الطّعام

قبل ذلك لم نذقه منذ ثلاث أيّام. ما زلت أذكر.. ثلاثة أيّام عدت فيها من البحر بخفّيّ حُنيْن.. فاسودّت الدّنيا في وجهي".

- "لماذا لم تخبرني"؟؟

- أخبرك بماذا وأنت أبو العيال؟ هل كنت ستجوع وتطعمني أنا وعيالي؟

سكت نمر العبد لحظة ثمّ قال:

- " دعنا من العتاب يا عمران.. حدّثني عن زوجتي وابني فوّاز" .

- " قلت لك إنّهما بخير.. وسيسرّك النّعيم وبحبوحة العيش التي يعيشانها".

- " وهل تظنّ انه سيسعدني أن أعيش عالة على امرأة تصرف على بيتي، وتعيلني أنا وابني؟ بعد أن ارتاح من عناء السّفر وما عانيت من قهر وتعب سأعود إلى البحر صيّادا. اشتقت للبحر والسّمك والشّبك والموج وليل البحر ونسائمه وحتّى إلى أخطاره".

ضحك عمران وقال:

- " البحر لا يقبل بعجائز مثلي ومثلك. صارعته في شبابي فغلبته. وصبر عليّ صبر الحكماء.. وفتح لي صدره يتحمّل كل يوم ضربات مجذافي حتى شاخت يداي، وبدأ يضربني بموجه العالي فأغاظني وطلبته للصراع.. وناديت عزم الشباب فخذلني.. ضحك مني وقال (يا شيخ، هل ستأخذ زمانك وزمان غيرك؟) فاتّعظت، وانسحبت أرثّ عليّ كرامتي، وأسلمت المركب لابني رشّاد، فتقاسم التّعب مع ابنك فواز والعريد ابن جارنا الحنش، فهم في كلّ يوم يذهبون إلى الصّيد ويتقاسمون الرّزق.. والحمد الله مستورة".

فرح نمر العبد عندما علم أن ابنه فواز يعمل في مهنة أبيه صيادا وقال:

- " حسنا، غدا سأسرح معهم وأصبح الشّريك الرّابع. وتبقى أنت وحدك يا عجوز".

ضحك عمران وقال:

- "حسنا.. اذهب وصارع البحر، فان كنت ما زلت له نداً فثابر واستمر، وإلا فارجع وشاركني حياة الهدوء والرّاحة نقضي ما تبقى لنا من عمر معا صديقين حميمين لا نفترق أبداً ".

قال نمر العبد يستغرب قول عمران:

- " أنا أجلس قعيد البيت، تصرف على بيتي وتعيلني امرأة؟ فليسبق الموت قبل أن تصيبني هذه المهانة. هيّا انفض عنك الكسل يا رجل ولا تستسلم، وارجع إلى أحضان البحر.. وانهل من خيراته كما تنهل النحلة من بساتين الزّهور" .

- " لقد خانني ساعداي وأنا اسحب الشّبكة، وأصبح موج البحر يزغلل عيوني فأشعر بالدّوار يلف رأسي".

– " إنّها أوهام يا عمران.. إذا كانت الأسماك يصيبها الدّوار يصيبنا نحن الصّيادين دوار. أنا أعتبر الصّيادين أحد أنواع السّمك.. مثل البوري واللوكس وسلطان ابراهيم والحيتان وسمك القرش، فإذا سمعت أن أيّاً من هؤلاء أصابه دوار.. تكون أنت قد أصابك دوار".

ضحك عمران وقال:

– "لن أفارقك أبدا.. ادخل أنت البحر، أمّا أنا فسأبقى أنتظرك على الصّخرة عند الشّاطىء، فقد حذّرني البحر ولن أغامر".

– " يا لك من ناكر للجميل وجاحد يا عمران.. لقد أطعمك البحر أنت وأباك وجدّك مدى ما أعطاكم الله عمراً، والآن تفتري عليه"؟

ضحك عمران:

– " أطعم البحر جدي ثمّ أكله، وأطعم أبي ثمّ أكله، (فاتّعظوا يا أولي الألباب). كلما ناداني البحر وأرسل لي نسائمه رسائل شوق أذهب إلى شاطئه أجلس على الصّخرة، واليابسة تحت قدمي، أستنشق هواءه وأعيش معه ذكرياتي. أمّا إذا علا الموج فرجلاي رجلا غزلٍ تسبق مدّ مائه".

قال نمر العبد يضرب كفّاً بكف:

– " ما عرفتك هكذا يا عمران.. أنت بطل جلب السّلاح.. وأنت الذي أراد وحده أن يسترّ البلاد. أأصبحت جبانا"؟

ثمّ ضرب نمر العبد بكفه على ركبته وأكمل قائلا:

– " كيف تبدّل الحال هكذا يا رجل" ؟

– " لكلّ زمان دولة ورجال يا نمر العبد. كان إصبعي تلك الأيّام يقوى على شدّ الزّناد، أمّا اليوم، فرحم الله امرءا عرف قدر نفسه. وحتّى لو استطعت اليوم أن أشدّ على الزّناد، فالبصر لا يجيب".

وأكمل حديثه:

– " دعنا الآن نتكلّم بالمفيد يا نمر العبد. كيف كنت طوال هذه المدّة "؟

تنهّد نمر العبد تنهيدة طويلة سحبها من عمق صدره .. حمّلها هول ما صادف من عذاب السّنين:

– " تذكر آخر عشاء تناولناه هنا عندكم أنا وصابرين والأولاد".

– " نعم.. وكنت قد وعدتني أنّك عدلت عن فكرتك المجنونة".

– " نعم. حدّثتك بلساني، لكن عاطفتي كانت تثير جنوني كلّما فكرت أنّ الجوع غداً سيفتك بزوجتي وأولادي، خاصّة أنّ الأحوال كانت تسوء يوماً بعد يوم.. وقد شجّعني أنّ أمثالي ممن عادوا إلى

عكا ورجعوا كثيرون. آه.. ثم آه.. الحظّ لم يخدمني يا صديقي. خرجت من عندك أقول لصابرين إنّني ذاهب إلى البحر أجرّب حظّي مع صيد الليل. ودّعتني وتمنت لي التوفيق. أبحرت من فوري إلى صيدا ثم إلى صور. وهناك قدّرتُ أن أصل إلى عكّا مع الفجر. ساعدني البحر ووصلت مع الفجر، واختلط مركبي مع مراكب الصيادين الذين فرحوا بعودتي وعرّفوني على كلّ جديد.

خرجت مع صيدي من البحر مع الغروب عازما أن ارتد إلى بيتي، وما أن وصلت إلى البيت حتّى رأيته مشعشعاً بالأنوار، فاستعذت بالله ممّن فيه، وذهبت من فوري إلى بيت صديقنا أبو الياس الصّياد أسأله النّصيحة. قلت: هناك أناس اقتحموا بيتي وسكنوا فيه. أريد العودة إلى بيتي. ما العمل؟ قال: حذار أن تفعلها، فيعرفون أنّك متسلّل ويكون مصيرك السّجن. أطلب عوضك من الله في البيت والأرض. هؤلاء لم يقتحموا بيتك كما تظن، فالدولة أحصت البيوت المهجورة وأجّرتها بعقود رسمية زهيدة لليهود تشجعهم على ملء المساكن العربية حتى يضمنوا عدم عودة المهاجرين إلى بيوتهم. أعملت عقلي يا عمران، وطلبت عوضي من الله، ولكني قلت في نفسي: ما دام قد ذهب البيت، فلا أقلّ من أن أتعوّض بالذّهب. فأخذت أراقب البيت وأتحيّن فرصة ابتعاد ساكنيه ولو إلى وقت قصير، أنبش الأرض وأعود بالذّهب.. ولكن لم تأت الفرصة، فقررت أن استغل الظلام وأنفذ خطّتي في الليل. مع منتصف الليل، حملت مجرفة وقفزت عن سور البيت وبدأت أنبش الأرض بخفة، ولفت نظري عند حافة السّور بندقيّة سريعة الطّلقات، فحدثني عقلي أن أتمنطق بها لو تأزّمت الأمور، ولكن لسوء حظّي أن كانت إحدى سكان البيت عجوز شمطاء قليلة النّوم، تنبّهت لضربات المجرفة وأنا أتناول آخر قطعة ذهبيّة، فصرخت تستنجد بالجيران والشّرطة. حاولت أن أهرب.. ولكن إلى أين؟ رفعت السّلاح، ولكنّني لا أعرف كيف أستعمله، فأمسكوا بي يتّهمونني بأنني فدائي وأنني قاتل الجندي صاحب البندقية وجئت أقتل سكان البيت، وبأنّ الذّهب مسروق من إحدى حوانيت الصّاغة، فوكّلت صديقنا أبو الياس أن يعتني بالمركب ويصونه لحين الفرج. بعد عشرين عاما تعرّفت على أحد مهرّبي المخدّرات في السّجن. عرض عليّ أن يهرّبني من السّجن مقابل أن أنقل شحنة مخدرات من عكا إلى يافا توزّع في تل أبيب. وعندما سألت: كيف وأنا سجين؟ قال: هذا ليس من شأنك. نحن نكفل لك الخروج من السّجن، فالأمر سهل على رجالنا. ومدّ يده الى جيبه يقول: لا يصعب شيء على الفلوس ، فوجدتها فرصة ووافقت".

تنهّد نمر العبد يكمّل كلامه:

- " في ليلة عاصفة، تمّ تهريبي من السّجن وترحيلي فوراً إلى الشّاطىء. هناك استلمت مركبي في أحسن حالاته. كانوا معتمدين عليّ كوني بحاراً ماهراً، إضافة إلى أنّ وضعي اليائس لا يسمح لي بالرّفض، وأنّني سأقبل بالمخاطرة دون تردد، فهي فرصة العمر بالنسبة

لي، والخيار الوحيد بين الموت في رطوبة السّجن متعفّناً وبين الحريّة والعودة إلى الأسرة.. هذا علاوة على أنّ مركبي صغير غير مشبوه، تخفيه الظّلمة بين طيّات الموج الهائجة، فاذا نجحت كان لهم نصيب وافر من الأرباح، واذا غرقت فأنا رجل لا أعني لهم شيئا. كانت بالنّسبة لي صفقة العمر، ولكنّني عدت وفكّرت: هل سأعود لأسرتي بعد غياب عشرين عاما صفر اليدين؟ وقد كان الهدف من الرّحلة أن أيسّر لهم سبل الحياة، وأوفر لهم بحبوحة من العيش. فقلت للرجل: أنت تعرف أنّني لا أملك شيئا، ومشواري خارج الحدود شاق طويل خطر، فلا يعقل أن أجوب كل هذه المسافة والمخاطر دون أن أملك شيئاً.

سألني الرّجل: حسنا، ماذا تريد؟

قلت: نسبة من الأرباح.

ضحك وقال: أهديك عمرا جديدا وتطلب مالاً ؟! أي مجنون أنت؟

قلت : أنت لا تهبني عمراً لأنني حيّ أرزق. إنك ترميني في عرض البحر في هذا الجو العاصف طعاما للأسماك. وأنت تعلم أن فرصة النّجاة ضئيلة.

قال: حسنا. كم تريد؟

قلت: أنت تكسب الملايين من هذه الصّفقة، أمّا أنا فسأبيعك عمري بعشرين ألف دولار. هذا إذا عشت ووصلت إلى أهلي سالما. عندها أعيش أنا وأسرتي مستور الحال. وإلاّ فالله يرحمني.

قال مستغرباً:النّاس تدفع نقودا وتشتري عمراً، أما أنت فتريد الاثنين معا. هذا كثير".

وأضاف نمر العبد يحدث عمران:

– " بعد فصال وأخذ ورد، اتّفقنا أن يدفع لي عشرة آلاف دولار. وكان الرّجل قد أوعز إلى معاونيه أن يستلموا مركبي من أبي الياس الصّيّاد حسب رغبتي، فهيّأوه وأجروا له الصّيانة اللاّزمة وسلّموني إياه في أحسن حالاته.

في تلك الليلة، كانت العاصفة قد جلبت الظّلام باكرا. الرّيح والبحر عدوان لدودان شرسان. الريح تجلد البحر، وموج البحر يقفز إلى السّماء يبحث عن جذور الرّيح، يريد أن يقتلعها. الصّراع بينهما حرب وحشية تدخل الرّعب إلى القلب. السّماء تسلّط الرّعد على جبال الغيم فتصدعها، تهزمه وترميه بالبرق تشعله، فينهمر المطر مزاريب لا طاقة لبشر أن يقف تحتها، ولكنني صمدت وأبحرت في مركبي بعد عشرين عاما يا عمران. واستقبلت البحر مشتاقا كفارس التقى مهرا بعد غياب. ولكن البحر لم يكن كالمهر الأصيل. جمح ولم يتعرف إليّ، ولم يرع صحبتي وصحبة آبائي وأجدادي ، فتنكر لي وأخذ يحملني على موجه إلى حدود السّماء ويرميني في دواماته، وأنا ممسك باللّجام أعالجه وأعيد على آذانه الذّكريات

تستأنسه، حتى وصلت يافا مع الفجر، ووجدت هناك من ينتظرني. انزلوا الحمولة وأعطوني عشرة الآف دولار وتمنّوا لي السّلامة. وعدت أواصل الإبحار في قلب العاصفة، أرجوها أن تشتدّ، ففي شدّتها سلامة، وتكاثف ضبابها يعمي العيون. واستمرّ حالي هكذا يومين، اتخبط بين موج بحر هائج، كلما اشتدّت العاصفة يدخل الخوف إلى قلبي، وكلما خَفَّتْ يرتعش بدني رعباً، فعيون الأعداء تترصّدني. وكذلك الضّباب، كلما تكاثف وأظلمت الدّنيا من حولي اسودّت نفسي وكلما انقشع الضباب وأضاءت وانتشر الضّوء على سطح البحر جفّ الدّم في عروقي ، خاصة عندما كنت أسمع صوت الطّائرات المروحية تمسح البحر، إلى أن تعديت الحدود ، ووصلت مدينة صور ، فلجأت اليها حتى هدأت العاصفة وزال الخطر تماما . منذ تلك اللّحظة أصبحت حياتي غالية عليّ جدا . المال يملأ جيبي، والأحلام الحلوة تنام تحت جفني ، والغد المشرق يناديني. أصبحت أشعر أن الحياة تستحق أن أعيشها، وأنّ ما تبقى من العمر يجب أن أحرص عليه حتى يعوّضني عن شقاء الماضي والأيّام الخوالي. في صور ذهبت إلى مخيم اللاجئين الفلسطينيّين أبحث عن أصدقاء العمر أتفقّد أحوالهم ، فهالني ما وصل إليه حالهم من شقاء وبؤس. فكّرت أن أمد يدي الى جيبي، ولكن عشرة آلاف دولار لا تكفي ، فعدد اللاجئين آلاف، والجميع محتاج. لو وزعت كلّ ما في جيبي فلن يصل نصيب العائلة دولاراً واحداً ، فآثرت أن أبقي نقودي في جيبي.

بعد أن هدأت العاصفة، وتأكّدت من زوال الخطر، ركبت البحر قاصدا صيدا فأصدقاء صور ليسوا أعزّ عليّ من أصدقاء صيدا. في وسط البحر يا صديقي. والأحلام تملأ عيوني، وقد أعطاني البحر الأمان، كان الموج هادئاً والنسيم عليلاً، فاذا بمركب ضخم يتجه نحوي. صرخت محذّرا من بعيد، ولكن صاحبه كان في غفلة عنّي. صدمني وحطّم مركبي. والغريب أن النقود وتعلقي بالحياة أنسياني السّباحة، فكدت أغرق لولا أن نزل الرّجال إلى الماء وأنقذوني، كان صاحب المركب رجلاً ميسوراً أدخلت رهبة البحر مخافة الله في قلبه. وكان صيادا وتاجر مراكب، فانتشلني وطيّب خاطري واستضافني في بيته حتى استعدت صحتي. وعرض عليّ التعويض فرفضت وقلت: عوضي على الله أنا أخاف العوض.

وعندما هممت بالرحيل وأخبرته أنني اشتقت الى زوجتي وعيالي، أخذني إلى مكان عمله، وكان به مراكب كثيرة، فأشار إلى مركب وسألني ما رأيي به؟ لم أستطع أن اكتم فرحة الإعجاب فقلت: الله ما أجمله!

قال: هو لك هديتي.

قلت: أخبرتك أنني لا أقبل التّعويض، فلي بيت وأولاد. إنّي أخاف الله.

قال والخشوع والورع يقطران من لحيته: أشهد الله أنه هديّة، والهديّة لا ترّد، النّبي عليه السلام قبل الهديّة. أنت صيّاد ولا تعرف أن تكسب رزقك إلا من البحر، فلا تظلم نفسك وأولادك.

وأقسم الرّجل الأيمان الغلاظ أن المركب خرج من نفسه ، ولن يكون إلاّ لي.

وأكمل نمر العبد متأثّرا:

– " ومع مغيب الشّمس يا عمران. هيّأت نفسي للسّفر. واتّكلت على الله. وودّعني الرّجل بحرارة متمنيا لي السّلامة. كان الجوّ صافيا والبحر هادئا والموج ناعما والنّسيم عليلا والجوّ يوحي براحة النّفس. أسلمت نفسي للطّرب فغنيت وحلمت وسعدت ولكنّني لاحظت بعد أن أبحرت مسافة طويلة أن مركبا ضخما يبعد عني المسافة نفسها طوال هذه المدّة ، لا يسبقني ولا يتأخّر عنّي، فقلت أشجّع نفسي لا خوف اليوم من البحر، لقد انتهى عهد القراصنة. وعدت إلى أحلامي لا أعبأ بما يدور حولي. وقبل ان أصل شاطىء بيروت، وعندما دخلت بين الصّيادين، تقدّم المركب نحوي فصرخت والرّعب يملأني، فأنا لا أريد أن تتكرر مأساتي وأفقد مركبي . وقد أفقد روحي . لكنّني بعد أن دقّقت النظر، رأيت الرّجل الوقور الذي أهداني المركب يقف في مقدمة مركبه يهنّئني ويطمئنني إلى أن أصبح في محاذاة مركبي. أنزل لي سلّم حبل وقال: اصعد إلى مركبي.

توجّست خيفة.. وصعدت إلى المركب وأنا أسأل الله السّلامة. ترى لماذا يلاحقني هذا الرّجل من صيدا حتى بيروت؟ لا بد أنّ في الأمر شيئاً. أرجو أن لا يكون شرّاً. صعدت إلى المركب، فتأبّط الرّجل ذراعي وعلى شفتيه ابتسامة رضى ومحبة، وما زال الوقار والورع هالة تحيط وجهه.

أخذني إلى قمرته وقال: يا نمر العبد.. لقد صنعت لي معروفا سأحفظه لك طول عمري : قلت: استغفر الله، فأنت الرّجل الكريم المتفضّل.

قال: أريد أن أشتري منك المركب.

استغربت وقلت: كيف وأنت الّذي أهديتني إيّاه؟ والله لو دفعت لي مال الدّنيا فلن يكون ملكا لأحد غيري. إنه هديّتك يا رجل. تغيّرت ملامح وجهه، ولمعت عيناه ببريق الشّيطان، ونزع لحيته، فارتعش جسدي خوفا وقلت: يا لطيف! قال: لا وقت للكلام، لا تدّعي البراءة، فأنت منغمس بالشّرّ إلى أذنيك. أليس أنت من أوصل مركب المخدّرات من عكا إلى يافا؟

قلت مندهشا: أعوذ بالله.

دفعني بشدّة حتى انقلبت على ظهري وقال: أعوذ بالله منك. هل تعرف ماذا في هذا المركب؟ قلت: لا. قال: إنّه مليء بالمخدّرات، ورجال المخابرات يملأون الشّاطىء.. هل تودّ أن تكون أنت صاحبه؟ أم تأخذ عشرين ألف دولار والله معك؟

قلت: لا وفّقك الله ولا كان معك.

أخذت العشرين ألف دولار، وجئت إليك فوراً يا عمران، وفي جيبي ثلاثون ألف دولار".

ثمّ التفت نمر العبد إلى عمران يتنهّد:

- " لن تعمل صابرين بعد اليوم يا عمران. سترتاح وأعوّضها عن شقاء أيّام الفراق. وغداً إن شاء الله سأشتري مركبا، فأنا دون بحر وصيد لا تطيب لي حياة ".

ضحك عمران وقال:

- " معك ثلاثون ألف دولار وتظنّ نفسك غنيّاً! إنّ زوجتك تملك مئات الآلاف منها وتجتهد أن تزيدها، فالّذي معك نقطة في بحر مما تملك".

قال باستغراب:

- " كلّ هذا من الخياطة؟ لماذا؟ كم تأخذ على خياطة السّروال؟ كم تأخذ على خياطة القميباز؟ كم تأخذ على خياطة الفستان"؟

نسيت لبيبة نفسها.. وانطلقت بضحكة طويلة دون تحفّظ:

- " ذهب زمان السّراويل والقنابيز والطّرابيش يا نمر العبد. إنّ زوجتك تأخذ على تفصيل الفستان الواحد مئات الليرات".

قال والاستغراب ما زال مرتسماً على وجهه:

- " لماذا؟ بكم ذراع القماش اليوم يا أم زياد" ؟

- " يا نمر العبد.. قلنا لك أنّ الزّمن تغيّر.. تغيّر كثيراً فالقماش رخيص جدّا بالقياس إلى أجرة التّفصيل والخياطة. اليد العاملة اليوم هي سبب الغلاء الفاحش في هذه الأيّام".

قاطعها عمران يقول:

- " اليوم يباع السّمك بالكيلو.. لقد مضى الزّمن الذي كان يباع فيه بالكومة أو بالرّطل. ثمن كيلو السّمك البوري اليوم خمس ليرات لبنانيّة".

امتلأ وجه نمر العبد بلاهة وقال:

- "لا افهم "؟

أجاب عمران:

- " خمسة ليرات لبنانيّة تعادل أربعين قرشا فلسطينيا ".

صفر نمر العبد صفرة دهشة طويلة وقال:

- " أربعون قرشا فلسطينياً؟ كنا نشتري بها قنطار سمك ".

قال عمران:

- " قس على ذلك أمور الحياة. الغلاء فاحش هذه الأيّام يا نمر العبد، لهذا السّبب كان لا بد للنّساء من ارتياد معركة الحياة وجلب القرش من أجل ستر الأسرة وتلبية طلباتها الكثيرة".

قال نمر العبد يستهول ما يسمع:

-" إرحمنا يا رب.. إرحمنا يا رب".

(14)

مع الفجر صحا زيّاد ليستقبل يومه، وجهّز نفسه للمغادرة إلى حيث رزق البحر. فتفاجأ بوجود رجل غريب في غرفة المعيشة مع أبيه في هذا الوقت المبكر، فنادى عليه أبوه:

- " تعال يا زيّاد سلّم على عمك نمر العبد".

لم يصدّق زيّاد عينيه، وهجم على الرّجل يسلّم عليه، فضمّه نمر العبد بحرارة وقال:

- " ما شاء الله، أصبحت رجلا يا زيّاد. لقد تركتك صغيرا رضيعاً".

أجاب زيّاد وفي عينيه أسئلة كثيرة:

- " إنها عشرون سنة يا عم.. لن يصدّق فوّاز والخالة صابرين أنّك عدت لهما سالماً ".

-" هيه يا بني، إنّها قصة طويلة كنت أقصّها على أبيك، سأقصّها عليك عندما تعود من البحر. أنا صيّاد وأعرف أنّ الصّيّادين يتفاءلون بالصّيد المبكّر. هيّا اذهب وجهّز نفسك".

استأذن زيّاد من نمر العبد بالمغادرة على أن يستمع إلى قصّته بعد المغرب عند عودته من البحر، فقد حانت سروة الصّيّادين.

نادى عمران على ولده زيّاد وهمس في أذنه:

- " دع فوّاز اليوم لأبيه، فالشّوق مختزن في قلب الأب والابن منذ عشرين عاماً. حال أن يصل أعلمني".

هزّ زيّاد رأسه موافقاً ثم غادرالمنزل. وبعد نصف ساعة عاد زيّاد ليعلم أباه بحضور فوّاز. نهض عمران وأمسك بيد فوّاز يدخل به المنزل، وقال موجّها الحديث إلى نمر العبد:

- " هذا الشّاب صيّاد من أصدقاء ابني زيّاد، فما رأيك بالصّيادين شباب هذه الأيّام يا صديق"؟

قال نمر يداعبه:

- " نسأله ونحكم عليه ".

قال فوّاز:

- " ألا تعرفني بالرّجل يا عمّي عمران" ؟

- " إنّه صيّاد مخضرم قديم خبير، كرهه البحر لكثرة ما سلب من أسماكه، وشكا منه لشدة عزمه وقوّة ضربات مجذافه".

قال فوّاز:

- " إنّـه لشرف لـي أن أتعلّم من خبرة رجال أشدّاء صادفوا أهوال البحر.. اسأل يا عمّي وأنا أجيب".

قال نمر العبد:

- " هل تعرف البحر يا ولدي "؟

- " البحر سرّ الله على الأرض، لا يعرفه سوى الّذي خلقه. أصغيت إليه ليل نهار.. وعلمت أن الله وحده هو الّذي يفهم لغة أمواجه".

- " ما رأيك برزق البحر " ؟

- " يوم عسر ويوم يسر، ولا يغلب الدّنيا إلا من رضي".

ضحك نمر العبد وسأل:

- " كيف تغلب البحر يا ولدي"؟

- " أغلب البحر بالصّبر".

نهض نمر العبد يسلم على فوّاز ويقول:

- "والله إنّك ابن أبيك".

والتفت إلى عمران:

- " عرّفني على هذا الشّاب يا عمران"؟

أجاب عمران:

- " والله أنّ هذا الشّاب لأقرب لك منّي ، ألم تعرفه بعد"؟

- " كيف وأنا ليس لي أهل" ؟

- " بل إنّه كلّ أهلك".

اقترب نمر العبد من فوّاز وهو يقول لعمران:

- " بربّك أخبرني هل هو...؟ "

- " نعم، إنّه ابنك فوّاز".

تعانق الأب والأبن، وسالت دمعة الكبير فمسحها الصّغير بكف يده بحنان.. قال:

- "هيا يا أبي إلى بيتنا. طالت غيبتك علينا. مضى عشرون عاماً تعدّهم أمي بالسّاعات، وهي في انتظارك".

توالت الذّكريات، وجهّزت لبيبة طعام الإفطار، ونمر العبد يلحّ بالذّهاب ليرى زوجته صابرين. ولكن، كيف يذهب فوّاز دون أن يرى زهرة حبّ طفولته وصباه؟ إنّها فرصة سانحة، خاصّة أنّه لم يرها منذ زمن، فكان يتلكّأ ويفتح مواضيع مغرية للصّديقين حتّى تستيقظ من نومها".

استيقظت زهرة ودخلت غرفة المعيشة، فإذا بعينيها تقعان على فوّاز.. ظنّت أنّها ما زلت تقع تحت تأثير الحلم.. أخذت تفرك عينيها، ولكنّ الصّورة لم تهتزّ ولم تختف، فما زلت صورة فوّاز ماثلة أمام عينيها، فقالت لا تصدّق عينيها:

- " فوّاز هنا؟ حلم أم علم"؟

قال:

- "عُلم".

أجابت:

- " المفروض أن تكون بالبحر".
- " طردني البحر وقال (اذهب وانظر في طلبات زهرة)".
- " كم هو طيّب هذا البحر.. ولكن.. ألم يخبرك أنّ طلباتي كثيرة لا قدرة لك عليها".
- " أسرق..أنهب.. أرتكب كل المخالفات وأحضر لك كل الطّلبات".
- " وأنا أوّل من سيبلغ عنك الشّرطة".
- " وتسجنينني"؟
- " طبعاً.. وأذهب كل يوم الى السّجن أزورك".
- " ولماذا تُشقين نفسك"؟
- " وأنت خلف القضبان يأمن الانسان شرّ يديك".
- " ليتني أجد طريقة أسجن بها لسانك . إنّه موجع يا زهرة".

كان الاثنان يتحدّثان في زاوية الغرفة همساً مستغلّين فترة انشغال الأسرة بالضّيف.. فقد تربّيا صغاراً معاً.. وتعوّد الجميع أن يراهما معا، فالحبّ تسلّل إلى قلبيهما وهما طفلان، وكبر معهما حتّى أصبحا شابين، ولا أحد يستطيع أن يفرّق بينهما.. كانت زهرة تضع رأسها على فخذ أمها الأيمن لتنام.. وكان فوّاز يضع رأسه على فخذ لبيبة الأيسر.. وينامان طفلين معاً حين كانت أمّه صابرين تعمل وتتركه في رعاية لبيبة يلعب مع زنّاد وزهرة.

نادت لبيبة:

- " جهّزت المائدة، وبرد الطّعام، هيا تفضّلوا ".

انتقل نظر زهرة إلى الزّوية المقابلة من الغرفة، وسألت فوّاز هامسة:

- " من هذا العجوز"؟

- " إنّه أبي".

سمع عمران، فنادى على ابنته زهرة:

- " هذا عمّك نمر العبد، أبو فوّاز، لقد عاد بعد طول غياب".

فأقبلت تسلّم وتحمد الله على سلامته.

دخلت زهرة قلب العجوز، فأحبّها وجامل أمّها قائلا:

- " ما شاء الله، جمال وكمال يا لبيبة".

(15)

جمعت الأصدقاء مائدة الصّباح، وقد فتحت شهيّة الجميع الضّحكة وشوق اللّقاء. أثناء الطّعام قال فوّاز، وقد كان معروفاً بخفّة الظّل:

- " ما رأيك يا أبي لو أنّنا أدخلناك على أمّي كزبون ".

قالت لبيبة:

- " ولكن زبائن أمّك سيّدات فقط ".

- " سوف أغريها بالدّولارات يا خالة.. وأجعلها تفصّل له سروالاً" .

قال نمر العبد:

- " هل هذا معقول"؟

أجاب فوّاز:

- " دعنا نجرّب".

بعد الانتهاء من طعام الافطار، غاب فوّاز فترة وعاد بأدوات تنكّر، وألصق لأبيه لحية تتناسب مع شاربه الكثيف وأصرّ على أن يصحبا معهما عمران ولبيبة وزهرة.

خرج نمر العبد من البيت ليجد سيارة فخمة:

- " ما أجمل هذه السّيّارة ".

قال فوّاز:

- " إنّها سيّارتنا يا أبي.. اشترتها أمّي قبل ثلاثة أشهر" .

دخل نمر العبد السّيّارة يسحب سرواله خلفه، يتوه في عالم جديد عليه.

سارت السيارة بالجميع تخترق شوارع بيروت الفخمة.. ونمر العبد لا يصدق عينيه.. حتى وقفت أمام بناية ضخمة يزيد عدد طوابقها عن سبعة عشر، فتوجّهوا الى المصعد، وارتفع بهم إلى الطابق التّاسع، وهناك توقفوا أمام شقّة بابها ضخم. قرعوا الجرس.. فتحت إحدى العاملات.. وتوجّه الجميع إلى مكتب صابرين.

عندما رأتهم استغربت عودة فوّاز وزيارة آل عمران في مثل هذا الوقت المبكّر.

قالت تنظر الى ابنها:

- " خير إن شاء الله، المفروض أنك في البحر يا فوّاز".

قالت زهرة تداعبه:

– " لقد فرز البحر الصّيادين اليوم يا خالة صابرين واختار الأحسن، وأقفل بابه في وجه الآخرين".

ضحك الجميع واغتاظ فوّاز وهدّد بالانتقام.

جاملته لبيبة:

– " فوّاز من زينة الشّباب يا زهرة ".

ردّ فوّاز منتقماً:

– " العتب على النّظر يا خالة " .

ضحكت زهرة ضحكة طويلة يقطّعها كلام امتلأ به فمها:

– " حسناً، ما دام البحر قصير نظر، ألبسه نظارة يا فوّاز.

قال نمر العبد يجامل زهرة:

– " البحر ذوّاق، أخاف إن رآك أن يخطفك".

قال فوّاز:

– " والبحر عاقل أيضا، فلا يعقل أن يجلب الأذى إلى نفسه".

فضحك الجميع، وبينما كانت أعينهم تنتقل بين وجوه المتحاورين سعداء مسرورين.. وقعت عين صابرين على نمر العبد يلبس سروال الصّيادين، له لحية طويلة.. ويلبس نظّارة سوداء. نهضت عن كرسيّها وابتعدت قليلاً عن المجموعة ونادت على ابنها فوّاز تهمس في أذنه:

–" ألم أقل لك أنّه ممنوع عليك أن تحضر معك إلى هنا أصدقاءك الصّيّادين أصحاب الطّرابيش والسّراويل! إنّ الشّقّة الآن تحتاج إلى زجاجة عطر حتى تطرد رائحة زَخة الأسماك".

– " إنّه صفقة العمر يا أمي.. سوف تستفيدين منه كثيراً ".

قالت تعاتبه:

– " هل من المناسب أن تحضر مثل هذا الرّجل وأنت تعلم أنّ رُوّاد هذا المكان جميعهم من السّيدات؟ إنّ منظر، مخيف، ولا أعتقد أنّ الزّبونة الّتي تراه سوف تعود إلى هنا ثانية ".

– " لا تخطئي في حقّ الرّجل يا أمي، إنّه كنز.. إنّه كبير الصّيّادين. عنده أكثر من عشرين صيادا يأتمرون بأمره، جاء يفُصّل سراويل لهم جميعا" .

ضحكت صابرين تستخفّ بعقل ابنها:

- " مجنون أنت يا ولد، هل تعرف لمن تفصّل أمّك الملابس؟! لأعلى وأرقى سيّدات المجتمع، نساء وبنات الوزراء والأمراء والباشوات".

- " لا تخطئي يا أمّي، فهذا الرّجل أغنى منهم جميعا" .

- " يا ولدي، أنا لا أفصّل سوى فساتين.. تنانير.. تاييرات.. بلوزات.. وتأتيني برجال السّراويل؟ اصرفه وانصرف فورا ".

- " تحدّثي معه وستعرفين أنّك مخطئة".

كانت عينا نمر العبد تتفحّصان المكان إن كان حقيقة أم خيالاً. كلّ شيء غريب عجيب، لم تقع عيناه على مثله من قبل".

ارتدّت صابرين إلى مقعدها تخاطب الرّجل:

- " ماذا تأمر يا أخ؟ "

لم يسمع، كأنه منوّم أو غائب عن الوعي.

أعادت عليه السّؤال مرّة، واثنتين، وثلاثاً.. إلى أن اضطرّت أن ترفع صوتها تهزّه من غفوته، فاعتدل يصلح طربوشه على رأسه وقال:

- " أريد أن أفصّل سراويل لعمّالي. كنت قد وعدتهم أن أفصّل لهم السّراويل في أرقى مكان.. وقد أرسلوني إليك".

عندما سمعت صابرين صوت الرّجل هاجمها الماضي وأعاد إلى أذنها صوتا تعرفه.. واجتهدت أن تتذكّر فلم توفّق.. فشكل الرّجل قد عبث به الزّمان وغيّرته الهموم.. قالت:

- " آسفه يا أخي، أنا أفصّل فقط للسّيّدات فساتين.. تنانير.. بلوزات، وليس لي خبرة في تفصيل السّراويل".

قال مستغربا:

- " تستصعبين السّهل وأنت من ذلّل كلّ صعب؟ الّذي يفصّل الطّقم والفستان يصعب عليه عمل السّروال !!؟ هذا مستحيل" ؟!

ثم نهض متصنّعا الغضب وقال:

- " إذا كانت تغريك مرابح الفساتين، فأنا لا أدفع إلا بالدّولارات" .

وفتح حقيبتة المليئة بالدّولارات.

ولكنها أصرّت تقول:

- " أنا آسفة يا محترم، فهذا المكان خاص بالسّيدات".

أقفل حقيبته.. تصنّع الغضب وهمّ بالخروج، إلا أنّ فوّاز تدخّل وأمسك به يقول:

- " اجلس يا شيخ البحر، إنّها لم تعرفك بعد، ولن يكون إلاّ ما يرضيك".

ثم اقترب من أمه يهمس في أذنها يسألها:

- " كم تكسبين من عمل فستان؟ "

- " ما يعادل عشرة دولارات".

- " إنّ الرّجل على استعداد أن يدفع ثلاثين دولاراً للسّروال الواحد، فلا تضيّعي الفرصة".

اتّسعت حدقتا صابرين وفغرت فمها:

-" ثلاثين دولاراً "؟!

- "نعم".

اقترب فوّاز من الرّجل وقال:

- " اتفقنا، على أن تدفع ثلاثين دولارا لكلّ سروال".

نهض الرّجل وسحب من حقيبته رزمة بألف دولار. اقتطع منها ستّمائة دولار وقال:

- " تفضّلي يا ست، هاك ستّمائة دولار سلفا.. غدا يأتيك عشرون صيادا من أجل القياس".

شهقت وقالت:

- " عشرون صيادا بسراويلهم يأتون إلى مشغلي هنا؟!! بعدها لن تدخل مشغلي سيّدة واحدة. خذ نقودك يا رجل، واصنع سراويلك بعيدا عني، فالسّروال لن يكلّفك أكثر من عشرة دولارات".

قال وكلامه يحمل الغضب الشّديد:

- " من حكم في ماله ما ظلم. أنا أريد أن أدفع ثلاثين دولاراً ".

قالت تحاول أن تضبط أعصابها:

- " أيّها المحترم، السّروال لا يحتاج إلى قياس، فهو مريح واسع. ما رأيك أن أخيطها على مقاسك تقريباً".

فكّر قليلاً ثم أجاب:

- " حسنا اتّفقنا، أين غرفة القياس"؟

- " تفضّل من هنا".

أمسكت بيد ابنها فوّاز تريد أن يصحبهما، فتلكّأ فوّاز.

قال الرجل فاقدا صبره:

- " أنا على عجل أرجوك أن لا تؤخّريني أكثر" .

أحرجت صابرين ودخلت معه غرفة القياس، وما أن أحاطت خصر نمر العبد بمتر القياس حتى أمسك بيديها على وسطه وحاول أن يقبّلها، فعنّفته وحذّرته، وقالت بلهجة الواثق:

– " أنت رجل محترم، وأنا لا أريد أن أسبّب لك فضيحة ولا أذى. عندي من الرّجال من يأكلون لحمك نيئاً".

قال :

– " تتزوّجيني؟ ولك كلّ أموالي".

قالت وعلامات الاشمئزاز تقطر من ملامحها:

– " والله لو انقطع جميع الرّجال من الدّنيا وبقيت أنت وحدك ما رضيت بك زوجا.

إلزم أدبك ودعني أنهي عملي والله معك".

– " ستمائة دولار ثمن عشرين سروالا كثير جداً، أريد عليها هدية".

– " الهدية هي أن تأخذ قماشا جيّداً وتفصيلا جيّداً ".

– " أظنّ أنّه ليس كثيراً على مثل هذه الصّفقة هديّة تقرّب الحبيب من الحبيب".

وحضنها يقرّبها الى صدره فصرخت. ركض إليهما فوّاز ودخل عليهما وهي تحاول أن تخلّص نفسها من بين ذراعي زوجها، وقالت:

– " إنّه رجل قذر.. لا أخلاق عنده. ربّ له ماله.. وناد على الرّجال كي يؤدّبوه".

قال فوّاز متصنعا الجدّ:

– " لا تخطئي بحقّ الرّجل يا أمّي.. إنّه محترم".

واستدار يرجع مكانه.

حاولت أن تصرخ. إلا أنّ الرّجل وضع كفه على فمها يكممها، ونزع لحيته، ورفع نظارته عن عينيه:

– " تغيّرت كثيرا يا صابرين. أغوتك الدّولارات وأعماك حبّ المال إلى الدّرجة التي أنستك زوجك".

رفعت عينيها إلى وجهه وصاحت:

– " نمر العبد.. نمر العبد.. ما زلت حيّاً. الحمدلله على سلامتك. ألف حمد وشكر لله أن أرجعك لنا سالماً. لا تؤخذني ... البعد وطول الفراق وقسوة الحياة أنسوني حتى نفسي. أمّا أنّني نسيتك، فهذا ما لم أكن آمل أن أسمعه منك.

إذا الشّمس غابت عن سمائها يوماً، تكون أنت قد غبت عن فكري.

إذا الأسماك كانت قد استغنت عن مائها يوماً أكون قد أستغنيت عنك، إنّما هي الوحدة واليأس والخوف قتلت كل أمل عندي في الحياة . تغيب عني عشرين عاماً وتعود ملء فمك الملامة والعتاب .

تغيب عني عشرين عاماً وتتركني أنا وعوّاد وفوّاز.. لا نملك سوى رحمة الله وجار طيّب مثل عمران، وتعود غاضباً؟!

لا تقلب عينيك تحصي المال .. فالثمن هو شبابي الذي ضاع ، وفقدان ولدي عوّاد .. ما أصعبها من أيّام يا نمر العبد.. ما أصعبها من أيّام".

قال والشك يملأ عينيه:

– " من أين لك هذه الشّقّة وكلّ هذا المال"؟

أمسكت بعصبيّة قطعة قماش وقرّبتها من أنفه:

– " شمّ ، إنّها من تعبي ، من عرقي ، من تضحياتي . إذا كنت لا تريد أن تشكر فلا تذمّ .. هل كنت تريدني أنا وولديك أن نعيش عالة على هبة الجار؟

عمران عنده أولاد، والرّزق شحيح. ذهبت وحمّلته أمانة فوق طاقته. كان يقسم اللّقمة بيننا وبينه، علماً بأنه لم ينم له طفل شبعان ليلة واحدة. رهن مركبه، وخاطر برزقه ورزق أطفاله ، واشترى لي ماكنة خياطة . وشمّرت عن ساعديّ أعمل ليل نهار حتى أكفي نفسي والاطفال، نأكل رزق الحلال، حتى لا يكون لأحد علينا فضل".

قال ، وقد خفض صوته وانكمش حجمه:

– " نحن جماعة صيّادين، تعوّدنا على الحياة البسيطة والنّاس البسطاء، ولا أظنّ أنّها تليق بنا مثل هذه الحياة ".

قالت بصوت الدّهشة والاستغراب:

– " تعني أنّك تحن للعودة إلى حياة المخيم؟ ماذا تقول يا رجل؟ كنا في البلاد أسياداً وأصحاب بيوت وأراضٍ وأملاك، هل نسيت"؟

قال ينظر إلى الشّارع من النّافذة، وقد رأى النّاس صغاراً بحجم علبة الكبريت :

– " انظري إنّي أخاف هذا الارتفاع . إننّا معلّقون بين السّماء والأرض".

قالت تستغرب:

– " تخاف الارتفاع ولا تخاف البحر، مصدر كلّ خوف ورعب"؟

– " البحر لا يخافه إلا الجبان . كيف أخافه وهو في كل يوم يمد لي يده بالرّزق"؟

– " يا نمر العبد، المثل يقول: (مكان ما ترزق الصق)".

- " صدقت، فرزقنا في البحر" .

- " لقد كبرت على مشاق البحر يا نمر العبد ، وما عاد يرضى بك فأنت اليوم عجوز. خذ الحكمة من صديقك عمران ،عرف قدر نفسه فابتعد عن البحر".

قال ينفخ صدر، وقد شعر بطعنة أصابت كبرياءه:

- " أنا شيخ البحر وكبير رجاله، فلا تجعلي العجلة تسبق لسانك".

- " تريد أن تعود إلى البحر وتعيش مع شقائه وأخطاره؟ يمنّ عليك بالرّزق يوماً ويمنعه عنك أيّاماً!! عندنا الخير الوفير والمال الكثير؟ تنعّم، ودعنا نعيش البقيّة الباقية من عمرنا في بحبوحة، إذا أذن الله لنا بها".

قال والتّصميم يعطي كلماته حزما وقوّة:

- " لا تحكمي عليّ بالموت يا زوجة، فالذي يتدفّق في شرايييني موج بحر وليس دماً، والذي في صدري خياشيم لا رئتان".

- " ويلي منك ومن ابنك؟ لا أدري لماذا كل هذا العشق بينكما وبين البحر. تسرون مع الفجر وتعودون مع مغيب الشمس، وترجعون فرحين بسمكة، بينما لو بذلتم ربع هذا المجهود في التجارة لكسبتم ما تشترون به نصف سمك البحر من بيروت إلى عكّا".

- " رزق البحر حلال، عرق وتعب وسواعد ".

- " رزق الخياطة حلال أيضا، عرق وفن وتعب عيون".

قال يرفع من قيمة مهنته:

- " والصّيد أيضا فنّ".

- " فنّ المكر يا نمر العبد، فالصّيّاد أخبث مخلوقات الله وأكثرهم أذى".

- " كان بودّي أن أشرح لك علاقة البحّار بالبحر، ولكن كيف إذا كان الأمر يتعلّق بالحسّ الذي لا يترجم بالكلام؟

قلبي.. روحي.. عواطفي مليئة بالاحساس، ولكنّها أحاسيس ليس لها لسان. كيف أوصلها لك ، لست ادري؟ ألا تلاحظين الفرق بين يوم أذهب به إلى البحر وآخر أحرم منه ؟ الفرق شاسع يا صابرين. يوم البحر أتنفس سعادة وأتدفق حيوية ونشاطا . أعود قانعاً برزقي القليل . اما اليوم الاخر فتضيع نفسي مني. أكتئب. أتيه وأعيش الضّياع. المدمن يشمّ الأفيون ونحن نشمّ هواء البحر. نسيمه بلسماً شافياً" .

قالت تتأفّف وتقفل أنفها بأصبعيها:

- " والله ما أتيتني يوما إلا بعطر زنخ السّمك. كنت أشتمّ رائحته وأنت بعيد عنّي".

– " ومع ذلك كنت تركضين إلى السّلّة، تحملينها شاكرة راضية أن منّ الله علينا برزق العيال".

قالت بحرقة تتذكر أيّام العذاب:

– " كنت أركض إليها من الجوع يا حسرة ".

قال يعاتبها:

– " كنت قنوعة حامدة شاكرة ".

– " وما زلت، فالله سبحانه يحاسب المقتدر الذي يبخل على نفسه".

طال الحديث بين نمر العبد وزوجته، بين فرحة وعتاب، حتّى نسيا ابنهما فوّازاً وآل عمران .

قال عمران:

– " الأفضل أن ننسحب ، فوجودنا الآن غير مرغوب فيه، ولا أظنّ أنهم سيتذكّروننا الآن. هيّا معنا يا فوّاز. فالّذي يسري علينا يسري عليك. فشهر عسلهما بدأ منذ السّاعة".

غمز فوّاز بعينه خلسة يهمس في أذن زهرة:

– " العُقبى عندنا يا زهرة . أتصوّر عريسك – وأشار إلى نفسه – فارساً شجاعاً يأتيك من قلب البحر يقدم لك لجام البحر مهراً".

قالت متشائمة:

– " كفاني الله شرك. أريد عريساً ميسور الحال. يقدّم لي قصراً (فيلا) مهراً .. وليس لجاما".

قال يستغرب أمنيتها:

– " تفضلين عريساً يملك المال على فارس شجاع، صهوة جواده موج البحر"؟

– " كن واقعيّاً يا فوّاز، ماذا أفعل بلجام البحر؟ أريد مالا يلجم الجوع ويهيء لي الحياة الرغدة، أعيشها أنا وأنت معا لا نفترق أبدا. لا أريد أن أعيش مأساة أمي وأبي، فمنذ بزوغ الفجر حين يسلم أبي نفسه للبحر حتى عودته مع مغيب الشّمس كان لا يفارق الخوف قلب أمّي، ولا تدخل الطّمأنينة صدرها حتى تراه من البعيد آتيا يحمل سلّة الأسماك. وفي أيّام الشّتاء والبحر عال، كان القلق يعشعش في قلب الخيمة يملؤها رعبا يتلف أعصابنا شدّا وتوتّرا: العيون معلّقة على طريق العودة ، والدّعاء حبل متّصل بالسّماء ندعو الله أن يعود أبي لنا سالما، وما تكاد تقع أعيننا عليه من بعيد حتى نتنفّس الصّعداء ، ونؤدّي صلاة الشّكر لله . وكم من ليلة تأخر أبي أغواه البحر في البقاء ، وذهبت أمي في قلب اللّيل لا يؤنسها سوى ظلّها وصوت موج البحر يعوي كما تعوي الذّئاب الجائعة . أمّي تنادي ، وفحيح الموج يبتلع صوتها كما يبتلع الثّعبان فريسته ، ولا تعود إلا متأبّطة ذراع أبي".

قال فوّاز ، وقد كان حافظاً للشّعر:

- ومن لم يجّرب صعود الجبال يعش أبد الدّهر بين الحفر.

- " لو أنّك جرّبت صعود الجبال لتردّدت كثيراً قبل أن تحفظ بيت الشّعر هذا يا فوّاز".

قال ملتاعاً:

- " لماذا تنكرين عليّ أمجادي يا زهرة. لقد اعتليت قمم جبال الموج وجعلت منها صهوة مركبي ، وكرهت الحفر لانها صانعة دوّامات البحر، لا خلاص من شرّها ".

قالت وفي عينيها رجاء:

- " إذا كنت تحبّني حقا يا فواز، فلا تجعلني أعاني كما عانت أمّك وأمّي. لا قدرة لي أن أرميك في فم البحر من أجل أن تطعمني غدا أنا وأولادي. لماذا تكون أنت الطّعم ونحن من يأكل الصّيد؟ فوّاز أرجوك، لا طاقة لي على القلق وصبر الفراق.. اترك البحر وانسه . دعنا نعيش في حضن الأمان أسرة يجمعها الحب وراحة البال".

- " كيف وأنا أعشق البحر وأطمع أن أكون شيخه"؟

قالت حازمه جازمة:

- " القلب لا يسع اثنين، إمّا أنا وإمّا البحر".

- " خيار صعب يا زهرة. لقد استعجلت في طرحه ووضعتني في دوّامة يصعب الخروج منها. أنت تطلبين من سمكة أن تعيش على اليابسة ".

- " وأنت تريد أن تسكب الملح على جرح قلب محب. تريد أن تجففه من العاطفة. تفضل قلباً ميتاً على قلب حيّ من أجل أن تمارس هوايتك المجنونة. الآن عرفت أين أنا منك. يا لك من مخادع ".

قال هامسا بعد أن تلفّت حوله:

- " علا صوتك، والعصبيّة تغيّر لون وجهك. أخشى أن تلفتي نظر الأهل إلينا".

- " ما عدت أعبأ بأحدٍ ما دمت قد اكتشفتك على حقيقتك".

قال يرجوها:

- " أرجوك اهدئي ، أنا لا أريد أن يفقد الأهل ثقتهم بنا ".

- " تريد أن تستمر في خداعهم" ؟

- " اعقلي أيّتها المجنونة. هل يعقل أن تفرّقنا ساعة غضب"؟

- " تعشق وتريدني حجرا"؟

- " إنّه البحر، تعاملينني كأنني خائن أتنقّل من حضن إلى حضن"!

- " حضن البحر محرم عليك يا فوّاز، لو استدعى الأمر أن أجعل للبحر بابا مفتاحه الوحيد معي".

– " حسناً.. دعينا من هذا الجدل الذي أثار عصبيّتك وعكّر لونك. الأفضل أن نبحث هذا الموضوع فيما بعد".

قالت بحدّة:

– " بل الآن إمّا أنا وإمّا البحر. إذا كان الصّيد قد علمك المكر، والبحر قد علّمك الصّبر، فأنا بريئة من المكر والصبر معا. يا فوّاز أرجوك أن تستوعب قولي وتفهمني: أنا أحبّك وأخاف عليك. قلبي لا يحتمل أن أراك في خطر وأقف كالبلهاء أنظر إليك أتفرّج. تلك الساعة، قد يصدر مني صوت يشقّ الارض ويبتلع البحر".

قال يلطّف الجو مازحا:

– " لذا أنا لا أخاف البحر، فأنت السّند والمنقذ ".

– " أنا لا أمزح. منذ الغد لا أريد أن أسمع أن رجليك قد اقتربتا من الشّاطىء".

قال يحاول أن ينهي النّقاش:

– " حسناً ، هيّا نشارك المجموعة مجلسهم ، فقد طالت خلوتنا".

شارك فوّاز وزهرة عمران ولبيبة مجلسهما ، ثم تشاوروا فيما بينهم ، وقرّروا أن يغادروا المكان ، ويعودوا إلى المخيم.

في الطّريق.. اقترح عمران أن يقضوا يومهم على شاطئ البحر بعيدا عن البيت.

قالت زهرة:

– " لا يا أبي، أيّ مكان إلاّ البحر".

وقال فوّاز يجاملها:

– " نحن في كلّ يوم مع البحر، دعونا نقضي اليوم على الجبل".

استحسن الجميع الرأي وصعدوا إلى الجبل، سعداء بقضاء يوم جميل ساعد على تنقية الجوّ بين زهرة وفوّاز.

عاد آل عمران الى بيتهم ، ورجع فوّاز إلى بيته، وما أن داست قدمه عتبة البيت حتّى سمع صياح أمّه وأبيه.

صابرين تصرخ:

– " الزّمن يغيّر الحجارة، يلوّنها ويشكّلها، وأحيانا يذيبها، وأنت كما أنت لم تتغيّر ولم تتبدّل؟ تريد أن تعيش بين زبائني نساء الأمراء والوزراء والوجهاء بهذا السّروال والطّربوش والشّارب الشارد بعيداً عن خدّيك"؟

ونمر العبد يستنكر قولها:

– " أنا لا اغيّر جلدي.. أنا ثابت ثبوت المؤمن على دينه. أنت من أغواها المال وبدّلها المظهر فانساك أصلك وتاريخ آبائك وأجدادك".

– " يا رجل.. انظر إلى صديقك عمران كيف تغيّر وتبدّل، لقد جارى الزّمن".

– " عمران رجل لا شخصيّة له . لبيبة رجل البيت ، أمّا هنا فأنا الرّجل ".

– " أنا لا انكر عليك حقّك ، فنحن جميعاً طوع أمرك ، على أن يكون هذا في صالح الأسرة ، في ارتقائها ، في تقدّمها .

أنا أطمح أن تكون لي معارض تجاريّة في شارع الحمراء .. في جميع شوارع بيروت الفخمة.. أعرض فيها فنوني وأعمالي ، وأنت تقول لي لن أتخلّى عن السّمك والسّراويل ؟ لماذا لا نعيش مع النّاس في أمان ونبتعد عن لعبة الخطر مع البحر ؟ لماذا نعود لنعيش مع الخوف والقلق " ؟

– " العمر واحد والرّب واحد، (والمكتوب على الجبين لازم تشوفه العين). الصّيد مهنة أبي وجدي، وحلم عمري الّذي لن أتخلّى عنه أبداً ".

ثم ضحك ضحكة استهزاء وقال:

– " غريب أمرك يا زوجتي ، تخافين البحر ولا تخافين أن تعيشي معلّقة بين السّماء والأرض في الطّابق التّاسع".

رنّت بعصبيّة:

– " هذا البناء قويّ، من تصميم أشهر المهندسين".

ضحك:

– " والبحر من تصميم الرّب العظيم ".

قالت بحدّة رفعت صوتها أكثر:

– " اذهب إلى الجحيم. تريد أن تحفر لنفسك قبراً في ماء بحر غادر لئيم. ويلي منك ومن ابنك ذلك الولد العاقّ، فهو يحمل صفاتك: العناد وطول اللسان.. رفض أن أفتح له المعارض وأقيم له المشاريع ورفض العيش مع الأمراء والسلاطين، وأصر أن يعيش مع زحمة البحر والسّمك والصّيادين أصحاب السّراويل. تكاد تورثني الجنون أنت وابنك.. أعانني الله عليكما".

دخل فوّاز يقطع عليهما معركة كلاميّة حامية الوطيس ، كل يملأ فمه بكلام الحرب والتّجريح ، قال :

– " عشرون عاماً قضيتموها في الصّلاة والدّعاء والتّسبيح ليعود ويجمعكما الله معاً، والآن بعد أن استجاب ولمَّ شملكما تزعجان ملائكته بالصّراخ ..!! ؟ إن صوتكما يصل حدّ السّماء".

ثمّ توجّه إلى أمّه بحديث الغضب ، وهو ما زال يقع تحت تأثير الخصام مع زهرة:

– " أنت استعباد.. أنت استعمار.. أنت تسلّط تضيق به صدور الرّجال . ماذا يضيرك أن تمارسي هوايتك في المجال الذي تحبينه ، وتحرّري زوجك من تبعيّتك ليعمل هو الآخر في المجال الذي يحبه "؟

وما أن وقع بصر، على وجه أمه ورآها تقطرغضباً حتى انتبه إلى لهجته وارتفاع صوته فتراجع يمسح خطأه ببسمة باهتة يقول :

– " اقطفا فرحة العودة واللقاء، واحمدا الله أن جمعكما بعد طول فراق".

انفجرت صابرين بصوت الرّعد:

– " تتّفق مع أبيك ضدي؟ يا كتلة النّكران والجحود. إذا كان أبوك قد أطعمك من البحر، فأنا أطعمتك من نور عيني، وجاهدت حتى خدّر وخز الإبر أناملي، والخيط ربط صحتي بطرفه وهرب بها بعيدا عني . سنوات طويلة نسيت فيها نفسي من أجل أن أرفع من مستوى بيتي وأرتقي بأسرتي . النّاس اليوم يصعدون إلى السّماء يصطادون النّجوم، وأنتما تركبان البحر تركضان وراء سمكة. أيها المتخلفان الجاحدان، لقد وصلت إلى الدّور التّاسع بجهدي وتعبي، وأنتما ما زلتما تعيشان بمستوى المركب والسّروال والسّمكة والشّبكة .

تريدان أن تهدما تعب عشرين عاما غزلت فيها من صحتي حبلا أشدّكم به إلى قمة مجتمعنا، وأنتما تصران على هدمي، كعبد استطاب عيشة الذّل، وما عاد يليق به عزّ أسياده.

اغرب عن وجهي، فلا يليق بك سوى زهرة ابنة الفقر والعوز والمخيم. كان الأجدر بك أن تختار ابنة أمير أو وزير، فهن اللائي يلقن بك وبمركزك الماديّ والاجتماعيّ .

صاح نمر العبد، صوته يعلو على صوت زوجته:

– " صابرين، عودي مهزومة الى جحرك كما تعود الحية الرّقطاء يملأ السّم أنيابها بعد أن أفلتت منها الفريسة، فابنك لن يكون فريسة المظاهر. هل نسيت أنك عشت انت وابنك على مائدة عمران أيّاما وشهورا؟ هل نسيت أنه سبب هذه النّعمة الّتي تعيشين بها"؟

– " ليس لأحد فضل علينا.. غاب عمران وقمت أنت بالواجب وغبت أنت وقام عمران بالواجب وكنت أنت السّبّاق. أما ماكنة الخياطة الّتي قدّمها عمران، فقد رددتها لابنته زهرة، وعلّمتها فنّ التّفصيل والخياطة، فأي فضل لهم علينا بعد هذا ؟ لن أزوّج ابني إلاّ بمن تليق به. لن يُصدّق معارفنا من الوجهاء والوزراء الّذين سيشاركون في الزّفة أنّنا سنستلم عروستنا من مخيّم. أي حرج هذا الذي ستوقعاننا فيه"؟

قال فوّاز يساير غضب أمه ويسترضيها:

-" ماذا أسمع يا أمّي؟ تتعالين على بيت عمي عمران "أبو زيّاد"؟ لا أصدّق، فليس نحن من يخون العيش والملح، ونكبر على من مد لنا يد المساعدة. لقد مد عمي عمران مائدته لنا أكثر مما مددناها لأنفسنا.

ثم زمرة، أليست ابنتك التي ربّيتها وعلمتها وكنت دائما راضية؟ ما الذي غيّرك؟ ما الّذي بدّلك؟! المال؟ قاتل الله المال. قاتل الله المال. لقد أودى المال بأبي عشرين عاما في السجن ، وها هو الآن يودي بأخلاقنا ومبادئنا وتراثنا وعاداتنا وتقاليدنا . أي عائلة نحن ! لست ادري ؟ تتنكّرين للبحر وتصبين الكره له في قلبي مع أننا عشنا على رزقه ! تتنكّرين لعمي عمران ، وهو الذي رهن مركبه ورزق عياله ليمد لنا يد العون ويساعدنا ؟ تصرين على أن تطفئي نور حب زمرة في قلبي ، وهو البحر الذي أصطاد منه سعادتي ؟ لماذا ؟ لماذا كل هذا ؟ من أجل أن نتمسّح بعتبة الوجاهة ونكون أذنابا تُبّعاً للمظاهر ؟ تريدين أن تستبدلي بالطيّب الخبيث؟! وبالغالي الرّخيص؟! لا.. لن أدعك تفعلين هذا يا أمّي، فأنا لا أحبّ أن تضعف الخيوط الّتي تربطنا ببيت عمّي عمران. أعيدي حساباتك يا أمّي، ودعي أبي صيادا يعيش الحياة كما تحلو له واطلقيني أعيش حياتي.. أركض.. أركض أركض.. وآتيك بأحلامي ، أفرشها بين يديك حقيقة تراها عيناك ، فتفخرين بي ولدا شجاعا جعل من الحلم حقيقة" .

أرادت الأم أن تجيب، وأراد الأب أن يفرغ ما امتلأ به فمه، إلاّ أن فواز وضع حدا للجدال وقال:

- " دعونا من الماضي.. لمّ الله شملنا بعد فراق لننعم الآن بهديّة السّماء: زوج عائد وحياة جديدة يسودها الحب والوفاق" .

وقفت الأمّ تتلمظ وتقول لزوجها:

- " تغيب عشرين عاما، وتأتي فارغ اليدين يا نمر العبد؟ الرّجال يغيبون يوماً ويرجعون لزوجاتهم بالهدايا".

قال فواز، وقد استكثر على أمّه قسوتها.. فأراد أن يستدرك الموقف:

- " هديّتك الكبرى أن عاد لك أبي سالما يا أمي".

هزّ نمر العبد رأسه حسرة وقال:

- فقدت القناعة يا صابرين، ونسيت شكر الله . قاتل الله المال والسّاعين خلفه كالمأخوذين. إنّك تركضين وراء شيطان.

ثم قدّم لها حقيبته:

- " خذي. هاك ثلاثين ألف دولار هدية أكفّر بها عن غيبتي عنك وعن البيت".
- " لا تقل بيتا.. كنّا نسكن خيمة".
- " كانت ستراً لنا يا صابرين، فيها حبّ وقناعة".
- " بل فيها خبزًا كفافنا ".
- " خبزًا كفافنا معجون ببركة الله ، أمّا هنا فالخبز كثير ، ولكن لا بركة فيه ".
- " كان المهم عندك أن نشبع والسّلام ".
- " فاقد القناعة لا يشبع أبدا ، ولا أظنّك ستشبعين حتى لو ملكت بيروت بأسرها . ابنك يدعو إلى نسيان الماضي ، وأنت تفتحين الجراح ".

هزّ نمر العبد رأسه بأسى، وتابع حديثه:

- " أنت الجرح الّذي تمنّيت أن أموت في سجني قبل أن يمزّق أذاه قلبي " .

ثمّ وجّه الحديث لابنه :

- " لا تحزن يا ولدي . بالرّوح اشتري سعادتك . انتزعها من براثن الأيّام مهما طال نابها واشتدّت قسوتها " .

توقّفت المشاحنة عند هذا الحد ، وانتهى الجدال . بعد مجهود قام به فوّاز.

(16)

مضت الأيّام ونمر العبد مصرّ على لبس الطّربوش والسّروال. لم يستطع أن يتأقلم مع الحياة الجديدة. يكره وجوده معلّقا بين الأرض والسّماء في الطّابق التّاسع. كان يغادر بيته مع سروة الصّباح إلى بيت صديقه عمران يذهبان الى شاطىء البحر يقضيان نهارهما معاً. إلى أن جاء يوم قال فيه نمر العبد لعمران:

– " يا أبا زنّاد، لقد حطّت الراحة بدني، وتمكّن الكسل منّي ، فأصبحت متبلّد الجسم ثقيل الهمّة كفارس فقد حصانه في حلبة النّزال، فالمركب حصاني، والبحر ساحتي.. وصيد السمك معركتي. ما رأيك أن نجدد شبابنا ونشتري مركبا نتسلى به نقتل ملل نهارنا؟

قال عمران مبتسما:

– " والله إنني لا أملك ما يؤهّلني لشراكتك: لا مالاً، ولا صحّة ".

– " حسناً ، إذا كنت لا تملك المال ، فأنت شريكي في الجهد ".

– " كيف أقدّم جهداً إذا كنت لا أملك صحّة ؟ أخبرتك يا صديق العمر أنّ البحر حذّرني، فلا أريد أن أتحدّاه " .

– لا تكن متشائماً يا عمران، نحن صديقان، ولا دخل للمال بيننا، فالّذي في جيبي أقسمه بيني وبينك. أنا لا أقوى على العيش بدونك، ولا أستطيب الحياة دون الصّيد والبحر. هيا نعود إلى الماضي نسترجع الذّكريات ونقوم بعمل مفيد".

– " لا تغويني للنّزول إلى البحر يا صديق.. أدخل أنت البحر.. وسأنتظرك على الشّاطىء. واقترح أن تأخذ فوّازاً معك، فهو خير معين".

– " لا لن آخذه معي ، فأنا أعرف منزلة الصّديق ، لذا لا أريد أن أفرّق بين الرّفاق الثّلاثة، فوّاز وزنّاد والعريد.. فهم شباب لهم حياتهم.. وأسلوبهم في الصّيد غير أسلوبنا القديم".

حقّق نمر العبد أمنيته واشترى مركباً . عرض فوّاز على أبيه أن يرافقه قال:

– " أنا على استعداد يا أبي أن اترك رفاقي وأن أنزل معك البحر أساعدك".

رفض الأب بشدّة وقال:

– " تريد أن تعيش من الفجر إلى المساء مع عجوز؟ إذهب وكافح وجاهد وارتزق مع الشّباب الّذين هم في مثل سنّك".

استأجر نمر العبد صبيّاً ليساعده في الصّيد. أما عمران، فكان كعادته يذهب كل يوم إلى الشّاطئ ينتظر خروج نمر العبد من البحر، ليعودا معا في المساء.

عصر ذات يوم.. رجع صبيّ نمر العبد إلى الشّاطىء وحده يصرخ ويطلب النّجدة.. سأل عمران الصّبيّ قلقاً:

– " أين سيّدك نمر العبد"؟

قال وقد عقد الخوف لسانه ، والكلمات تخرج متقطّعة من فمه فيصعب فهمها:

– " سقط عمّي نمر العبد عن المركب وهو يشدّ الشّبكة".

صرخ عمران في وجه الصّبي:

– " لماذا لم تنقذه"؟

– " بحثت عنه فلم أعثر عليه".

وبسرعة البرق صعد عمران إلى المركب مع الصّبي.. وعاد إلى المكان الّذي سقط فيه نمر العبد، وحبل الدّعاء متّصل بين عمران وربّه أن ينجّي له صديق عمر). أخذ يقلب البحر بحثا عنه . وقعت عيناه عليه من بعيد يصارع الموج ، وأخذ يُتمتم. هلّل وكبّر : الحمد لله.. لك الشكر يا رب. ثم توجه بالمركب نحو نمر العبد: جئتك يا نمر العبد اصبر قليلا.. اصمد .. قاوم.. جاهد.. والشّدة بإذن الله ستزول.

اقترب منه ورمى له حبل النجاة.. وأعانه على الصعود إلى المركب. ضحك نمر العبد ضحكة يقطّعها لهاث أنفاسه التّعبة المتعاقبة، وقد سرّه وجود عمران إلى جانبه وقال:

– " تخدعني يا عمران وتقول إنّك عجوز، وقد فعلت ما عجز الشّاب عن فعله؟ بعد اليوم لن أسمح لك أن تخدعني أبدا.. غداً سننزل إلى البحر معا".

قال عمران باستغراب:

– " ألم تتّعظ يا رجل؟ لقد خرجت من فم الموت وما زلت تكابر؟! أمسكت بيديك أنتشلك، وكنت أشعر أن الموج يمسك برجليك ويشدك إلى العمق . كفى استهتارا يا رفيق العمر. المثل يقول: رحم الله امرءا عرف قدر نفسه".

أخذ نمر العبد نفسا عميقا بعد أن بدأت أنفاسه تنتظم وقال:

– إنّني أستغرب كلامك يا عمران. تتحدّث وكأن الموت لا يوجد إلا في البحر".

– " لقد رأيته يا نمر العبد واضحا رؤيا العين.. رأيته يأخذ شكل الموج الهائج ويستعير صوت البحر الصّاخب ويضرب جدران المركب بكل قوّته كوحش كاسر يطبق على فريسته. كان إنقاذك أعجوبة تدخّلت بها العناية الإلهيّة . لا تستعجل الموت أيها الصديق ، فانت كل ما تبقى لي في هذه الدنيا . أنا اشعر أن كلّ مَنْ حولي غريب . الشّباب لا يفهموننا ، والدّنيا تنظر إلينا بدهشة تستنكر وجودنا ، فالمسالمة والرّاحة ضروريّة للشّيخوخة ، وأنا مصرّ أن نعيشها معا".

– " كيف نلتقي يا عمران ؟ أنت تنتظر الموت في بيتك مستسلماً استسلام الجبناء ، والخوف يشلّ روحك ويتسلّل إلى خلاياك كما يتسلّل النّعاس إلى العين ، وأنا ألاحق الموت وأبحث عنه بين طيّات الموج . لقد أخبروني أن أغلب أوقاته في البحر " .

قال عمران غاضبا :

– " كأنك تشتهي أن تموت غريقاً . لماذا "؟

– " حتّى لا أثقل على الناس في حفر قبري ولوازم دفني. البحر قبر واسع يا صديقي، لا ينهال عليك تراب ولا حجارة، ولا تدوس عليك أقدام بعد أن ينساك الزّمن".

قال عمران وقد اقشعرّ بدنه من حديث صديقه:

– " أعوذ بالله.. إنّ حديثك يدخل السّوداوية الى النّفس. كفانا الله شرّك يا رجل. تفاءلوا بالخير تجدوه . اللهم اجعلنا من المتفائلين".

– " تخاف الموت يا عمران"؟

– " يا رجل، لماذا استعجل دخول عالم الآخرة وأنا سعيد على هذه الدّنيا مع زوجتي وأولادي وبيتي؟ الرزق وفير، والصّحة جيدة، والزّوجة صالحة، والاولاد مطيعون، والرّب راض".

ضحك نمر العبد:

– " أريد أن أسألك يا عمران: عندما يموت الإنسان، أين تذهب روحه"؟

– " عند بارئها.. تصعد الى السّماء".

– " إذن أنا نصف ميّت يا عمران".

– " كيف"؟

– " أجمع ارتفاع تسعة طوابق تجد أن روحي قطعت نصف المسافة بين الارض والسّماء، وما بقي عليها إلا أن تكمل مشوارها. وقد سمعت أن زوجتي تنوي ان تشتري الطّابق العاشر في نفس العمارة".

– " لا شكّ انّك تهذي.. أعتقد أن هذه الحادثة قد أثّرت على عقلك فجعلت منك عبقريّاً لا يفهمه النّاس، أو مجنونا لا يفهمه النّاس أيضاً . هيا إلى البيت ، فالنّوم بالنّسبة لك الآن أفضل علاج ".

- " حسناً ، خذني أنام في بيتك هذه الليلة حتى أشعر أن روحي قد ارتدّت اليّ وما عادت معلّقة بين الأرض والسّماء".

- " أخاف أن تقلق عليك زوجتك.. يستحسن أن تستأذنها".

قال نمر غاضباً:

- " متى تُستأذن النّساء يا عمران؟!"

- " يا رجل، إنّها زوجتك.. وحاضنة ولدك.. والمحافظة على بيتك وعرضك، كيف تنكرها وتنسى فضلها"؟

- " لن استأذنها.. لقد تعوّدت على غربتي، وما عادت تقلقها غيبتي.. عشرون عاما قضيتها بعيدا عنها في سجن عكا، كانت تدبّ فيّ الحياة ويعاودني الأمل مع كلّ شروق، وأموت ويدبّ اليأس في قلبي مع كل غروب. عشرون عاما قضيتها على هذا الحال. في اليوم الواحد كنت أحيا وأموت، إلى أن التقينا وسألت نفسي أين أنا؟ فاذا بي أجد نفسي في طرف الدّنيا الآخر، بعيدا عنها، وحتّى عن عكّا".

- لا تظلمها يا رجل. أنت ذهبت وتركتها في النّار، فاصبر قليلا حتى تعود المياه إلى مجاريها، ويألف كل منكما الآخر ويتعوّد على طباعه، فمدة غيابك كانت طويلة.

قال نمر العبد تفطر قلبه الحسرة:

- " اذا كانت هي في النار، فقد كنت أنا في جهنّم ولم أتغيّر".

- " لقد اختلف الظّرف والزّمان والمكان".

- " الأصيل لا يتغيّر ولا يتبدّل".

- " يا نمر العبد، السّارق تقطع يده إلا إذا كان الّذي سرقه رغيف خبز، فالشّرع يسامح. وأنا أشهد أنّه لم يكن موجودا .. وأنها عملت مرغمة، فاصبر ولا تحمّلها خطأك، فلو صبرت معها لكان حال بيتك غير هذا الحال".

كان نمر مستلقيا على سطح المركب يلتقط أنفاسه تعبا، فإذا به ينهض جالسا وقد اتّسعت حدقتاه وصاح:

- " تخطئني يا عمران؟! تلومني يا عمران؟! أنا من رمى نفسه في الخطر.. أنا من وضع روحه على كفه وخاطر بحياته ودخل بيت الأفعى من أجل أن أعود لأسرتي بالمال وأيسّر لهم اللقمة الحلال التي كانت عسيرة صعبة المنال، فأصبح أنا الملام"؟!

- " أنا صيّاد يا نمر العبد.. وأنت صيّاد.. حالنا واحد. كان الرّزق خيطاً رفيعاً نقتات منه أنا وأنت والعيال، ولكنك طمعت بأن تذهب إلى النّبع وتغرف، فغرقت.. حذّرتك فلم تنتصح.. الطّمع أعماك. كنت

أنانياً يا نمر العبد.. تصرّفت بنفسك وكأنها ملك لك وحدك، ونسيت أن لك شركاء، وأنك كنت الأرض التي تنبت لهم الرّزق يوماً بيوم، وإن الحياة بدونك قهر. كان يجب عليك ان تقدر خطر المجازفة . كنت كالمقامر الشرس الذي رمى على طاولة القمار كل ما يملك، تجرفه أحلام الغنى والأوهام ، فخسرت نفسك، وخسرت أهلك، فاتّق الله في زوجتك وابنك، وردّهم اليك بالحسنى، وانعم بما يسّر الله لك ولهم من رزق حلال.. فالدّور التّاسع الذي تكرمه صعدت إليه زوجتك بحبل من جهد وحبّات عرق".

صرخ نمر العبد فاقداً صبره:

– " الله أكبر.. الله أكبر.. مالي مدفون في الأرض، وأنا وأهلي جوعى، أيّ مروءة تتحمّل هذا؟ كنت تريدني نذلا يا عمران"؟

– " كنت أريدك عاقلا يا نمر العبد، تقنع بما قسم الله لك، وتحافظ على نفسك، وتعيش لترعى بيتك وأولادك".

وقف نمر العبد يرمي ببصره إلى جهات البحر الأربع، يضيق صدره بما يسمع.. وقال:

– " دعنا من هذا الحديث يا عمران.. إنّه يرهق أعصابي ويجلب الاكتئاب إلى نفسي."

ثمّ استدرك يقول:

– " أين تأخذنا يا عمران"؟

– " إلى الشّاطىء، حيث الأمان.. فقد قدم لنا البحر اليوم من التّرحاب ما يجعلنا لا نعود إليه أبداً".

– " ما زال في النّهار بقية. دعنا نكمل صيد النّهار".

صاح عمران في وجهه يستهجن قوله:

– " يا لبرود أعصابك.. أما زال في جسدك قوّة، وفي نفسك طمع في صيد؟! إنّ كلّ خليّة في جسدي ترتعد رعب . أتمنّى لو أن لي جناحين افرّ بهما إلى الشّاطىء. فأنا أرى اليوم في عيون البحر غدرا".

– " الرّب واحد والعمر واحد. (قُل لن يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا). لا أدري كيف تحوّل هذا القلب الجريء في صدرك من شجاع إلى جبان يا عمران؟ ثمّ إنه يعزّ عليّ أن أنزل إلى البحر وأعود خالي اليدين".

– " عدت اليوم بربح لم يحلم به صياد أبدا.. عدت بروحك سالما.. قل الحمد لله. إنّ الله يحبّ عبده الشّكور" .

قال نمر العبد مازحا:

– " المؤمن القوي خيرٌ وأحبّ إلى الله من المؤمن الضّعيف. لقد اختبرنا الله اليوم، وكنت أقوى إيماناً منك لأنّني أؤمن أن الموت حقّ ".

اغتاظ عمران ورد على صديقه:

– " اختبرنا الله اليوم وعرف أنك تبحث عن طريقة تنتحر بها، وقد حذّر الله الإنسان من أن يقتل نفسه.. فقال سبحانه: (ولا تقتلوا أنفسكم.. صدق الله العظيم) ، لذا سوف نذهب إلى الشاطىء ونقضي بقية نهارنا بعيدا عن البحر".

أذعن نمر العبد عندما رأى إصرار عمران على العودة إلى الشّاطىء، فعادا إلى البيت. جهّزت لهما لبيبة طعاما، وهيأت لهما جواً مريحا هدّأ اعصابهما وأنساهما صعوبة يومهما.

تأخّر الليل وما زل نمر العبد عند عمران، فحضر فواز قلقا مشغول البال يسأل عن أبيه، وسأله أن يعود معه إلى البيت، إلاّ أن أباه رفض:

– " أنا مرتاح هنا. سأقضي الليلة عند عمك عمران ، فلم يبق للفجر سوى ساعات.. بعدها نخرج إلى البحر ".

قال عمران:

–" إذا كنت تريدني أن أخرج معك غداً إلى البحر، فاذهب مع ابنك فواز إلى بيتك، عند زوجتك، حتى تطمئنّ عليك، فلا بدّ أنّ أحداث اليوم قد شغلتها".

قال معاتباً، يقصد أن يظهر عيوب زوجته أمام إبنه:

– " لو أن زوجة غيرها علمت أن زوجها خرج اليوم من فم الموت لأتت منفوشة الشّعر حافية القدمين تقلب ماء البحر تبحث عنه. إنها لا تُقدّر أنني ذهبت أحمل روحي على كفّي كي أعود لها بالرخاء والسعادة ، فالإنتقام ما زل يملأ قلبها".

قال فواز يستهجن كلام أبيه:

– " ماذا تقول يا أبي. إنّك تظلمها.. مضى عشرون عاما عاشتها مع العذاب والتّعب تنتظرك ومع كل غرزة إبرة تهمس باسمك، وتعيش ذكرى أيّام حلوة عاشتها معك".

– " إذن لماذا تعاملني أمّك بهذا الجفاء وهذه القسوة"؟

– " لست أدري! لماذا تبحث أنت عن أخطائها.. لقد أخفيت عنها أنا حادثة اليوم حتى لا أقلقها، فهي لا تعلم أنّك كنت في خطر. ليس عدلا أن تلقي عليها التّهم جزافا، فهي الزّوجة المخلصة، والأمّ الرّاعية، والسيّدة المكافحة المناضلة".

طال الجدل بين آل عمران ونمر العبد وابنه. الجميع يؤيدون صابرين ويبرئونها من افتراءاته، ونمر العبد يدينها.. إلى أن قال عمران:

- " هيّا، اذهب مع إبنك إلى بيتك واطلب الغفران، فليس في الدّنيا مثل صابرين زوجة".

نظر نمر العبد إلى عمران نظرة استغراب، وأخذ ينكش أذنيه باصبعيه:

- " ترفضني ضيفاً يا عمران؟ لا أصدّق"!

- " بل أرفض أن تظلم زوجتك وتتعس نفسك وتخرب بيتك وتدخل الحزن إلى قلب ابنك. هيّا اذهب إلى بيتك، وارفع الغشاوة عن عينيك لترى الحقيقة وتعترف بالواقع، فالله يعطي النعم للانسان حتى يشكر، وأنت تجحد. فما معنى أن يعطيك الله النعمة وأنت تحرّمها على نفسك؟ لك المال والجاه والمركز، وأنت تصرّ على المركب والطّربوش والسّروال، وتصرّ أن تتعامل معهم بأسلوب الصيادين. هناك عالم جديد يا نمر، يجب ان تخوض غماره، وتتعرف عليه. الدّنيا تركض. لا أدري إلى متى ستبقى متأخرا متحجّراً؟ لا تطلب من زوجتك أن تكون بعقليّة أمك ، فكرباج أبيك ما عاد ينفع. زوجتك اليوم سيّدة مجتمع ، لها مكانة وهيبة ، فتنعّم بما هيّأه الله لك من رخاء ، ولا تنس أن لها كلمة نافذة عند أعلى سلطة. أما أنت، فقد أصبحت عجوز تقف أمام الرّيس كبير الصّيادين ترتعش كسمكة رماها البحر على الشاطىء بعيدا عن مائه، يبتزك وتقول (أمرك يا سيّدي)".

قال نمر العبد غاضبا:

- " السّروال تراثي، والطّربوش على رأسي كرامة أبي وجدي ، وكرباج أبي سلطة أُقوّم به اعوجاج أهل بيتي . أنت صياد يا عمران ، هل أكبر عليك"؟

- " لا تكبر عليّ يا نمر العبد، وعني أنا أكبر بك، فكلما ارتقيت واصطلح حالك وارتفع مركزك ولم يصل الغرور إلى نفسك.. ولم تطمس المظاهر أصلك وتقطع جذورك أفخر بك، وأطمئن أنك لي دعم وسند. صدّقني يا صديق العمر أنني رميت البحر خلفي غير نادم بعد أن عرفت متأخرا أنه أخذ شبابي وابتزّ عمري ، فلم يعطني يوماً أكثر من حاجتي ، حتّى أنني تمنيت طول عمري أن أسكن بيت الحجر. أمنع ريح الشتاء وعواصفه أن تعرّيني ساعة تثور. هيّا.. ارجع إلى بيتك، وادرس الامور بحكمة وعدل، ولا عيب أن يرجع الإنسان عن خطئه ويعطي كلّ ذي حقّ حقّه".

وما كاد عمران يتم كلامه حتى دخلت صابرين تسأل.. وكان الليل قد انتصف، دخلت والقلق يملأ عينيها:

- " الحمد لله على سلامتك يا نمر. لقد تأخر فواز فأكلني قلبي وجئت أبحث عنكما فصادفني العريد وأخبرني أن الله أن أنجاك اليوم من براثن البحر. الحمد والشّكر لك يا رب".

اقتربت تجلس إلى جانب زوجها ، تضع يدها على يده، فرحة بسلامته، سعيدة بلقائه، تحادثه وما زل في صوتها رعشة خوف.

أحرج نمر العبد وخجل من نفسه، فلاحظ عمران:

- " هل عندكم استعداد أن نطيل السهرة أكثر"؟

قالت صابرين:

- " أنا تعبة، وقد أعطيت وعداً ، فهناك من سيأتي باكرا لاستلام بضاعته".

ربّت عمران على كتف نمر العبد:

- " حسنا، أنا في انتظارك لنخرج مع الفجر إلى البحر".

شهقت لبيبة:

- " هل ستعود إلى البحر يا عمران"؟

أجاب مبتسما:

- " مع نمر العبد أذهب إلى آخر الدّنيا".

تأبّطت صابرين ذراع زوجها فحاول أن يسحب ذراعه، معتبراً أن في هذا امتهاناً لرجولته، فوكز، عمران خفية يحذر، فأذعن للأمر، وذهب الجميع مع المحبّة والرّضى.

(17)

مرّت الأيام ونمر العبد كما هو.. لم يتأقلم مع الجديد في بيته أو مجتمعه. فلا زال يلبس السّروال، ويتغاوى بالطّربوش، ويحمل عصا رشيقة مدهونة تبرق وتلمع، يضرب بها الأرض. وفي كل يوم يأتي مع الفجر ليأخذ عمران ويذهبان معاً إلى البحر. إلى أنْ جاء يوم اعترض مركبهما مركب كبير وقف في مقدمته "عطيوه" رجل المخدرات الذي أهدى نمر المركب. أشار إليه أن يصعد إلى مركبه. همس نمر العبد في أذن عمران:

- " إنّه رجل المخدرات الذي أهداني المركب وأعطاني عشرين ألف دولار".

صعد نمر العبد إلى مركب عطيوة والخوف يرعش خطواته. سأله:

- " ماذا تريد "؟

- " أما زال معك دولارات يا نمر"؟

- " مستورة والحمد الله ".

- " ألا تريد أن تزيدها ؟ سأدفع لك ما يعوّضك عن صيد الأسماك مدى عمرك".

- "مقابل ماذا "؟

- " مقابل أن تقود المركب من بيروت إلى يافا".

- " ومن سيوصلني إلى يافا .. كيف أخترق الحدود"؟

- " لا تخف.. الطّريق مأمون.. وسيكون نصيبك مائة ألف دولار".

صاح نمر العبد في وجهه والشّرر يتطاير من عينيه:

- " والله لو أعطيتني مليون ما أدخلتها في جيبي ".

- " أنت مدين لنا بروحك ، فنحن من أنجاك . كان الموت يأكلك بطيئا في سجنك ، ولنا الحق أن نستردّ ديننا".

قال نمر العبد يائسا:

- " أرجوك أن تستعجل في استرداد دينك، فما عادت تطيب لي في هذه الدّنيا حياة".

أجاب عطيوة مهددا:

- " أعد أنّك ستكون قريباً طعاما للأسماك".

ضحك نمر العبد:

– " أكلت من الأسماك مدى عمري، فأصبح يحقّ لها اليوم أن تأكل منّي. إنهّا أحق بي من الدّيدان في قبر الظّلمات تلتهمني. عجّل يا رجل. عجّل ، فوالله إنني لا أخشاك ولا أخشى أسنان الأسماك التي تهدّدني بها".

قال عطيوة مستغرباً:

– " تطلب الموت يا نمر العبد!!؟"

– " وهل أنا حيّ حتى أخاف الموت"؟

قال عطيوة محاولا أن يتحسس مدى اليأس في قلبه:

– " أنت مجنون.. أنا لا أدخل المزح في أعمالي".

– " إذا كان في الجنون سلامة النّاس والضّمي .. فأهلا بالجنون".

قال عطيوة ، وهو رجل شديد الذّكاء ، قويّ الفراسة ، وقد رأى في نمر العبد يأسا كبيرا يسهل عليه استغلاله:

– " نحن لا نؤذي أحدا يا نمر، بل نساعد النّاس. نخدّر المريض فلا يشعر بالآلام والأوجاع، ونبعد اليأس عنه ونحببه في الحياة، ونشفي المكتئب الّذي يخطو إلى مستشفى المجانين ونعيده سليماً معافى. شمّة واحدة من هذا المسحوق الأبيض، تُنسي الإنسان نفسه، فيدخل عالم النشوة والسعادة .. ويعيش متمتّعا بالحياة . خذ شمّة واحدة وجرّب . لن تخسر شيئاً".

–" أعوذ بالله منك.. أنت شيطان. نجّنا يا رب منه. وارحم الضّعيف من خبثه وأذاه".

عاد نمر إلى قاربه يستعيذ بالله من غواية المال وضعف النّفس أمام مغريات الحياة.. وأخذ يهزّ رأسه مستنكرا يحدّث نفسه:

– " ماذا؟ آخذ شمّة؟ قال أنا آخذ شمّه؟ ذاك ابن الحرام"!

عاد الصّديقان مع الغروب يحملان رزق يومهما، وقصّ عمران على زوجته حكاية نمر العبد مع رجل المخدرات، فأقسمت عليه أن لا يعود إلى البحر:

– " هؤلاء الرّجال مجرمون ، لهم أساليبهم في الإيقاع بالنّاس".

فاقتنع عمران بكلام زوجته يردّد المثل القائل(ابعد عن الشر وغنّ له).

مع الفجر حضر نمر العبد كالعادة.. فوجد عمران نائما.. فشكا من كسله وثقل همّته. قال عمران يلتمس لنفسه عذراً:

- " أنا مريض اليوم يا نمر العبد.. ابحث عن صبيّ يعمل معك، فلا أظنّ أنّني سأعود إلى البحر ثانية".

فاجأ هذا القرار نمر العبد.. وكان صدمة:

- " تتخلّى عنّي يا صديق!!؟ خذ اليوم راحة، ثمّ نعود كما اتّفقنا نكمل المشوار معا حتى يتعكّز كلّ منّا على الآخر مدى ما أعطانا الله من عمر".

- " لا أظنّ أنّني أستطيع ذلك. أرجوك أن تعفيني من النّزول إلى البحر. اذهب أنت وسأحضر أنا إلى الشّاطىء مع كل غروب أساعدك في حمل ما يسّر الله لك من الرّزق، ونعود لنقضي السّهرة معا هنا في بيتي".

ذهب نمر العبد يحدث نفسه يائسا:

- " لا خير في زوجة ولا خير في صديق.. ماذا تبقّى للإنسان بعد هذا حتّى يرغب في أن يعيش؟ كنت أظنّ أن الروح تفارقني وتخرج من بدني، أمّا أن يفارقني عمران، فهذا هو المستحيل".

ذهب نمر العبد وحده يفتقد صديق العمر.. الدّنيا موحشة.. البحر عابس.. الهمّ ثقيل.. والنّفس سقيمة يلفّها ضباب الكآبة ، فاستلقى على المركب يائسا ، وأسلم نفسه للبحر يفكّر في كلام عطيوة رجل المخدرات ، وأخذ يحدث نفسه: هل أنا يائس أسير حثيثا نحو الانتحار؟ أعوذ بالله.

ثم تعود وتسيطر عليه شخصيّة عطيوة ، فيقول : هل أنا مكتئب أخطو إلى مستشفى المجانين؟ أعوذ بالله. إن عقلي سليم، ولكن لماذا تكرهني زوجتي؟ دوما تخطئني وتخجل مني وتستثقل ظلّي وتستغرب فعلي وتستخف بوجودي؟ لا بد أن في شخصي عيباً. حتى ابني أصبح يميل إلى أمه مبتعدا عنّي.. قد يكون الإكتئاب هو الذي ألقى بظلاله على نفسي وأعطاني هذا الشّكل المزري.. لا بد أنّني مكتئب.. غدا ستأخذني زوجتي وابني ومعهم صديقي عمران إلى مستشفى المجانين يتخلصون منّي.

ثم يعود ويصرخ مستنكرا بشدة ما جال بفكره: لا.. لا.. لا.. أنا سليم النّفس.. متّزن العقل.. صحيح الأعصاب.. إنّها وسوسة الشّيطان.

يقفل أذنيه ويقول: لا أريد أن أسمعه.

ولكن يعود فيأتيه صوت عطيوة قويّا كأنّه صوت الطّبل في غابة. تضرب جانبيه عاصفة تثير الرّعب وتفرض وجودها بعلو الصّوت.. لا بد أنه اليأس سدَّ عليّ جميع أبواب الدّنيا وفتح لي باب معصية قتل النفس والانتحار. أعوذ بالله . أنا مؤمن أخاف الله. لا أرتكب المعاصي. سأصبر حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا.

ثم هرب من هذه الوساوس إلى الماضي.. أخذ يتذكّر أياما حلوة يحبها ويرتاح إليها، أياما كان له فيها سطوة الرجل على بيته كسطوة أبيه على أمّه حين كان يمتشق كرباجه ويضرب دون رحمة، حتى ترتاح نفسه، ويشعر بعودة هيبته. شجعته الذكريات ، وأخذ يحنّ إلى استعادة هيبته واسترجاع كلمته على بيته وزوجته الّتي لا رادع لها ولو كانت على خطأ ، فقرر أن يبدأ المعركة ، بأن يذهب إلى البيت وفي يده سلة مليئة بالأسماك ، وان يأمر صابرين أن تجهّزها للعشاء .

عاد نمر العبد عند الغروب فوجد صديقه عمران في الانتظار ، وما أن اقترب المركب من الشّاطىء حتى ذهب إليه عمران هاشا باشا ليقدم المساعدة ، إلا أن نمر العبد نهر عليه يستوقفه.. قال:

– " مكانك يا عمران . أنت لم تعد صديقاً، فأصدقائي رجال. رجل تتحكّم به امرأة لا تشرّفني معرفته".

اقترب منه عمران يبحلق بعينين يلعب فيهما الشّك:

– " ماذا دهاك يا نمر العبد ؟ هل أنت بكامل عقلك؟ ما تعوّدت أن اسمع منك مثل هذا الكلام".

كان تساؤل عمران قد أصاب من نمر العبد مقتلا. عزّز الشّك في نفسه أنه قريب من الجنون، فرفع مجذافه مهدداً:

– " لا تقترب يا عمران أنت المجنون الجبان".

تراجع عمران يضرب كفا بكف.

– " أنا صديق عمرك يا نمر العبد . أنا عمران . ماذا دهاك ؟ وحّد الله يا رجل".

أجاب نمر العبد محتدّا:

– " تقدّم خطوة واحدة وسوف تندم ندم العمر".

تراجع عمران:

– " لا حول ولا قوة إلا بالله.. إن خسرت نمر العبد، من يبقى لي في هذه الدّنيا!؟؟ فليس لي صديق غير!! أيّ نكهة للحياة دونك يا نمر العبد!!؟".

أخذ يشعر بفداحة مصابه إذا خسر صديق عمر، فارتدّ مخاطرا بحياته يقترب منه يسأل:

– " هل أنت غاضب مني يا نمر العبد لأنني لم أخرج معك للصّيد"؟

– " أنا لست غاضباً يا عمران أنا خائف".

– " خائف من ماذا يا صديق"؟

– " خائف أن تنقل اليّ المرض".

– " أي مرض!! أنا لست مريضا."

- " بل أنت مريض بالخضوع والخنوع لزوجتك. هي من بدّلت شجاعتك جبناً. وقوّتك ضعفا. وإخلاصك غدراً. ووفاءك خيانة. بأمرها بدلت السروال بالبنطال، والطربوش بالبرنيطة، واشتريت رضاءها بكرامتك، وعطفها برجولتك، فلم يبق منك شيء أحبّه أو يجعلني أتمسّك بك. أنت لست عمران الذي عرفت وأمنته ذات يوم على بيتي وأولادي".

قال عمران غاضبا:

- " هل أنت صديقي أم صديق سروالي؟!! هل أنت صديقي أم صديق طربوشي؟! ما دخل الصّداقة باللباس؟! وما دخل الزوجات فيما يفعل الرّجال؟! هيّا معي نحتسي الشاي في بيتي، نتحدّث ونتفاهم ، ولا تدخل الشّيطان بيننا، صداقة العمر أغلى بكثير من هذه التّرهات".

صاح نمر العبد:

- " لا تخطىء.. هذه ليست ترهات.. هيا اغرب عن وجهي.. أنت وزوجتك سبب خراب بيتي وعصيان زوجتي وعقوق ابني.

أخذت زوجتي عن زوجتك طريقة تعاملها معك، واليوم تحاول أن تعاملني كما تعامل زوجتك، ولكن نجوم السماء أقرب لها. سأسترّ سيادتي وهيبة كلمتي على بيتي. من يدري ، قد تصيبك العدوى وتتحرك فيك شهامة الرجال، وتعود لك السيطرة على زوجتك وبيتك، عندها نعود أصدقاء".

تراجع عمران:

- " أنا لا أفهم شيئا.. أنا لا أفهم شيئا.. ماذا جرى؟! أنا أعرف أن البحر يأخذ الأرواح، ولم اسمع أبدا أنه يأخذ العقول. منك العوض وعليك العوض يا رب".

رجع عمران حزيناً إلى البيت يحدّث زوجته بمأساته مع صديق عمر، ، فأخذت تهدئه وتمسح حزنه . وتطمئنه بأن الأمر لا يزيد عن ضربة شمس ، أيّام قليلة ويزول تأثيرها.

قال متأثرا:

- " كان يهذي بكلام غريب لا أصدّق أنه يصدر عنه، فنمر العبد خلوق لا يعرف لسانه زلّة. إنّها لوثة ، لوثة أصابته يا لبيبة ، فبحلقة عينيه وتشنجه وشروده شيء لا يصدّق. لقد رفع المجذاف يهدّد أن يضربني به. أؤكد لك أنها لوثة جنون.. شفاه الله.. إنّ خسارتي به فادحة يا لبيبة".

ذهب نمر العبد إلى بيته عازما أن يسترّ هيبته بطريقة أبيه وجده . في طريقه عرج على حانوت. اشترى كرباجا ودخل البيت يحمل سلة السّمك.. عندما رأته صابرين شهقت:

- " ما هذا "؟

- " سلامة عينيك . إنّه سمك . هل نسيت شكله "؟

- " حذّرتك يا نمر العبد من أن تدخل السّمك إلى بيتي ".

قال يبحلق عينيه ويبح صوته بغلاظة أشرار الرجال :

- " البيت للرجل ، والزوجة خادمة ".

أجابت مغتاظة :

- " أنا لا أدخل المطبخ لأضيع وقتي في طهو السّمك ، فأشغالي كثيرة ، والتزاماتي أكثر ".

ملأ الغضب وجهه ، ونفخ أوداجه يشير إلى المطبخ :

- " هيّا إنهضي . أريد أن يجهز هذا السّمك على العشاء ".

- " خذ السّمك واذهب به إلى بيت صديقك عمران . هناك ستجهّز لك لبيبة بالطّريقة التي تشتهي، فهي ماهرة في طهو السّمك ".

رفع كرباجه وانهال عليها ضربا :

- " أذهب لآكل في بيوت الناس ولي زوجة " ؟

صرخت صابرين ألما تستنجد . أسرع فواز يستطلع الخبر ، وتقدم من أبيه يحجز عن أمه ، فنال من الضرب المبرح مثلها ، ونمر العبد يصرخ:

- " أنت زوجة عاصية، وأنت ولد عاق.. الفساد يستشري في هذا البيت كما يستشري الدّم الفاسد في جسم مريض .. سأطهّر بيتي من رجس العصيان والعقوق .. أنا صاحب الكلمة هنا ، أنا الرّجل . أنا ربّ البيت. أنا من ذهب ضحيّة شهامته ومروءته.. عشرون عاماً قضيتها في السّجون.. جازيت بروحي من أجل أن أهيّيء لكم حياة كريمة ، فيكون جزائي الإهمال والعصيان والعقوق!!"

طال جلد الأب للام والولد .. فهجم عليه ابنه فواز بعزيمة الشباب .. وأخذ منه الكرباج. صرخت صابرين بزوجها :

- " هيّا.. أخرج من بيتي أيها السفيه الجاهل . لا مكان لك هنا ".

خرج نمر العبد من البيت هائما على وجهه لا يعرف مكانا يلتجيء إليه، فعاد أدراجه إلى المركب. وهنا كان التّعب قد أخذ منه كل مأخذ ، فاستلقى على مركبه وغطّ في نوم عميق بعد أن شل عقله عن التفكير ، فرأى فيما يراه النائم حلما عجيبا ..

رأى شيخا جليلا وقورا في وجهه سماحة وفي لحيته هيبة التقوى والورع قال له:

– " ماذا بك يا رجل، أراك مهموما محسورا ".

فتنهد نمر العبد ، وشكا له من زوجته وولده.

أمسك الشيخ بيد نمر وقال :

– " هيا معي أريك جنات الدنيا وأنسيك همومك " .

أخذه إلى بستان أخضر ، جنّة من جنات الأرض ، فيها ما لذ وطاب من أشجار الفاكهة والزّهور الفواحة وكل ما تشتهي العين من مناظر وكل ما ينعش النّفس من شذى العطور .

قال :

– " ادخله آمنا يا نمر العبد . تمتع وتلذّذ . هذا لك.. أعوّضك به عما صادفت من متاعب الدنيا، فأنت رجل صالح تستحق كل خير".

دخل نمر العبد البستان. أخذه منظر الزهور والأشجار ، واشتهى حبة برتقال . مدّ يده يقطفها ، فانبرت له أفعى ضخمة بطول الشجرة تحذّر. ابتعد عنها خائفا . انتقل إلى شجرة تفّاح يقطف منها ثمرة ، فانبرت له أفعى ضخمة بطول الشجرة تحذر. ابتعد عنها خائفا . استمر حاله هكذا ، كلما اقترب من شجرة تنبري له أفعى ضخمة تحذّر، وتهدّده ، فانسحب يتلمظ ويتحسر ، فكل ما يشتهي أمامه .. ومحظور عليه ، انتقل إلى الزهور .. لفتت نظره ورده . اقترب منها .. فبرزت له أشواك طويلة حادة .. وانطلقت منها رائحة فاسدة تعكر النفس .. فابتعد عنها يمسك أنفه .

عاد إلى الشيخ الجليل :

– " الأفاعي تحرس الأشجار ، وتحذّر من قطف الثّمار . والورود أشواك ، والعطر روائح فاسدة. جئت بي كي ترفع عني الهموم ، فإذا بك تزيد همي . إلى اللقاء يا شيخ ".

أمسك به الشيخ وقال :

– " انتظر يا نمر العبد ، لا تكن عجولاً ، فالشّيء السّهل لا لذّة فيه . اصبر قليلاً ولا تقطع نصيبك من متع الدّنيا . خذ هذا المسحوق ورشّ على ذنب كل أفعى قليلا منه .

أخذ نمر العبد المسحوق ورشّ على ذنب كل أفعى قليلا منه، فمسحت كل أفعى أنفها بذنبها، ولم تمض دقائق حتى رأى جميع الأفاعي وقد بارحها الغضب، ونسيت وظيفة الحراسة، وأخذت ترقص وتهتز

طربا فسرّه المنظر. اقتنص الفرصة ومدّ يده يقطف تفاحة ، فوجد مغروسا بها ناب أفعى طويلاً أصفر ، فاقشعر بدنه وابتعد عنها. ومرّ على جميع أشجار الفاكهة، فوجد نابا مغروساً في كل ثمرة، فدخل الرّعب قلبه. وذهب إلى الشيخ يتأفّف ويتضجّر، وأراد أن يغادر المكان، إلاّ أن الشّيخ ألحّ عليه بالصّبر والانتظار وقال:

– " لا تكن عجولا يا نمر العبد ، فالشّيء السّهل لا لذّة فيه . خذ قليلا من هذا المسحوق الأبيض ، وضعه تحت أنفك وعد إلى البستان ".

استجاب نمر العبد إلى طلب الشيخ ، ووضع قليلا من المسحوق تحت أنفه ، ودخل البستان ، فإذا به يرى الأفاعي " حور عين " نزلن من الجنة يغنين طربات ، ويرقصن سعيدات . أمسك بحبة تفاح ، فإذا به يرى ناب الأفعى شامة تزين خدّ حسناء بيضاء بضة . وانتقل إلى باقي الأشجار يأكل ويتلمظ ، دقائق معدودات ، وبدأ يشعر بأن أمعاءه تتقطع من الألم . ذهب إلى الشيخ راكضا :

– " أنقذني يا شيخ . بدني يتسمّم ".

فجأة تحول وجه الشيخ إلى وجه شيطان . مسح السماحة والخشوع والوقار ، وظهر وجه رجل المخدّرات عطيوة يهدّد ويتوّعد . قال :

– " يا نمر العبد ، ألم تر أن في كل ثمرة ناب أفعى " ؟

– " بلى ، ولكنّ المسحوق الأبيض أعماني . لعب في خيالي وصوّر لي الأفعى حورية ، وصور لي الناب شامة على خدّ حسناء ".

– " أكلت وتلذّذت واستمتعت فاصبر ".

– " ولكنني أموت ".

– " ألم تطلب منّي أن أستعجل موتك ؟ وعدتك ، والآن أفي بوعدي ".

استدار الرجل الشيطان ، واختفى في ضباب كثيف.

استيقظ نمر العبد يستعيذ بالله من هذا الحلم المخيف ، وكان الفجر قد أذّن ، فقاد مركبه واتجه إلى عمق البحر يطلب الرّزق ، خاصة أنّه لا يملك من المال شيئا ، وتمنعه رجولته أن يطلب مالا من زوجته .

في تلك الليلة ، بعد أن غادر نمر العبد البيت ، تبعه ابنه فواز يظنّ أنّه سيجد أباه عند صديقه عمران ، فاحتار عندما علم أن أباه لم يلجأ إليه . أين ذهب ؟ اشترك الجميع في بحث الأمر ، وامتدّ النقاش حتى الفجر ، والجميع يستغرب تصرّفات نمر العبد ويقترح الحلول . أخيراً ، ذهب عمران وفواز إلى البحر ، فوجدا أن المركب قد أبحر باكراً . قال عمران يطمئن فواز :

– " الأمر الآن حسّاس جدا ومعقّد ، أبوك يشعر بإهانة من امرأة ، وعقوق من ولد ، وهذان خطآن لا يمكن أن يغفرهما إنسان ما زال يعيش بعقل رجل الأمس ، فالموت عند رجال الأمس كان أسهل كثيرا من إهانة امرأة أو عقوق ولد . في ذلك الزمان كانت تذبح المرأة لارتكابها مثل هذا الخطأ، ويتبرأ الأهل من الولد . لذا ، أفضّل أن لا تقابل أباك اليوم ، ودعني أحاول معه ، فقد تأتي على يدي بركة الصلح والشّمل ، رغم أنه خاصمني وهددني وأسمعني كلاما جارحا . سامحه الله ، فلا يجوز أن يعلق في قلب الأصدقاء ما يعكّر صفو المحبّة والصّفاء . سأذهب إليه مع الغروب ، عندما يكون قد عاد من الصّيد ، وأحدثه في الأمر ، آملاً أن يكون قد هدأ وصفت نفسه ، فيكون في حديثي معه فائدة. عندها سأحضر إليكم أخبركم بما يطمئنكم إن شاء الله ".

عاد عمران إلى بيته .. وسرى فواز مع رفاق عمر، زاد والعريد .. فالدّنيا ساعة الفجر.. وهو موعد نزول الصّيادين إلى البحر .

قضى عمران جلّ يومه ينظر إلى الشمس في سمائها، يستعجلها أن تميل إلى الغرب بسرعة ، فالغروب موعد لقائه مع نمر العبد، آملاً أن يعود به إلى بيته حتى يلتمّ شمل الاسرة ، فساعة يتحدث إلى زوجته يسألها: ماذا أقول له يا لبيبة؟ وساعة يتحدث إلى ابنته: أريد كلاماً مؤثرا يا زهرة يردّه إلى بيته وابنه وزوجته.

مع العصر، ذهب عمران يجلس على صخور الشّاطىء يتعجّل المغيب حتى يطمئنّ على صديقه.

بدأ الغروب يرمي ستاراً خفيفا من الظّلام، والشمس لم تستسلم بعد . وهج أحمر يدمي الأفق ويلونه بلون الشّفق، ينعكس على صفحة مياه البحر ، يحمله الموج ويتلون بألوانه ، يصعد ويهبط كخفقان قلب فنان يتناغم مع لحن موسيقيّ آت من السماء . ظهر من البعيد مركب نمر العبد ، وزاد خفقان قلب عمران: ماذا يقول له؟ هل سيستمع إليه ويعمل بالعقل والحكمة أم سيهدده بالمجذاف كالمرّة السابقة ، فينتكس ويهرب ؟ وصدق حدس عمران ، فما أن رآه نمر العبد حتى رفع مجذافه وأسرع يخوض مياه الشاطىء الضحلة ، ويلحق به صائحاً:

– " خرب الله بيتك فقد خربت بيتي.. وشتّتتني عن ابني وزوجتي .. وما زلت تلاحقني"!

هرب عمران من وجهه راكضاً يحدّث نفسه:

– " لا حول ولا قوة إلا بالله. نجّنا يا رب ، وابعد شرّ بني آدم عنّا. اتّق شرّ من أحسنت إليه. الصّبر طيب. يا منجّي من المهالك يا رب".

ونمر العبد يقترب منه رافعا مجذافه، إلا أنّ الصّيادين اعترضوا نمر العبد، فأفلت عمران من ضربة مجذاف كادت تشجّ رأسه. أخذ نمر العبد يصرخ:

– " اتركوني أجهز عليه . خرب بيتي ، وعصّى زوجتي عليّ ، وأخرج ولدي عن طاعتي ".

حاول الصيادون أن يتدخلوا، فقال عمران:

– " إنّه أخي ، والمسألة عائلية يمكننا أن نسوّيها معا ".

إلاّ أن نمر العبد قال :

– " البطن الذي حملني يأنف أن يحمل مثل هذا الإنسان ليكون أخي".

تكاثر الصيادون وتعاطفوا مع نمر العبد ، فقد كان له في قلوبهم محبة . ثاروا على عمران ، وحاولوا أن يعتدوا عليه ، إلا أن العشرة لم تهن على نمر العبد ، فخلّصه من بين أيديهم:

– " سأعتقك اليوم لوجه الله ، على أن لا تريني وجهك أبداً مدى الحياة ".

نهض عمران عن الأرض ينفض ملابسه من الرّمل، وعاد يشكو أمره إلى زوجته وابنته، وسألهما أن لا يعلما زيّاداً بما حدث حتى لا يتعكّر جوّ الصّداقة بينه وبين فوّاز.

غضبت زهرة:

– " يجب أن توقف هذا المجنون عند حدّه".

قال:

– " لا يا ابنتي، إنّنا لا نريد أن نخسر أصدقاء العمر . لا تنسي أن زوجته صابرين معلّمتك التي أحسنت تعليمك وتأديبك ، فقد عملت معها وأنت صغيرة ، وكبرت في بيتها معلّمة خيّاطة ، وأصبحت موظّفة مسؤولة ، كل هذا بفضلها . هل جزاء الإحسان إلا الإحسان" ؟

بعد أن استراح عمران وهدأت نفسه، أعلن أنه سيذهب إلى صابرين وفواز يخبرهما بما حصل. إن ثورة الرجل ثورة جنون ويجب أن يأخذا حذرهما. استعجل الخطى، وما أن وصل بيت صابرين حتى ثارت في وجهه:

- "ماذا تريد"؟

استغرب عمران استقبالها:

- " أريد الخير يا صابرين ".

- وهل عرفنا الخير منذ اليوم الّذي تعرّفنا عليك به؟

أخذ عمران يحدّث نفسه: أعوذ بالله من الشيطان. ماذا جرى لهذه العائلة ؟ هل انتقلت لوثة نمر العبد إلى زوجته صابرين؟

ثم علا صوته:

- " ماذا في الأمر يا صابرين؟ إنها ثورة لا استحقّها. ماذا فعلت" ؟

سمع فواز ضوضاء وهو في غرفته، فخرج يستطلع الأمر ليجد عمران يعاني من كلمات أمه الجارحة. كانت تصرخ في وجه عمران:

- " أنت سبب بلواي ومصاب بيتي وتشتيت زوجي".

صاح عمران يستغرب تهمتها:

- " أنا؟ أنا يا صابرين؟ هل هذا الحديث موجّه لي"؟

- " ومن غيرك معي هنا "؟

- " لو لم تحمّلنا مسؤولية زوجتك وأولادك وتركتهم أمانة في عنق زوجي، ما تجرأ وتركنا أمانة في عنقك. سامحتك ونسيت ما فات، وحمدت الله على السّراء والضّراء . أمّا أن تأتي اليوم وتتسلّل إلى بيتي وابني كما يتسلّل النّعاس الى العين ، فهذا ما لا أسمح به . لن أزوّج فوّاز من زمرة ولو انطبقت السّماء على الأرض ، وأسلوب (تمسكنوا حتى تتمكّنوا) لا يجدي معي ، فاختصر الطّريق على نفسك ".

غضب فوّاز يستنكر كلام أمه ، وأخذ يطيب خاطر عمران ويسترضيه .

صاح عمران فاقداً صبره:

- " أنجاني الله اليوم من مجذاف زوجك لأقع فريسة لسانك؟ ما هذا بعدل أبداً. عذر زوجك أنّه قضى عشرين عاما في السّجن بعيدا عن الدّنيا والنّاس. نسيه الزّمن من مستجداته ، فظلّ يعيش حياة أبيه وجده ، أمّا أنت فقد خلعت ثوبك الأصيل ولبست ثوب المظاهر وتعاليت وأستكبرت فأصبح ذنبك أكبر كثيرا من ذنب زوجك .

أمّا أنت يا فوّاز.. فأنت ولدي الذي لن أستقبله بعد اليوم في بيتي حتى تطمئنّ أمّك وتعرف أنّ الفقر لم يفقدنا عزّة النّفس والكرامة.. وأن تقرّبنا ليس تزلّفاً وإنّما أصالة ومحافظة على العِشرة ".

ثمّ استدار نحو الباب يريد الخروج، فحاول فوّاز أن يستبقيه ويصلح الأمور، إلاّ أن صابرين استدارت وأقفلت باب غرفتها على نفسها . ورفض عمران البقاء، لكنّ فوّاز صاحبه وأوصله بسيّارته إلى بيته. حاول فواز كالعادة أن يدخل البيت ويكمل الحديث مع عمه ، إلا أن عمران استوقفه:

– " منذ اليوم حدّك هنا يا فوّاز ، أنا لا أريد أن أوقع بينك وبين أمّك ، ولا أريد أن تنتشر قصتك أنت وزهرة في المخيم.

أنت تعرف أنّنا بيت مستور يا ولدي، ولسنا وجه فضائح".

كان حديث عمران لفوّاز صدمة كبيرة لم يحتملها تاريخ حياته في هذا البيت ، ولا ماضيه مع رنّاد وزهرة :

- " تمنعني من دخول بيتك يا عمي عمران ، كيف ؟ عشت فيه أكثر مما عشت في بيتي، رعتني فيه خالتي لبيبة أكثر مما رعتني أمي، فيه ذكريات طفولتي.. نمت فيه طفلاً ولهوت فيه يافعاً مع رنّاد وزهرة ، وعشت طول عمري أحلم بأن أبنيه قصراً نعيش فيه أنا وزهرة في ظلكما أنت والخالة لبيبة.

إنّ لي في هذا البيت حقا مثل رنّاد وزهرة ، فأنا ابنه البار الذي يحبّه ويتمنّى له الخير .

قال عمران :

– لملم ذكرياتك يا ولدي وارحل عنّا ، فأنا لا أريد أن نصبح أنا وأبوك الأخوة الأعداء. لقد أهانني اليوم، واحتملت احتراما لتاريخنا وصداقة عمرنا. أمّا أمّك، فقد طعنتني وجرحتني، فكيف ينجح زواج دون رضى الأم والأب!؟ ".

– " لا تظلم أبي يا عم عمران ، فهو الّذي يحلم دوما بأن يُقوّي رباط المحبّة بالمصاهرة. أنت تعلم أكثر منا أن حالة القلق النفسي التي طرأت على أبي نحن لا نفهمها؟ أتتخلّى عنّا في مثل هذه الظّروف يا عمّي عمران وأنت الأب والأخ والصديق ، هل يعقل هذا؟ أكاد لا أصدق نفسي"؟!!

قال عمران يحدّث نفسه بصوت مرتفع:

– " فوّاز ابن صابرين يتزوّج من ابنة المخيّم زهرة ؟ لا يا ولدي. سنصبح غداً حدّوتة النّاس التي تلوكها الألسن تؤلّف عليها القصص والحكايات".

– " تخاف ألسنة النّاس ولا تخاف عليّ وأنا ولدك الّذي ربّيته كما ربّيت رنّاد"؟

ما عهدتك هكذا يا عمي عمران؟

– " صدّقني أنّني أحبّك يا فوّاز، ولك معزّة ولدي رنّاد، وأتمنّاك عريساً لابنتي زهرة. ولكن الأمر ليس سهلاً . أمّك لن تضع لسانها في فمها . وأبوك فيه شراسة المقاتلين ، يهدّد ويتوعّد ويضرب . سيقول الناس غداً أن آل عمران خطفوا فوّازاً من أمه . هذا كثير يا فوّاز..كثير .. كثير".

قال فوّاز بصوت كسير:

- " تحمّلني ذنب أمّي يا عمي عمران! هي طردتك وأنت تطردني. إذا كنت ستأخذني بجريرة أبي وأمي، فما ذنب زهرة ؟ هذا ظلم توقعونه علينا يا كبارنا. تتحكّمون في مصيرنا، وترسمون مستقبلنا، وتعطون لأنفسكم حقّا حلّله الله لنا، فمن حقّنا أن نختار لأنفسنا".

- " أنت تتحدّث بلغة لا يفهمها جيلنا يا ولدي، ولا مجتمع مخيّمنا. إذا كنت حقاً ابن هذا البيت، فلا تجلب لنا العار".

- " أوجد لي حلاّ يا عمي".

- " الحلّ في بيتكم يا ولدي.. تحدّث مع أمك وأبيك".

- " أنت تعرف أمّي، لا تقنع ولا تلين.. أمّا أبي فهو في حالة لا ترضى.. وها أنت عمّي اليوم تتخلّى عنّي. لمن ألتجيء، وليس لي أهل غيركم في هذه الغربة؟"

- " لا تستدرّ عطفي يا فوّاز، العقل وحده هو حلاّل مثل هذه المشاكل، والعواطف لا تجدي".

ذهب فواز يحمل قلبه الكسير بين جنبيه، يلوم أمه، ويستغرب فعلة أبيه.. دخلت الغربة قلبه. كيف تكون دنيا دون زهرة؟ سيعيش هذه الدّنيا غريبا وحيدا. كيف ينسى بيت عمران وفيه أجمل ذكريات عمر، : فيه طفولته وهو يحبو. فيه مراهقته وهو يحلم. فيه شبابه والخارطة التي رسم عليها مستقبل عمر. إنّ ما يطلبه عمران فوق طاقته.

ثم أخذ يحادث نفسه وهو يقود سيارته بصوت الغضب، وهو يضرب مقود السّيّارة بكف يده: إذا كان السّياف يعدم بسيفه، فهذا الرجل يعدمني بكلمة خرجت من بين صخور قلبه. سأهرب أنا وزهرة بعيدا عن عالم هذه القلوب الضالة المتحجرة. ترى هل تطاوعني زهرة؟ اذا طاوعتني جلبت العار لأهلها، وإذا رفضت قتلت في قلبينا حباً حلالاً لا حقّ لها في قتله. إن حجم حبنا إذا مات أكبر كثيرا من أن يسعه قبر. إنه بحجم الدنيا، فارأف بنا يا رب.

سار بسيّارته يجوب شوارع بيروت حتى تأخر الليل ودخل على أمه يلومها، فتصدت له بقاسي الكلام:

- " إنّ آل عمران حثالة.. رجل يتزّلف دون كرامة.. يعرض ابنته للزّواج دون خجل أو حياء. الطّمع والحسد ظاهران في عينيه. كلّما دخل المخيطة تجوب عيناه في انحائها يسأل ويسأل (كم ثمن هذا؟ كم ربح هذا؟ وكم عاملة في مشغل الخياطة؟) ".

- " اتقي الله يا أمي، فالرجل رفض أن يأخذ أجر ابنته وهو في أشدّ الحاجة إلى رغيف الخبز".

- " إنهّا سياسة الكهّان والعجائز الأشرار، ينصبون الشّباك بخبرة عنكبوت عجوز لا تفلت منه فريسة".

– " إنّك تظلمين الرجل يا أمي، هل ننسى أنه رهن مركبه، رزقه ورزق عياله من أجل أن ييسّر لنا سبل العيش"؟

قالت باستخفاف:

– " لا تكن جاهلا يا ولدي.. لقد رهن مركبه من أجل أن يتخلّص من مسؤوليّاتنا، فقد وضعنا أبوك أمانة في عنقه كما وضع زوجته وأولاده أثناء غيابه أمانة في عنق أبيك، وكان أبوك سبّاقا في المعروف ، فأصبح عليه دين يجب أن يردّه.

أعمى حبّ زهرة قلبك.. وغشى على عينيك، فأصبحت ترى أنّ كل ما يفعله آل عمران صواباً ، وأن لهم فضلا علينا . والحقيقة معكوسة تماما ، فنحن أصحاب الفضل الذين كنا سبّاقين بالمعروف: آويناهم وقسمنا الرزق بيننا وبينهم. أنا من علّم زهرة الخياطة، وكنت سبب شهرتها وبحبوحة العيش الذي تعيش فيه هي وأهلها، فأيّ جميل لهم علينا بعد هذا؟ إلى متى ستظل على هذه الحال، تعتقد أننا على خطأ وهم على صواب، يجب أن تتحرّر من الماضي، والجديد اليوم هو في معاشرة من هم في مستواك الاجتماعي والمادي".

- " لماذا يا أمّي كل هذا الإنكار، فقد كان لنا دوما في قلب خالتي لبيبه محبة وعطف وحنان، وكانت لك أختا ساعدتك في الأيّام الصّعاب. كنت أنت تخيطين الثياب لأهل المخيم، وكانت هي الراعية لنا أنا وابنها زياد وابنتها زهرة، ولم أشعر يوما أنها تفرّق بيننا".

استفزّتها كلمات ابنها فصرخت به:

– " إذا كنت ترى فيها أمّا لماذا أنت هنا!؟ هيّا اذهب إليها وانهل من عطفها وحنانها".

– كيف أتفاهم معك ..؟؟ كيف أنال رضاك؟!! لست أدري؟! تريدينني أن أنكر أن عمّي عمران كان لنا بمثابة الأب، وخالتي لبيبة بمثابة الأم".

صرخت في وجهه توبّخه:

– " أبَعْدَ الذي حدّثتك به تدّعي أن لهم فضلا علينا؟!

قلت لك أنّهم سبب مصائبنا.. هم الّذين حرموني من أبيك، وهم الّذين حمّلوني مصائب الدّنيا وحدي".

– " إذا كنت آسفة على غياب أبي، لماذا لم تحافظي عليه بعد عودته"؟

– " لأنّه عاد كما كان.. لم يتغيّر.. لم يتطوّر".

– " لقد عرفتيه هكذا، وكنت قانعة به.. ترى.. ما الذي غيّرك إذا عاد بنفس أخلاقه وطباعه؟"

انفجرت تصرخ في وجهه:

- " تريدني أن أعيش مع طربوش وسروال وسلّة الأسماك، وقد أصبح مجتمعنا مجتمع الوجهاء والوزراء والأمراء؟ كيف؟"

- " ما دام قد خيّرك بينه وبين المال، لماذا اخترت المال"؟

- " تريدني أن أرجع إلى المخيم وقلق البحر وزحمة الأسماك؟ ألا يكفيني أنك أنت صياد؟ "

- " ولكنك كنت سعيدة بحياتك البسيطة".

- " لقد أوسع الله علينا بالرّزق يا ولدي، لماذا لا نعيش ونتنعّم؟"

- " كان يجب عليك أن تصبري عليه قليلا، وتعطيه اهتماماً وحباً يعوّضانه غياب عشرين عاما".

- " لا وقت لديّ. التزاماتي كبيرة، ومسؤوليّاتي أكبر.. عرضت عليه أن نبدأ العمل في مشاريع مريحة، ولكنّه فضّل مركبه المهترىء والبحر على حياة المال والتجارة".

- " لكلّ إنسان هواية وميول وأسلوب في الحياة، فأنا مثلا أحلم بأن يكون عندي أسطول صيد كبير، ومصانع تعليب أسماك بجميع أنواعه. إنّه حلم عمري، ولو عملت في أي مشروع آخر غير، فلن أنجح، وكذلك أبي، فقد حدّثني عن حلمه كثيراً".

- " لا وقت عندي أضيعه في مثل هذا الحديث غير المجدي. أنت تضيع وقتي وتسبّب لي مشاكل مع زبائني الذين التزمت أن أسلمهم بضاعتهم غداً. مختصر الحديث: زواجك من زهرة على جثتي. عليك أن تختار الفتاة التي هي في مستواك، ذات حسب ومركز ومكانة، تشدّك إلى أعلى، حيث المال والشّهرة، وليست ابنة صياد تشدك إلى أسفل حيث الفقر والفاقة".

قال يسترضيها:

- " أمي، يعزّ عليّ غضبك.. أرجوك ألا تجبريني على الخروج عن طاعتك. أنا شاب أدمنت حب زهرة.. الدّنيا كلّها في عيني زهرة، ولا أطيق العيش دونها. لا تكسري قلبي وتسوّدي عيشي وتقفي عثرة في طريق سعادتي".

قالت باستخفاف:

- " المثل يقول : (صدمة تفوت ولا حدّ يموت).. أيّام قليلة تفوت وبعدها تنساها. ذلك أفضل من أن تعيش مع الفقر والتخلّف مدى عمرك".

قال معترضا:

- " إنّ بيت عمّي عمران فقير، ولكنهم ليسوا متخلّفين".

قالت وقد طفح بها الكيل:

- " والله أنك أنت المتخلف الذي يرمي نفسه في النار ولا يعرف صالح نفسه".

ثم تثاءبت وأكملت حديثها:

- " أضعت وقتي حتى دخل النعاس إلى عيوني.. تصبح على خير".

وذهبت إلى فراشها تشعل ناراً في صدر، فقال متكدّراً:

- " اذهبي أنت ونامي.. أما أنا فسأخرج لأروّح عن نفسي.. فالنّوم يجافيني".

- " تخرج الآن.. الليل تأخّر؟!!"

- " أخاف أن تنفرط بي دوّامات الأفكار، أدور في فلكها كنجم تائه في سمائه ضلّ عن مسار، وابتعد عن مجاله".

- " النّجم المتمسّك بمجاله لا يتوه، والفرط المتمسك بأسرته لا يضلّ أبداً يا ولدي".

- " أنت مخطئة يا أمي، فالنّواة التي يدور حولها قلبي هي زهرة، ولا أملك القوة التي تستطيع أن تبعدني عنها".

قالت غاضبة:

- "اذهب إلى الجحيم أنت وحبك الغبي".

وأخذتها موجة بكاء ترعشها وتقول:

- " كتب الله عليّ أن أناضل وحدي..كأنّه لا زوج لي ولا ولد".

- " لقد أعطاك الله من فضله ما يزيد ويكفي.. فالتفتي إلينا ولبيتك يا أمي حتى نعيش أسرة كباقي الأسر ، نتحدّث في شؤونها ومصالحها بعيداً عن حديث المال والليرة والدولار والعمل والمشاريع وصوت ماكنات الخياطة.. نحن نحتاج إلى حضن البيت ومحبّته.. إنّنا نفتقدك.. تهتِ وتهنا معك.. بدّلت أمان الأسرة بالمال، فحلّت الفرقة.. ودخل الشيطان وبات كل منّا لا يسأل إلاّ عن نفسه".

أخذت تكفكف دمعها بكف يدها:

- " إن كنت لا تريد أن تشكر فلا تذمّ.. أنا التي كان عطائي من صحتي ونور عيني. كافحت وجاهدت وناضلت من أجل أن أوفّر لكما الرّاحة ورغد العيش. لا استحقّ منكما هذه المعاملة وهذا الجحود.. سامحكما الله، وعوّضني عن تعبي لكما خيراً".

حملت دموعها . وذهبت إلى فراشها .

أما فواز .. فقد استقلّ سيارته وذهب إلى حانة الشاطيء .. حيث اجتمع مع أصدقائه الصيادين.. وعبّ من العرق حتى دار رأسه.. وقاد سيارته تتأرجح حتى وصل بيت آل عمران.. فنزل من سيارته ووقف أمام البيت يصرخ:

- " يا عمران.. يا عمران.. لا حق لك أن تمنعني من دخول هذا البيت. أنا لي فيه مثل رنّاد وزهرة. إنّ لي في هذا البيت مأكلاً ومشرباً وصدر حنان رعاني طفلا فكبرت على حبّه كما كبرت زهرة ورنّاد ، فاذا كنت قد هنت عليك ، فخالتي لبيبة هي أمّي وأنا ولدها الوفيّ.

اخرج وحادثني يا عمّي عمران وإلا سأنتحر أمام بيتك، فتحمّل ضمائركم جميعاً إثم فعلتي.. ويبقى دمي أسطورة يردّدها النّاس عن بيت آل عمران الذي تنكّر للعشرة ولم يكن وفيّاً".

خرجت زهرة بلباس النوم وأرجل الخوف ترتجف تحتها، وأمسكت بالمسدّس الّذي في يد فوّاز.. يقطّع حديثها الخوف:

- " أيّها المجنون، ماذا تفعل؟ اقتلني أوّلاً ".

خرج رنّاد وقد أنساه الغضب نفسه، وتشكّلت على فمه رغوة زبد حاقد، فأمسك به أبوه يكمّم فمه وهو يصرخ:

- " سأقتلهما معاً قبل أن يتسبّبا لنا بفضيحة.. ونصبح حدوثة العشق والغرام في المخيّم".

وقفت لبيبة أمام فوّاز تحميه وتقول: لا تفجعني به يا ولدي.. لقد ربّاه الحضن الّذي ربّاك يا رنّاد أنت وزهرة.. إن لي عليه أتعاباً.. وله في القلب محبة، وفي الرّوح مودّة.. كان خير ولد بار.

ودفعه عمران منفعلاً يبعده عن فوّاز:

- " أنا موجود، فليس لك أن تتدخّل وتجلب لنا الفضائح.. فوّاز شريف بريء.. دخل البيت من بابه.. وله في قلبي مثل محبّتك ومحبة زهرة".

ثم أمسكت لبيبة بيد فوّاز وقالت:

- " ادخل يا فوّاز.. تفضّل".

ولكنّ فوّاز كان ينظر إلى عمران يستعطفه.

قالت لبيبة:

- " إئذن له يا عمران.. لقد حمّله الزّمان شقاء أكبر كثيراً من عمره، فإن لم نكن نحن عوناً له وقد قست عليه أمّه وابتعد عنه أبوه، فمن يكون"؟

حضنه عمران:

- " ادخل يا ولدي، والله إيّانا وإيّاك مظلومون".

تحدّث فوّاز مع زهرة، وتحدّث مع لبيبة وعمران. كان حديث سكارى كلّه هذيان، ثم ذهب إلى حيث تجلس لبيبة وبكى بين يديها. وخفت صوته قليلا قليلا حتى أنّه لم يعد يُفسّر الكلام، ونام كما ينام الأطفال. مرّت بيدها على شعره بحنان:

– " نم يا فوّاز نم.. فكم من ليلة نمت فيها على حجري وأنت طفل كسير القلب.. الأم في عملها، والأب لا خبر منه ولا عنه، ولا يعرف أحد إذا كان ميّتاً او حيّاً".

نام فوّاز والهموم تعصر دموعه حتى ملأت وجهه وفاضت على صدره . لم يمض ساعة حتى دخلت صابرين تقتحم المنزل، وتهدر كموج البحر.

– " سمعت عن عصابات خطف الأطفال، ولكنّني لم أسمع أبداً عن عصابات خطف الشّبان. أين ابني؟ انهض يا ولد.. تستبدل بالأم الجارية.. خيّبك الله".

وعلا صوتها تهدّد:

– " قسماً عظماً.. إذا لم يذهب ولدي معي الآن إلى البيت.. لأجمع عليكم أهل المخيّم".

تصدّى لها زيّاد غاضبا يطردها.. وأخذ عمران يسترضيها ويهدئها.. ولكنّها لم تستجب.. وزاد علو صوتها.

أمسكت لبيبة ذراعها.. وأخذتها إلى إحدى زوايا البيت وهمست في أذنها بعض كلمات .. فإذا بصابرين تهدأ.. وتخفض صوتها .. وتمسح الغضب عن وجهها.. وتجلس وترخي أذنها للتفاهم والأخذ والعطاء.

وكان قهر الهزيمة والانكسار يركب لهجتها. بعد نقاش وجدل قالت توجّه الحديث إلى لبيبة:

– " إذا كان فواز تعبا كما تقولين، فليقض الليلة عندكم يرتاح وتهدأ نفسه، فليس أحبّ إلى قلبه من النوم في هذا البيت. إنّه بيته ومرتع طفولته وصباه.. أدام الله المعروف وأبقاكم لنا أهلا وسندا".

ثم استأذنت بالذهاب. وما أن غادرت صابرين البيت، حتى هجم الجميع على لبيبة يسألونها:

- " ماذا فعلت حتى هدأ البحر الهائج؟ كانت وهج بركان.. وإذا بها يا نار كوني برداً وسلاما. أيّ كلمات سحر هذه التي همست بها في أذنها؟"

الحّوا وأصرّوا.. تحايلوا عليها.. استحلفوها بالله أن توضّح الأمور.. ولكنّها رفضت قائلة: – " إنّه سرّ بيني وبين صابرين وبين ربي..لا تستحلفوني أكثر.. فلن أبوح به".

(19)

مع الفجر.. نهض زيّاد ليبدأ رحلة الصّيد، فطلب منه أبوه ألا يوقظ فوّازاً، فذهب هو والعريد يلتقطان رزقهما من البحر، وتمنّعت زهرة عن الذّهاب إلى عملها في الصّباح من أجل رعاية فواز والسّهر على راحته.. فنهرها أبوها:

- " ماذا يقول الناس؟ ليس بينكما خطبة ولا عقد زواج. حكاية عشق وغرام؟! تريدين أن تجلبي لنا العار يا زهرة. ليكن معلوماً لديك أن بيتنا بعد اليوم محرّم على فوّاز إلى أن يربط بينكما شرع الله".

قالت زهرة:

- " أنت تعرفني يا أبي وتعرف فوّازاً" .

- نعم يا ابنتي، ولكنّني أعرف الناس أيضاً، وأعرف أخاك زيّاداً، فأنا لا أريد أن يرتكب حماقة نعيش بعدها مع النّدم طول الحياة".

ذهبت زهرة إلى عملها وتركت قلبها عند فواز، وأوصت أمها - سرّاً - أن ترعاه وتحافظ عليه من غلظة أبيها.

أثناء العمل كانت شاردة الفكر مشدودة الأعصاب مشغولة البال.. يشوب كلامها عصبيّة وتوتّر.. فاستأذنت ورجعت إلى البيت باكراً.. وعندما دخلت البيت سألها أبوها، وعيون الشّك تتفحّصها:

- " ما الذي أتى بك باكراً يا زهرة؟"

- " التّعب، التّعب يا أبي، فأنا أشعر بالمرض".

- " التّعب أم وجود فوّاز"؟

ثم صرخ منفعلا مهدّداً:

- " أمّك تكون طالقا بالثّلاثة إذا دخلت البيت قبل خروج فوّاز".

همست أمّها في أذنها أن تتّقي شر غضب أبيها:

- " اذهبي إلى بيت خالتك الآن، وعودي بعد مغادرة فوّاز".

ذهبت زهرة مغلوبة على أمرها، وقد أدمع عينيها كلام أبيها.. الذي لم تعتد منه على مثل هذه القسوة. فوّاز مريض، والشّوق جامح، والقلق عظيم.

استيقظ فواز مع العصر. اعتذر وتأسف خجلاً من نفسه بعد أن حدّثته لبيبة عما بدر منه، فقال:

– " ملعونة تلك الخمرة. لقد هربت إليها كي أنسى، فإذا بها ترميني في المحظور وعظائم الأمور . أنا لست سكيراً يا عمّي عمران. أنا لست سكيرا يا خالتي لبيبة. أنتما تعرفان ذلك جيدا. إنها أول مرة يتعرّف عليها فمي. كنت في حالة أبحث فيها عن عقلي.

أبي هرب.. أمّي استبدّت وافترت.. وهذا البيت تخلّى عني.. ماذا بقي لي في هذه الدّنيا؟ لا شيء أفضل من النسيان. وقد أخبروني أن زجاجة الخمر متعة وسلوان، تأخذ منك الهمّ، وترفع عنك الحزن، وتعطيك الجرأة في الكلام. وجئت إليكم أظنّ أنّني قد عدت بعقلي، فأردت أن أتحدث بلسان الحكماء، وإذا بي أعود مع الأخطاء. ترى، إذا اعتذر الولد، هل يغفر الوالد"؟

قال عمران:

– " أنت ولدي.. والولد البار لا يجلب لأهله العار.. وأنت تعرف بعض ألسنة الجيران. إنّها مليئة بالنميمة والآثام . فلا تدع هذه الألسن تلوث سمعة زهرة، وتذلّ الأسرة. ابحث عن الصواب نكن لك أنا ولبيبة خير أب وأم".

تدخلت لبيبة في الحديث:

– " وعد منّي أن تكون زهرة لك وليس لأحد غيرك".

قال ملتاعاً:

– " وأمّي؟"

قالت:

– " لا تنكر فضل أمّك عليك. إنّها من المجاهدات المكافحات اللواتي عملن بجهد وحكمة وذكاء.. حتى تمكّنت أن توفّر لك حياة هنيئة رغدة فيها الأمان والرّفاهية. عليك أن تأخذها بالمحبة والطّاعة ، ومع الزمن قلب الأمّ يرقّ ويلين".

– " أرشديني يا خالة. لقد رعيتني صغيراً، فلا تنظري إليّ كبيرا. إنّ الحيرة تملأ قلبي، والمشاكل تشل عقلي، وأشعر أن حسن التصرف ضاع منّي. أمسكي بيدي، فأنا أشعر أنني ما زلت طفلاً صغيراً ".

– " اذهب إلى بيتك.. واطلب رضاء أمّك، فالأمّ يصعب عليها أن يبيت وحيدها في حضن بيت غير بيتها. والمثل يقول (تبات نار تصبح رماد). والزّمان حلاّل المشاكل. أريدك أن تطمئن ما دمت أنا إلى جانبك، فزهرة لك شاؤوا أم أبوا ".

– "هل أعتبر هذا وعداً يا خالة"؟

– " وعد أقطعه على نفسي، لا رجعة فيه".

ثم استدار إلى عمران يسأله:

- " هل تعذني يا عمي عمران "؟

- " ليس عندي ما أعتمد عليه حتى أعدك يا ولدي.. فالأمر متروك لك ولأبيك وأمك ".

نظر بعيون الشّكّ إلى لبيبة، فقالت تطمئنه:

- " اذهب إلى أمك الآن وتوكل على الله.. النّساء يفهمن بعضهن يا فوّاز".

جال فوّاز بنظره في أرجاء البيت .. سأل:

- " أين زهرة "؟

قال عمران:

- " زهرة منذ اليوم محرّم عليك رؤيتها إلا وأنت تضع يدك في يدها أمام المأذون. لقد شرحت لك الأسباب، فزن الأمور بميزان العقل".

- " حكم قاس يا عمي.. القلب عاشق.. كيف أصبر"؟

- " عذاب العشق أرحم من نار الفضيحة والعار يا ولدي".

(20)

في المساء.. ذهب فواز إلى أمه، فقالت تتقرّب بلسان المحبّة والحنان:

– " ولدي فوّاز. أرى أن العشق والغرام قد أخذاك من البحث عن أبيك، فأيّ خطأ ترتكب، وأيّ عار تجلبه لنفسك"؟

قال ملتاعاً يلزم أمّه:

– " قطعت سكّينك وريد الصّلح والغفران عند أبي. أشيري عليّ، ماذا أفعل؟ وقد أخذني بجريرة ذنبك"؟

– " أما زلت مصراً على أنني أنا المخطئة يا فواز"؟

– " جاءك بالسّمك يا أمّي وقد اشتهته نفسه، وأنت زوجته. لماذا لم تُطيعيه"؟

قالت بلوعة المظلوم:

– " لقد جاء أبوك يقدم السمك بيد ، وكانت الأخرى تحمل سوطاً".

– " لو أخذت سلّة الأسماك يا أمي من اليد المسالمة، لما امتدت إليك اليد الّتي تحمل السّوط ".

قالت وفي صوتها ملامة:

– " حتى أنت يا فواز، ما كان العشم".

كشفت عن صدرها بغضب، فظهر حزّ ضربة سوط له لون النار يلهبها:

– " ما ظننت أنّك ترضى للصّدر الذي ربّاك على المحبّة والحنان الذّل والهوان. كان أبوك ظالماً مفترياً.. ألم يغفر لي عندكما كفاحي وعطائي وصبري ومرارة أيّامي؟

قال متألماً لمنظر جرح أمه:

– " قسوة كلامك هي التي استفزّت السّوط في يد أبي".

صرخت في وجهه: لا تصدّق هذا.. إنّه افتراء وكذب.. لم يأتِ أبوك بالكرباج عفواً.. كان مبيّتاً النيّة على إيذائي، وإلا فما معنى أن يشتري سوطاً في هذه الأيّام. لقد مشى الزّمن، وخلّف أباك في زوايا الماضي، وما عاد يستوعب أن زمن السّادة والعبيد قد ولّى".

همّ فواز بالدّفاع عن أبيه، إلا أنّها زجرته وقالت:

- " لا فرق بينك وبين أبيك.. لا فرق بين رجل ورجل.. هيّا يا ولدي نبحث عن أبيك.. ماذا يقول النّاس غداً؟

- " وما الفائدة يا أمي؟ إذا عاد، هل تقبلين العيش مع الطّربوش والسّروال"؟

هزّت رأسها إشارة القبول:

- " أعيش مع الطّربوش.. مع السّروال.. وحتّى السّوط. فالبيت دون رجل كالأرض دون شمس.. لا دفء ولا حياة فيها".

بحلق عينيه وفتح أذنيه لا يصدق ما يسمع، ثم ضحك:

- " قبل بضعة أيّام سمعنا أنا وأبي أن إحدى صديقاتك تضحك وتقول: (البيت دون رجل كالمعصرة دون بغل)".

- إنها امرأة الوزير يا ولدي.. قبّحها الله.. انها غير سوية.. ناقصة.

قال يستغرب حديث أمه:

- " سبحان المغيّر الذي لا يتغيّر.. ما الّذي غيّرك بهذه السرعة من الأمس إلى اليوم"؟

- " غلبني الزّمن يا ولدي، فما عدت أستطيع أن أجابه الدّنيا وحدي. ثم أنني سمعت من خالتك لبيبة حكمة رنّت لي عقلي وأعادتني إلى صوابي".

- " متى"؟

- " هذه الليلة".

- " نمت الليلة عند خالتي لبيبة فلم أرك".

- "كنت نائماً".

- " ما هذه الحكمة.. أعيديها على مسامعي.. قد تنفعني".

- " إنّها سرّ بيني وبين لبيبة.. وعد قطعناه على أنفسنا ألاّ نبوح به".

امتلأ قلب فوّاز بالأمل، وأخذ يحادث نفسه فرحاً:

- " قرّب الفرج من عند الله. كريم أنت يا رب.. الليلة يعود أبي إلى البيت، وقد ساد التّفاهم بينه وبين أمي، ونتفرّغ لحل مشكلتي، خاصة وأن أبي يحب عمّي عمران وزهرة. وأنا واثق من أنّ هذا الخصام الذي بينهما ما هو سوى نزوة عابرة.. فقّاعة صابون تزول وتنتهي عندما يتقابلان، فتاريخهما معا أقوى من وسوسة الشّيطان".

(21)

مع الغروب .. ذهب فوّاز وأمّه إلى الشّاطىء ينتظران عودة أبيه من الصّيد. وما أن عاد نمر العبد من الصيد ووصل إلى الشاطىء ورأى زوجته وابنه حتى عاد راكضا إلى المركب وأبحر إلى عمق البحر، تبتلعه عتمة غروب شفّافة.. تتكاثف رويداً رويداً حتى اختفى كليا. والزوجة تنادي.. والابن ينادي ، والبحر يبتلع صوتهما بين موجاته، والزّوج هارب يدفع المركب بقوّة ريح عاتية تكاد تمزق الشّراع كما تمزق الجراح نفسه، يود لو أن يصل الشاطىء الآخر حتى يكون البحر بينه وبين زوجته وابنه.

عاد فواز وأمه إلى البيت مقهورَين حزينَين.. قال فواز:

- " كان سكّينك يا أمي ماضياً".

- " وكان سوط أبيك قاسياً.. دعنا من الملامة.. ماذا نفعل"؟

- " غداً أنادي عليه وسط البحر، علّ ندائي ينفذ إلى قلبه".

قالت تهزّ رأسها حسرة:

- " عجيبة هذه الدنيا.. البريء يطلب الصفح من المذنب!

أليس هذا خللا في تركيبة المجتمع"؟

- " الخلل أن ندع البيت ينهار ويصبح أطلالاً".

- " أعد بناءه يا ولدي".

- " تريدينني أن أبني بيتا دون أساس..؟!! كيف؟ إذا كان الأساس أبي وأنت التي طردته!!"

-" هو الذي هرب من مسؤولياته، وفرّ كما الجبان، متخذاً من الرجولة والكرامة عذراً. أنا أعرف أن الرّجل لا يهرب من معركة تهدد أمن بيته.

أرجوك يا فواز، كفّ عن لومي، ودع همّي في قلبي، فالزّمن حمّلني من الهموم ما انهزم منه الرّجال، وصمدت وحدي، وهذا أبوك أكبر مثال".

(22)

في صباح اليوم التّالي، تعمّد فوّاز أن يتلاقى مع أبيه في عرض البحر، فاقترب منه يرجوه أن يستمع إليه ، ولكنّ الأب غضب وزمجر وأرغى وأزبد ، ورفع مجذافه يضرب به مركب زنّاد ويصيح:

- " ابتعدوا عنّي".

وأخذ يوجّه الحديث لرفيقَي ابنه زنّاد والعريد:

- " هذا ولدٌ عاق.. اتّفق مع أمه على طردي وتشريدي".

كان هياجه مخيفا جعل زنّاد والعريد يهربان بالمركب بعيدا، وفوّاز يقف مشدوها في وسط المركب لا يصدّق ما ترى عيناه وما تسمع أذناه.

أخذ يحادث نفسه: أيّ وحش هائج أبي يريد أن يحطم المركب ويغرق من فيه. كلّ هذا غضب؟ لا أصدق؟ إذا كانت الرّجولة المجروحة تأخذ من الإنسان عقله، وتجعل منه وحشاً، فبئس الرجولة والرجال الذين هم على هذه الشّاكلة. أنا أعرف أن الرجولة عقل وحكمة وصبر وتضحية.

أيّ مفهوم خاطيء للرّجولة كان يعشعش في عقول هؤلاء الرّجال. امرأة تدافع عن نفسها وابن يخلص من أبيه سوطاً كان سيرتكب به جريمة قتل. أين الخطأ؟ ومن المخطيء؟ رجل يضرب امرأة ويقتل شاربه طرباً على صوت صراخها وهو يتلمظ والسّوط يلهب لحمها، وتطير رائحة شوائها عذاباً ينعش شذونه، وأكون أنا المذنب؟ أيّ ظلم هذا؟ هل كان يريدني أن أراه يمارس جريمة القتل، بينما أقف مكتوف اليدين أباركه؟ هذا جنون. كيف أتفاهم مع مجنون؟ وعمّي عمران يريدني أن آخذ هذا الرجل ليطلب لي زهرة عروساً. والله إنّ نجوم السّماء أقرب من تحقيق هذا الطّلب.

ترك فوّاز الشّباك لزنّاد والعريد، واستأذن يلتجيء إلى إحدى زوايا المركب وترك أفكار، تسرح، فهي كثيرة، عدد موج البحر، يرفعه فيرى الفرج قريباً، ويهبط به فيتشاءم ويرى أن زواجه من زهرة مع هذا الأب وتلك الأم مستحيل. ماذا يفعل؟ يأخذ زهرة ويهرب؟ يخون بيتا ترعرع فيه وتربّى في حضن أهله؟ لا.. الموت أسهل. إذن ماذا يفعل؟

أخذ يحادث نفسه: (ما دام أبي بمثل هذا الجنون، سأتدبّر الأمر مع أمي، فقد رأيت الليلة في حديثها لينا).

استقرّ فوّاز على هذا الرأي، ووجد فيه راحته.

في المساء ذهب إلى أمه يحدّثها عن فعلة أبيه.. فحمدت الله على سلامة ابنها.. وقالت:

– " لا بد أن الله يهديه.. لن تطول هذه الحالة معه.. سيعود إلى عمّك عمران فهو صديق عمر، . الإنسان لا يستطيع أن يعيش وحيدا مدى عمر".

مضى أسبوع وفوّاز على هذا الحال، إلى أن فوجيء ذات مساء وهو راجع إلى بيته بزهرة أمام البيت، فاستغرب وجودها، وتاه حديثه بين الشوق والاستغراب:

– " ماذا هناك يا زهرة؟ الشّوق يرحّب بك بعد طول غياب، والخوف يسألني أن أستفسر.. عسى أن لا يكون وراء هذه المفاجأة شرّ.. هيّا تكلمي"؟

قالت والخوف يجول بعينيها في جميع الجهات تتأكد أن أحداً لا يراها:

– " فوّاز.. جاء ابن خالتي يخطبني، ويصرّ زنّاد أن يزوّجني له، ولكنّ أمّي رفضت وسألت أبي التروّي، فكان ردّ أبي أن نصبر قليلا.. وقال أنه أعطاك وعداً، وأنّه سيمهلك قليلاً، وبعدها يكون في حلّ من وعده، وبذلك لا تقع عليه ملامة. ولكن زنّاد أصرّ وقال إنه لا رجاء منك ولا أمل، وبأن إبن خالتي شاب حسن السّمعة وميسور الحال، ذو مكانة ومركز، وقال انه أحقّ بي منك.. فأنا من دمه ولحمه.

أما أمّي فقالت: فوّاز أحق الناس بها، فهو الولد البار الذي لم يحمله بطني، وهو الأخ المخلص الذي أحبك يا زنّاد.. إن فوّاز ابن هذا البيت يا ولدي.. يحب زهرة وزهرة تحبه.

قال أخي يستغرب قول أمي: أنت تتكلمين كسيّدات المدن، وتنسين أنك تعيشين في مخيم له عاداته وتقاليده.

فأجابت أمي: ليس فيما قلت عيب أو حرام.. لا تكسر قلب أختك وتقف ضد الشّرع والدّين وتجبرها على ما تكره.

فقال أخي : ما قصدت أن أغضبك يا أمي ، ولكنني أخاف أن تتطور الأمور بين فوّاز وزهرة إلى ما يسيء إلى سمعتنا.

أجابت أمي بكل ثقة: فوّاز رجل ثقة.. وأختك عاقلة.

– الحب أعمى يا أمّي.

– هذا عند الجهلة وعديمي الأخلاق يا ولدي.

وهكذا انتهى الحوار بين أمي وأخي زنّاد.. لا أدري ماذا أفعل؟

أجاب فوّاز وقد دخل الخوف قلبه:

– " حسنا.. قابليني عند الصّخرة الكبيرة قرب الشّاطىء المهجور".

- " أخشى يا فواز أن يكون هذا اللقاء بداية الخطأ، فتعلق أرجلنا به، ولا نعرف طريق العودة".
- " ليس فواز من يخطىء".

أنهت كلماتها بسرعة وذهبت خائفة وجلة تتلفّت حولها . حاول فوّاز أن يستبقيها قليلا، ولكنها رفضت.

- أخاف أن يراني أحد من معارف أخي زيّاد فلا يحصل خير.

عادت زهرة إلى البيت تلهث، وكان التّعب قد أخذ منها كل مأخذ، فالوقت تأخّر.

سألتها أمّها:

- " أين كنت يا زهرة"؟
- " تأخرنا في العمل يا أمّي".

وكانت هذه أول كذبة تقلق ضميرها، فما اعتادت مثل هذا الأسلوب مع أمّها.

(23)

دخل فوّاز على أمّه مضطرباً واضح القلق عصّبي المزاج:

- " أمي.. لقد رأيت في حديثك الأخير لينا عن آل عمران.. عسى أن يكون الله قد هداك وفكرت أن تخطبي لي زهرة".

- " نجوم السماء لك أقرب. أنا احترم آل عمران، ولكن لا أفكّر أن أصاهرهم".

- " لماذا "؟

- " لأنهّم ليسوا من مستوانا: لا مركز ولا جاه ولا مال".

- " عيناك تنظران الى المال يا أمي، ونسيت باقي القيم"!

- " ما هي؟ أسمعني .. عرّفني بها".

- " الأخلاق.. الوفاء.. الطّهر.. الضّمير.. علاقة الإنسان بالإنسان".

- " عندما كنا فقراء، وليس عندنا ما نشتري به رغيف الخبز، لم تقدّم لي الأخلاق ولا القيم ولا العلاقات الإنسانية ما يسكت جوع معدتك .. ولا نزف دموعك وأنت طفل لا يفقه قلة ما باليد. آه يا ولدي.. آه وألف آه.. لو كان معنا ثمن الدواء.. هل مات أخوك عوّاد..؟؟ أرجوك يا فوّاز لا تفتح الجراح".

- " كان امتحاناً من الله ، فجودي واكرمي وفوزي بالحسنة وتقرّبي من الأحباء وانتصري للقيم والأخلاق، فلن ينساك الله أبداً".

قالت تستغرب قوله:

- " من أين أتيت الآن"؟

-" من البحر رأسا إلى البيت".

- " لا أصدق.. لا أصدق.. لا بد أنك آت من الجامع.. فكلامك كلام وعّاظ وشيوخ. أبوك أتاني بالسّروال والطّربوش وستأتيني أنت غداً بالعمامة وضيوفي وعملائي وزبائني بالميني جوب . فكيف أجمع بينكم؟ ويلي من التخلّف والجهل، ويلي".

قال مستغرباً:

- " بالأمس قلت أنك تقبلين بالطّربوش والسّروال، وحتّى بالسّوط، وأن كلام خالتي لبيبة فيه حكمة رنتك إلى صوابك.. ماذا جرى؟ فالفرق بين اليوم وأمس ليس بعيداً"؟

- " الزّمن ثابت: سنة.. شهر.. يوم.. وساعة.. أمّا العقل وتدبير الأمور فهي أفكار تأتي وتروح حسب المصلحة في كل ساعة يا ولدي".

- " هذه أنانيّة.. فيها جميع الصّفات المادية. إذا كان أبي رجعيّاً. فهذه هي الأفكار الّتي هتكت ستر الإنسانيه وجعلت منك امرأة نرجسيّة".

- " اخرس قطع الله لسانك الّذي يطول على أمك".

- " تريدينني أن أخرس وأنت السّكّين الذي قطع حبل الرحمة والمودة والحنان الذي يربط الولد بأمّه؟ ألم تلدك أم؟ أما كانت تهمس في أذنك بكلام المحبة والدّلال، والحليب ينساب من صدر الحنان؟ لم التّعذيب والحرمان؟ أنا ولدك".

قالت وفي لهجتها سخرية:

- " أما كبرت بعد على الرّضاعة؟!!"

- بلى، ولكنّني كلّما تقدّم بي السن أحنّ وأشتاق وأبحث في ثنايا النفس فأجدها فارغة من عطايا الأمّ.

- " إنّك أشبه بأبيك.. تأكل وتنكر كالقطط. كفى حديثا عن الحب والغرام.. هيّا اذهب كرجل مسؤول وارجع بأبيك، وارفع عن نفسك الملامة والعار".

- " أنت لا تريدين أبي زوجا ورب بيت. أنت تريدين رجلا تتحكّمين به. والرّجل الذي بيده السوط لا يمكن أن يصبح عبداً. أخشى ما أخشاه إن عاد أبي ولم أكن في البيت أن يكون الجلد في هذه المرّة أكبر من أن يتحمله جسدك".

- " هو زوجي، وأنا أعلم الناس به".

- " لو كنت تعرفينه حقاً ما كنت تركته يفرّ من بين يديك".

- " هذا ما ليس لك شأن به".

- " إنّك تدفعينني إلى حتفي، فالرّجل كرهني لشدّة كرهه لك . لقد حاول اليوم أن يقتلنا جميعاً . كان يودّ أن يقلب المركب بنا ".

- " إذن اجلس هنا مع الفتيات العاملات، وامسك بالإبرة والخيط، واستنجد بعمّك عمران والنّاس يأتوك به".

نهض يضرب الباب خلفه:

- " ما عدت أحتمل قسوة كلامك".

صاحت:

- " إلى أين؟ إلى أمّك الثّانية؟ دعها ترضعك حناناً، فقد تشفى من عقد نفسك".

عاد يفتح باب البيت بزويةٍ صغيرة:

- " أكلّ هذا الجفاء وهذه القسوة لأنّني أريد أن أتزوّج ممن أحب؟

أنا لست عاقا، ولكنك ظالمة. لا أريد أن أذهب وأتركك وحدك، ولكنّني أخاف أن يقسو كلامك أكثر، فيطرد الحقد المحبّة من القلب ويحتل مكانها، فأكرّر فعلة أبي، ليصبح البحر موطني أنا الآخر".

قالت والدهشة توسع حدقتيها، والاستغراب يرجّ صوتها:

- " تجلدني يا ولد"؟!

- " حاشا لله يا أمي، أخشى ما أخشاه أن تضيق الدّنيا في عيني. فأرحل إلى البحر أحمّله همّي".

ضحكت بمرارة المغلوب على أمره:

- " لا تخف، لن يوسع لك البحر مكاناً في صدره. ستجده قد ضاق بأبيك وأخذ هو الآخر يبحث عن من يحمل همّه".

افترّت عن شفتيه بسمة يزن فيها أمه:

- " إذن دعينا نتفاهم".

- " كيف؟ أضع يدي بيد قويّة قادرة أن ترفعنا من شقّة في عمارة إلى قصر مثلا. أما أن أسلّم نفسي لإنسان يهبط بي إلى مخيم، فهذا مستحيل. تحدّث بالمعقول يا ولدي ونحن نتفاهم".

- " المعقول بالنّسبة لك غير معقول بالنسبة لي، فالأمر يتعلّق بحياتي ومستقبلي".

- " حياتك هنيئة رغدة بإذن الله، ومستقبلك مضمون، فالمال موجود ولكن ينقصك العقل".

نظر إليها نظرة حيرة، فقد سدّت عليه السّبل.. ثمّ نهض:

- " أنا خارج".

- " إلى أين"؟

- " أبحث عن عقل ترضين عنه.. أريد أن أخلو بنفسي علّ الله يلهمني الصّواب".

اتجّه فوراً نحو الشاطيء، واستلقى على صخرة في قلب البحر تبعد مسافة قصيرة عن الشّاطيء . كان القمر بدراً يعكس شعاعه على صفحة الماء فضيّاً ناعماً يداعب العيون بدلال، ويصبغ النّفس بألوان الهدوء والراحة، وسمكة تقفز من مائها، تودّ لو أنها تتسلق الشّعاع وتسبح في بحر السّماء.

كان القمر سعيداً في سمائه، يبحث عن العشاق، ينتعش بضحكاتهم ويفرح بلقائهم. تعثر بأحزان فوّاز، فرآه كسير القلب حزين النّفس ملفعا بهموم الحياة، فرمى بشعاع الأحلام ومرّ نسيم البحر نقيا ناعماً هفهافا، علق بأعصاب فوّاز النافرة كأوتار عود اشتاق للطّرب والغناء فهزها بشذى التّرياق، خدّرها فصفت وأخذ منها همّها، فأغمضت عين فوّاز على حلم عجيب: رأى نفسه في صحراء مقفرة شاسعة واسعة لا تزورها سوى الشمس تلهب رمالها.. تصرخ وتركض فيها الزّوابع والعواصف كمجنون فقد عقله.. نظر إلى السّماء فرأى هالة من النور يتوسطها شيخ جليل وحوله تلاميذ.. سأل أحدهم الشيخ:

– " ما الّذي أتى بهذا الرجل إلى هذه الصّحراء المحرقة"؟

أجاب الشيخ:

– " إنّه غضب الوالدين. فلا أبوه راض عنه ولا أمّه".

رفع فوّاز رأسه إلى السماء.. وفتح يديه ينادي الله: ربّي إنّني ظمآن. أرزقني الماء.

فإذا به يسمع هدير ماء يصمّ الآذان آتٍ من بعيد. إنّه الطّوفان يكتسح الصّحراء على عرضها.

أخذ يركض بأرجل الخوف والطّوفان خلفه.. هو يركض والطّوفان يجري خلفه حتّى كاد أن يدركه، إلا أنه وجد أمامه شجرة عالية فتسلّقها . وقف الطوفان كأنّه حصان جامح شدّه فارس جبار فلجمه.. صعد إلى أعلى الشجرة فوجد رجلين يمسكان بغصن، والشّيخ الجليل يجلس مرتاحاً على غصن قوي من غصونها.

بعد قليل، جاء طير كبير حمل أحدهما وطار به.. سأل فوّاز الشيخ:

– " أين ذهب الطّير بالرّجل"؟

أجاب الشيخ:

– " إنّه طير الرضى، جاء ينقذ الرجل فحمله هناك إلى الجبل الأخضر، حيث الأمان والرّاحة والحياة الهنيئة الرغدة .كان الرجل باراً بأبيه في حياته فنال رضاه، فكافأه الله وأرسل له طير الرّضى ينقله من الصحراء إلى الجبل الأخضر، جنّة الدّنيا وأجمل بقعة فيها".

بعد قليل جاء الطّير وحمل الآخر. قال فوّاز يحدّث الشّيخ:

– " لقد حمل الرّجل الآخر"؟

– " نعم . لقد كان هذا الرجل باراً بأمه في حياتها ، فأكرمه الله ونقله من الصّحراء المحرقة الى جنة الجبل الأخضر أيضا".

بعد قليل سمع الشيخ الجليل يقول:

– " ربّي أنا عبدك المطيع الذي نال رضاك ولم يعصك أبدا.. وقد كنت طائعاً باراً بوالديّ، فأنقذني من نار هذه الصّحراء ، وارفع عني أذى هذا الطّوفان".

فجاء الطير يحمله.. أمسك فواز بعباءة الشيخ يقول:

– " وأنا يا شيخ . هل سيأتي الطير وينقذني"؟

قال الشيخ: "اذهب ونل رضى أمك وأبيك فيرسل الله لك الطّير ويرفع عنك الشّرّ".

ذهب فواز إلى أبيه يسأل:

– "لماذا أنت غاضب منّي يا أبي وقد كنت لك مثال الولد البار"؟

أجاب الأب:

– " لأنك تبعت أمك".

– " ولكنك كنت تجلدها".

– " النساء يُجلدن حتى يستقمن".

– "كدت تقتلها".

– " كنت أتيت لك بأم غيرها. فالمثل يقول النّساء كالحذاء، الرّجل لا يلبس إلا التي تريح قدمه".

– " لا .. لا يا أبي.. لن أبدّل أمهات الدّنيا كلّها بظفر أمي".

– " إذن ابق معلّقا على هذه الشّجرة.. نار الشّمس فوقك.. والطّوفان تحتك.. قد حلّت عليك لعنتي".

ذهب فواز إلى أمّه حزين القلب مريض النّفس:

– " لماذا أنت غاضبة مني يا أمي، وقد كنت باراً بك طائعاً لك "؟

– " لأنّك شبيه أبيك.. رعيتك.. تعبت وشقيت لأجلكما فأنكرتما تعبي. سألتك أن تبتعد عن بنت آل عمران، فعصيت أمري".

– " أحبّ زهرة يا أمّي".

– " إذن ابق معلّقا على هذه الشّجرة، نار الشّمس فوقك، والطّوفان تحتك.. قد حلّت عليك لعنتي".

صاح فواز فاقداً صبره:

– " إذا كنتما تخلّيتما عنّي فالله معي".

الشّجرة تهزها عواصف الصحراء تهدد بخلعها من الجذور، والطّوفان يهدر فاقداً الصّبر يريد أن يقتلعها ويجرها هي ومن عليها إلى الوادي السّحيق، يرميها في بحور النّسيان، يأكلها الماء المالح يوماً بعد يوم، تذوب في أمعائه، ولا يبقى من فوّاز وزهرة سوى ذكرى حب قديم. أغصان الشجرة تهتزّ بفوّاز مع

الرّيح، تعلو وتهبط كأنهّا موج بحر هائج، وفوّاز معلّق على الشّجرة أسير الخوف والحيرة، فإذا قطرة دمع تسقط على وجهه. رفع رأسه فرأى حمامة بيضاء تبكي بحرقة، يحوم حولها أربعة صقور.

قالت:

-" أنا زهرة يا فوّاز".

- " اهربي يا زهرة.. اهربي.. الصّقور الجارحة تحوم حولك".

- " إنّهم أبوك وأبي.. أمك وأمّي يمنعونني من إنقاذك.. أمّك لا تريدني زوجة لك.. وأبي يرى في حبنا عارا وفضيحة.. اثبت واصبر ولا تخشَ شيئا.. سأغزل لك من روحي حبل نجاة لا تقوى على قطعه صقور الدّنيا كلها. الله معنا، فحبّنا طاهر، ونحن على حقّ وهم على باطل".

بدأت المعركة بين الصّقور، فتطاير الرّيش تحمله زوابع الشّيطان، وسالت الدّماء تعكّر مياه الطّوفان.. ووقع الصّقور الأربعة تطويهم أمواجه.. فهدأ هدير.. وجفّت مياهه.. وأطلّت عين الشّمس من بين الغمام، وانقلبت الصحراء إلى جنّة خضراء.. تتأبّط زهرة ذراع فوّاز.. تطير شذى ضحكاتهما.. تعطّر الورود وتصدح بأنغام عصفور تحرّر من قفص.

(24)

تأخّر الليل.. ولم يحضر فوّاز بعد.. أكل الخوف قلب أمّه فنهضت من فورها واستقلّت سيّارتها إلى بيت آل عمران على جناح السّرعة. طرقت الباب واثقة أنّ ابنها موجود عندهم.. ولما علمت بأنه غير موجود صكّت وجهها:

- " أنا في حماك يا عمران .. لقد تبع الولد أباه.. تخاصمنا وهدّد بالهرب، ولم يعد إلى البيت حتى الآن" .

قالت لبيبة:

- " يا صابرين.. خفّفي الملامة والخصام.. خسرت الزّوج.. فحافظي على الابن".

- " أنا لم أخطىء بحق زوجي .. هو من أتى بالسّوط....."

نهرها عمران غاضبا يقطع حديثها:

- " لسنا في وقت ملامة يا لبيبة.. هيّا معي يا صابرين.. وليكن قلبك مطمئنّاً. فوّاز عاقل.. سأردّه إليك الليلة بإذن الله. لا بدّ أنه عند البحر، فالبحر دوما سلوى البحّار والصّياد إذا حاصرتهما الهموم".

دخل عمران إلى حانة الصّيادين يظن أن الهموم دفعت بفوّاز إلى الحانة كي يشرب وينسى، لكنّه لم يجده. توجّه نحو الشّاطىء فلم يجده. سأل عنه البحارة والصيادين، فكان الجواب أن أحدا لم ير، طيلة النّهار. أطال البحث.. لكنّه لم يجد بُدّا من الانتظار حتّى الصّباح.

عاد عمران مع صابرين إلى البيت.. حليفهما الخيبة واليأس.. وجدا لبيبة نائمة، ولكن عيون الحبّ في زهرة يقظة ساهرة، يجول فيها دمع القلق.. والقلب تأكله نار العشق في صمت.

سألت بصوت القلق:

- " هل وجدتموه"؟

قالت صابرين قلقة:

- " لا.. خوفي أن يكون قد تبع أباه".

حادثت زهرة نفسها تقول: (إذا ضاع فوّاز ضاعت زهرة.. نحن الاثنان نشكّل دنيا.. هو شمسها وأنا قمرها.. إذا غاب أحدنا وقعت الواقعة.. دنيا بدون شمس بائدة.. دنيا بدون قمر بائسة.. هيّا.. ماذا تنتظرين يا زهرة.. تشجّعي.. الحبّ ما كان يوماً جباناً، فشجاعته دوماً نادرة).

نهضت تقول:

- " أبي.. خالتي صابرين.. هيّا معي.. أنا أعرف مكاناً قد يكون فيه".

قالت صابرين:

- " أين رنّاد نستعين به"؟

قال عمران:

- " ذهب الليلة لينام عند صديقه العريد".

أربك الشّكّ عمران في ابنته، فتاه ولم يعد يعرف كيف يتصرّف.

قالت زهرة:

- " هيّا نسرع لتطمئنّ قلوبنا.. فالتّأخير ليس في صالح أحد".

قفزت أمامهما بسرعة وخفة.. اتّجها صوب البحر.. قادتهم إلى الشّاطىء المهجور وأشارت إلى صخرة في قلب البحر وقالت:

- " على ضوء القمر أرى زوالا هناك".

دخلا البحر إلى الصّخرة، فوجدا فوّازاً نائما ما زل يحلم.. حضنته أمّه تذرف دمع الخوف ممزوجاً بفرحة اللقاء تقول: " حمداً لله على سلامتك يا ولدي. ما الذي أتى بك إلى هنا؟ "

- " أخذتني سهوة الأحلام يا أمي، ورأيت في منامي ما يصعب تفسيره".

قالت صابرين:

- " حدّثني عنه يا ولدي، كنت أسمع جدّتي تفسّر أحلام أبي وجدّي، وقد تجد عندي ما استعصى عليك فهمه".

قال وفي صوته بحّة حزن: "قد تغضبين فهو ليس في صالحك" .

شعرت بصدّ ابنها فقالت تداري حرجها:

- " أنت ما زلت تحت تأثير النّوم.. هيّا إلى البيت تكمل نومك في فراشك".

- " عجيب أمرك يا أمي.. أعود إلى البيت تطردني قسوتك.. أغيب فتأتين بدمع الأم ومحبّتها!! ما عدت أفهمك".

قالت زهرة ترفع حرج موقف بدا ثقيلا على الجميع:

- " قلب الأم لا يكذب، ولا يحقد.. هيّا إلى البيت نأخذ قسطا من الرّاحة.. فما بقي من الليل إلا القليل، ولا أظنّك اليوم ذاهب إلى الصّيد.. فقد أرهقك النّوم على هذه الصّخرة".

نهض فوّاز يرافق أمه بعد أن ودّعا عمران وزهرة ممتنّين شاكرين.

في الطّريق بدأت الأمّ العتاب، فقال فوّاز:

- " لا أريد عتابا يا أمي.. كفاني ضياعا وتشريداً.. ماذا أقول؟ لقد تعبت، فأنت لا تتغيّرين! قد لا تصدّقين إنّي وجدت في الصّخرة لينا أكثر منك ومن أبي. لم تؤنّبني صلابتها.. غفت عيني عليها ونمت نوماً هادئا أراحني".

قالت بحزم:

- " الظّاهر أنّني أخطأت حين أكلني قلبي وجئت أبحث عنك. منذ السّاعة التي رأيتك فيها وأنت تستغلّ عطف أمومتي.. وتسمعني كلاما لا يليق بولد مؤدّب ربّيته بصحّتي ونور عيني".

وبدأت تجهش بالبكاء ..

- " لا تبكي يا أمي، فدموع قلبي طوفان فاض ولم يعد يتّسع لأحزن".

- " تستكثر عليّ الدّمع"؟

- " لو كانت دموع الفرح تزيّنني عريساً كفرحة كل أم، لما كرهتها، وما استكثرتها.. ولكنّها دموع تعصرها الأحزن.. تفطر كبدي، يضيق بها صدري.. كفكفيها أرجوك.. ما عاد يتسع لشكواها قلبي" .

قالت والغيظ يأكلها:

- " ادخل فراشك وانعم بنوم هادىء ولا تحلم أحلام اليقظة بالأحباب.. فلو نمت على صخرة أعلى نجمة في السماء لن أزوّجك زهرة، وسأعيدك إلى بيتك هذا تنتظر موتي.. وبعدها تتزوج من تشاء.. تصبح على خير".

أقفلت الباب وذهبت إلى فراشها.

ما أن ودّع عمران وزهرة صابرين وفوّاز حتى أخذ عمران يهدّد ويتوعّد:

- " كيف عرفت ذاك المكان المهجور ؟ هل كنتما تتواعدان هناك يا زهرة " ؟

استيقظت لبيبة مزعوجة على صوت عمران تسأل:

- " خير إن شاء الله . صراخ في قلب الليل؟ أقلقتماني".

أجاب عمران بعصبيّة:

- " أنا ابن البحر والشّاطىء عجزت عن إيجاد فواز، أما المحروسة ابنتك فقد عرفت مكانه. إنّه مكان لا يعرفه الجان.. كيف عرفته؟ كيف وصلت إليه؟ لا بد أنّهما كانا يتلاقيان هناك".

قالت لبيبة:

- " اتّق الله يا عمران.. فأنت أعلم النّاس بخلق فواز.. أمّا زهرة.. فقد ربّيت على حليب طاهر. أنا الّتي ربيتها.. هل تطعن في تربيتي يا عمران"؟!!

- " معاذ الله يا لبيبة، ولكنّني بت أقلق من هذا الذي بينها وبين فواز. بت أخشى الفضيحة والعار".

- " نم وتوكل على الله، فعيني مفتوحة، وعين الله حارس.. لا أريد أن يدخل الوسواس قلبك، فالشّك مرض يصعب الخلاص منه.

(25)

في كلّ يوم .. كان عطيوة رجل المخدّرات.. يتعمّد لقاء نمر العبد في عرض البحر يسأله:

- " هل شاورت عقلك"؟

- " كفاني الله شرك.. لن أبيع نفسي للشّيطان.. لن أكون السّبب في أذى إنسان . ابتعد عني . أنت وسواس خنّاس".

- " حسناً نتقابل غداً ".

كان نمر العبد تائها مزعزع النّفس فاقد الثقة.. أخذ يحدّث نفسه:" آه يا زمن النساء.. آه !!! الحياة هكذا أفضل وأرحم.. الحمدالله أنّني هربت بعقلي .. فلو بقيت أكثر لأودعتني صابرين وفواز وعمران مستشفى المجانين .لقد طغى الجديد على القديم ، واستبدل بالطّيب الخبيث ، وبالأصيل المزّيف ، والذّهب بالتّنك ، وأصبحت أمة كلها تنك في تنك".

ثم أخذ يهز رأسه مستهزءا بالزّمن: " إنّه زمن الممنوع.. ممنوع ضرب النّساء.. كيف يستقمن؟ ومن أين يأتي الرّجل بالهيبة؟ ممنوع لبس السّروال.. كيف يستر الرجل عورته بهذا البنطال الضيق الفاضح..؟!! ممنوع لبس الطربوش.. وأصبح الرّجل يتغاوى بشعر كالنساء.. آخ تفووو.. آخ تفوو عليك يا زمان.. زمن.. زمن تتحكم فيه المرأة بالرّجل! وأخذ يبصق والموج يحمل لعابه بعيداً، فيعود ويبصق حتّى جفّ ريقه.

عند الغروب توجّه رشّاد إلى الشّاطىء المهجور حسب الموعد الذي اتّفق عليه فوّاز وزهرة. كان لون البحر متوهّجا أحمر، كأنه نار منبعثة من قلب بركان، لا تدري إذا كان هذا لون الشّفق، أم نار عاشق احترق.

تأخّرت زهرة ، وتعبت عينا فواز تراقبان الطريق ، إلى أن انعكس شعاع شمس الغروب على زوال لم يستوضحه فواز.. اقترب الزّوال.. فإذا به رشّاد أخو زهرة.. اندفع نحو فواز يزمجر:

- " فواز يا جبان.. تخونني؟ تخون البيت؟ تخون العيش والملح؟ تخون الصّداقة؟ تخون الأخوّة؟"

هجم على فوّاز كالوحش الهائج يضربه.. وفوّاز يقف مكتوف اليدين متحجّرا يصرخ: –

" اضرب يا رنّاد.. اضرب.. أمنيتي أن أموت بين يديك.. اضرب.. اوجع، فعذاب ضميري أكبر.. أريد أن أرتاح يا رنّاد.. أهلا بالرّاحة على يديك. واللهِ ما خنتك وما خنت البيت ولا العيش والملح، إنما أتيت هنا أتدبر أمري مع زهرة بعد أن سُدّت جميع السّبل في وجهي، فلا تظنّ أنك حريص على زهرة أكثر مني؟ أنا لست مخطئاً. وحاشا الله أن تقع زهرة في الخطأ. إنّه خطأ أبيك وأبي. أمك وأمّي. أذكوا نار العشق في قلوبنا حتّى طرنا شرارة تقفز عن التّقاليد، نفكّر كيف نلتقي، فاللقاء شريف، يداً بيد نبني عشا يباركه الله حسب شرعه".

كان رنّاد أطرش أعمى.. لم يفق إلى نفسه إلا وفوّاز مغمى عليه.. صحا على نفسه كأنه قابيل قتل أخاه هابيل.

– " ويلي، ماذا فعلت؟ هل مات فوّاز" ؟

وضع أذنه على صدر، فوجد قلبه ما زل يخفق.

– " الحمد لله.. إنّه حيّ.. الحمد لله.. إنّه حيّ".

حمله يركض دون وعي منه .. يحادث نفسه: (أين أذهب به؟ عند أمّه؟ تقتلني.. ليس أحنّ ولا آمن عليه من قلب أمي لبيبة.. سأحمله إليها).

دخل البيت.. رأته زهرة ممدّدا تنزف الدّماء من فمه وأنفه.. هجمت على أخيها تشدّه من تلابيبه.. تصرخ:

– " قتلته يا أخي"؟

خلّص نفسه منها.. ووقف الأب بين الأخ والأخت، واهتمت الأم بفوّاز.. وهدأت نفس الجميع عندما سمعوا صوت فوّاز يتأوّه.. أنعشوه حتى عاد إلى وعيه.. وقعت عينه على زهرة، فسألها:

– " هل أنت من أرسل رنّاد"؟

– " ضربني.. أوجعني.. حتّى طفا السّرّ على لساني.. أنا السّبب.. أنا السّبب.. سامحني".

نظر إليه نظرة احتقار:

– " تضرب أختك وتدّعي أنّك رجل؟ يا لعارك .. يا خسارة".

وقف وما زل الدّم ينزف من أنفه . صاح يهزّ يده مهدّدا:

– " يا آل عمران.. قرّرت ألا اخرج من هذا البيت إلا عريسا لزهرة.. أو تجهزوا عليّ.. فما بقي منّي سوى روح تمسك بزهرة، إما تزهقوها وتصعد إلى بارئها.. أوإمّا أن تفرحوا بي أنا وزهرة عروساً وعريساً ".

قال عمران:

- " كيف نزوّجك دون أهل؟!!"

- " أنتم أهلي".

تأثّرت لبيبة ولم تستطع صبراً. أمسكت بخصلة من شعرها:

- " وحياة هذا الطّاهر أن لا تكون زمرّة إلا عروساً لك، فما عجزت عنه الرّجال ستسوّيه لبيبة.

رمت ملاءتها على نفسها دون ترتيب وخرجت.. سألها زوجها:

- " إلى أين"؟

- " دعني أتصرّف".

ذهبت من فورها إلى صابرين، والغضب يتطاير شرراً من عينيها.

- " يا صابرين..هل سيطول عذاب الولد"؟

أجابت صابرين بعصبيّة، فقد استاءت أن تقول لبيبة عن فوّاز ولد:

- " إن ابني فوّاز سيّد الرّجال".

- " إلى متى ستظلّين تغالطين نفسك يا صابرين"؟

- " لا أفهم.. ما الأمر يا لبيبة"؟

- " بل تفهمين جيّدا.. إنّ فوّاز ليس ابنك.. لقد تركه أبوه في صيدا أمانة في عنقك".

امتقع وجه صابرين بالخوف والغضب:

- " هذه هي المرّة الثّانية التي تهددينني بكشف السّرّ يا لبيبة.. ماذا يفيدك هدم ابني وبيتي"؟

- " سأزوّج فوّاز من زمرّة.. إنّه ولدي كما هو ولدك.. لقد تعبت في تربيته كما تعبت.. إنّ لي عليه حقوق الأم كما هي لك ".

- " نجوم السماء أقرب لك.. إنّه رضيعي الذي قاسمته حليب أخيه عوّاد، رحمة الله عليه".

- " لقد افتكر الله ابنك عواد بإرادته ، ولا أعترض على حكم الله ، أمّا فوّاز فسيضيع بإرادتك، ولن أسمح بهذا.. تركه أبوه أمانة عندك أنت وزوجك ، ولا أراك تؤدّين الأمانة كما يجب".

قالت صابرين وقد دخل الخوف قلبها:

- " تتدخّلين بين الإبن وأمه.. اعرفي حدودك فذلك أفضل ".

- " إنّه ولدي مثلما هو ولدك، فقد ربيناه أنا وأنت معاً . قسماً أني لن أخرج من هنا إلا ومعي موافقتك ، أو أذهب وأهمس بالحقيقة في أذنه، عندها سينقم عليك وعلى زوجك، فيدخل الندم قلبك وتقولين ليت الذي جرى ما كان".

- " سأحرمه من إرثي".

- " رزق البحر وافر، وطعام اثنين يكفي ثلاثة".

وأكملت حديثها تهدّد:

- " ليس عندي الكثير من الوقت يا صابرين".

دارت الدنيا بصابرين، وركض شريط العمر أمام عينيها في لحظات كأنّه الحلم.. لم يبق لها سوى فواز أمل عمرها في وحدتها وقد أدركها الكبر ، فقالت بصوت اللين والمحبة:

- " يا لبيبة، المشكلة ليست في فواز وزهرة، فأنت تعلمين مدى حبّي لزهرة. المشكلة في عقل فواز".

مطت لبيبة شفتها السّفلى تستغرب قولها:

- " عقل فواز ما شاء الله يزن عقولاً ويسع بحوراً.. ماذا تقصدين"؟

قالت صابرين بصوت المقهور:

- " أنتِ تعلمين أن الله أعطاني الكثير، فالمال ملء خزائن. أنا أريد لفوّاز أن يدخل السّوق، ويكبر عقله مع التّجار حتى يصون المال، ولكنه كبر وهو ما يزل يلهو مع البحر يركض وراء الأسماك، فرأيت أن أستغلّ حبّه لزهرة، واشترطت عليه أن يترك الصّيد ويدخل السّوق يبيع ويشتري ويتاجر، عندها أزوّجه زهرة وأنا مطمئنّة على مستقبله. إنّني أحمي ابني من خطر البحر ومن مغبّة الفقر، فأي لوم يقع عليّ"؟

قالت لبيبة بطيبة وسلامة نيّة:

- " لا يوجد عليك لوم، فالتّعامل مع السّوق أسلم وأربح . البحر غدّار.. رأيت منه الأهوال".

- " إذن تدبّري أنت الأمر وحثّيه على أن ينفّذ هذا الشّرط وتنتهي المشكلة".

نهضت لبيبة تحضنها فرحَةً:

- " أبشري سيكون ابنك بَنْدَر التجار، ملك السّوق والمال".

عادت لبيبة تحمل البشرى إلى فواز وزهرة . قفز فواز من فراش المرض، ونسي الضرب والألم والوجع:

- " خذوني إلى أمي أقبّل يديها.. أشكر لها موافقتها".

ولكنه صمت فجأة تقف على شفتيه بعض الكلمات:

- " أخبريني يا خالتي لبيبة ، أيّ سحر هذا الذي ألان أمي فوافقت ؟ أي سّر هذا الّذي فيك يا خالة" ؟

- " يضع سرّه في أضعف خلقه يا ولدي".

- " لا بدّ أن هناك سراً. يجب أن تعلميني به، فأنا أعرف النّاس بأمّي" .

قالت تهرب من سؤاله:

- " وعدتك ووفيت.. ألا أستحقّ الشّكر" ؟

هجم على يديها يقبلهما:

- " أقبّل يديك اللتين أطعمتاني صغيرا، وأقبّلهما كبيرا لأنّهما حررتاني من قيود الظّلم الّتي كانت تقيّدني بها أمي. هيّا نذهب إلى أمي، نشتري الخواتم ونقرأ الفاتحة" .

- " اصبر. هناك شرط اشترطته أمك، لا يتم الزواج دون تحقيقه، وقد ألزمت نفسي بأنك ستفي به".

وقف صامتا يسمع هذا الشّرط وقد علت دقّات قلبه.. فأخذ ينبش ذاكرته علّه يتذكّر مطالب أمّه.

- " شرط أمّك الوحيد أن تترك مهنة الصّيد وتبتعد عن البحر وتصبح تاجراً تقف إلى جانبها وترعى أموالها ومصالحها".

قال زيّاد غاضباً:

- " تخيّر ابنها بين الموت والحياة؟ إنّه مطلب ذكيّ".

وقال فوّاز:

- " هي تعرف أنني سمكة، وتريد أن تبعدني عن البحر؟ إنّ في ذلك موتي".

قالت زهرة:

- " هذا شرطي أيضا، وقد اتفقنا على ذلك".

قال فوّاز:

- " لأجل عيونك أنسى زرقة عيون البحر.. اذهبي واعلمي أمي موافقتي يا خالة لبيبة".

- " بارك الله فيك يا ولدي.. لقد علمت أنك لن ترفض لي طلباً".

قال عمران:

- " هيّا.. ماذا تنتظر"؟

نذهب جميعا ونلبس الخواتم.

قالت لبيبة:

- " ليس قبل أن نعلم أباه ونأخذ موافقته.. لا تقع في الخطأ يا عمران. نمر العبد صديق، وأنت خير من فهم الأصول".

قال عمران:

– " ومن المجنون الذي سيذهب إليه، خاصة إذا علم أن فوّاز سيتزوج ابنتي. سيقتله لا محالة".

قالت لبيبة:

– " أنا ".

– " مستحيل.. سيقتلك".

قال زيّاد:

– " لا تفكري بهذا.. سيرمي بك إلى البحر" .

قال فوّاز:

– " لن أدعك تخاطرين بنفسك ".

وقالت زهرة:

– " لن أدعك تذهبين، فأيّ حياة تطيب لنا من بعدك"؟

قالت لبيبة بثقة:

– " توكّلوا على الله . لن أعود إلاّ ومعي الموافقة".

قال عمران:

– " أنت لا تعرفينه.. لا تتهوّري".

– " قلت لكم اتركوا الأمر لي".

قال زيّاد:

– " لقد حاول أن يغرقنا أنا وفواز والعريد في البحر" .

قال فواز:

– لقد حاول أن يقتل أمي جلدا بالسّوط ، فاحذري."

أجابت لبيبة:

– " لا تنس أن أمك التي أشهرت سلاحها أوّلا ".

وقف عمران أمامها:

– " أنا أمنعك".

أمسكت بخصلة من شعرها:

– " لقد أقسمت بهذا الطاهر أن أزوّج فوّاز من زهرة، وهذا يمين حرّة لا يردّه سوى موتي".

تنحّى عمران عن دربها:

– " حسناً .. سأذهب معك".

- " بل سأذهب وحدي.. لا أريد أن يفسد عليّ أحد خطتي".

قال عمران قلقاً:

- " لقد دخل الليل يا لبيبة ، وطريق البحر موحش".

- " لا تحذّر أخت الرّجال يا عمران، فكم من ليلة تأخرت فقلقت عليك وذهبت إلى البحر أقلّب موجه وأبحث عنك وقد كنت وحدي".

هزّ رأسه فاقد الحيلة:

- " الله معك".

ذهبت لبيبة في قلب الليل بقلب شجاع حتى وصلت مركب نمر العبد فرأته سابحا في نوم عميق. هزّته من كتفه:

- " انهض يا نمر العبد.. انهض".

استيقظ مرعوباً يفرك عينيه لا يصدّق.

قالت:

- " عيناك سليمتان لا عيب فيهما.. أنا لبيبة".

قال مندهشا:

- " مروّضة الرّجال ماذا تفعل هنا"؟

- " لو كانوا رجالا ما روّضتهم امرأة".

- " ما رأيت أوقح منك أنثى".

- " اخرس قطع الله لسانك، فما رأيت أجبن منك رجلاً ".

قال والغضب يتطاير من عينيه:

- " لو كنت أضرب النساء لما أفلتّ من العقاب".

- " جلدت زوجتك وهربت بكرباجك مهزوما.. تفرّ بأرجل غزل".

- " ماذا تريدين . أوجزي".

- " أريد أن أعرف هل تنصّلت من مسؤولياتك عن فوّاز؟؟ "

- " إنّه ابني".

قالت وفي وجهها غرابة:

- " تريد أن تزوّر التّاريخ أمام شهود عيان يا نمر العبد"؟

- " لا أفهم"؟!

- " فوّاز ليس ابنك.. إنّه أمانة وضعها أبوه في عنقك، وأنا أوّل الشّهود".
- " لقد نسي الشّيطان هذه الحكاية وأنت ما زلت تذكرين"؟
- " لا تخف، سيبقى ابنك اذا سلكت طريق الشّرع والدّين. إلى متى ستستمرّ أنت وزوجتك تعذّبان هذا الولد المسكين"؟
- " ما شأنك أنت"؟
- " لي عليه أتعاب الأم".
- " زوجتي صابرين هي التي أرضعته وقاسمته حليب ابنها عوّاد".
- " ومن تكون أنت"؟
- " أنا أبوه".
- " أبوه الذي غاب عنه عشرين عاما وعاد يحمل له الكرباج"؟
- " هذه خصوصيّات العائلة، وليس لك دخل بها".
- " زوجتك أرضعته الحليب، أمّا أنا فحجري كان له السّرير. وعمران كان أبوه العطوف الكريم، فليس لكم في هذا الولد أكثر منّا".
- " قلت لك أوجزي.. ماذا تريدين"؟
- " أريد أن أزوّج فوّازاً ابنتي زهرة ".
- " هذا مستحيل".
- " لماذا"؟
- " زوجك جبان، والخلف يحمل صفات السّلف. لا أريد أن يرث أحفادي الجبن عن جدّهم لأمّهم".

ضحكت:

- " تتحدّث عن الشّجاعة وأنت شريد هارب تنام في قارب"؟

الآن سأعلّمك درساً في الشجاعة تأخذه من امرأة .

صرخت:

- " يا رجال.. يا عرب.. يا أصحاب النّخوة والمروءة".

نهض نمر العبد كمن أصابه شيطان يكمّم فمها بيده:

- " ماذا تريدين"؟

رفعت يده عن فمها.. رمت بها إلى جنبه:

- " امش أمامي أو أتسبّب لك بفضيحة لا تسلم منها أبداً ".

- " إلى أين"؟

- " تتنازل عن بنوّة فوّاز إلى أبيه وأمّه الحقيقيّين".

قال مندهشا:

- " هل عرفتوهما؟ من هما"؟

- " أنا أمّه، وأبوه عمران".

- " تريدين أن تأخذي ابننا يا لبيبة"؟

- " هيّا إلى البيت نتفاهم".

قال والخوف يهزّ صوته:

- " لا تفاهم بيننا.. نجوم السّماء أقرب لكما. إنه ابني الذي سيرعاني أنا وأمّه في كبرنا".

- " هل رعيته حتّى يرعاك"؟

- " ما شأنك ؟!! نحن أسرة نتفاهم".

- " أيّ تفاهم هذا؟ زوجتك في بيت وابنك في المخيم وأنت في قارب ، وتقول تفاهم؟ تبّا لك من رب أسرة عديم الشّخصية جاهل".

قال غاضبا ساخطاً:

- " قلّ أدبك وطال لسانك.. تبتزّينني بصوت الكذب والفجور.. لن أسير معك".

استدارت تجاه الصّيادين تصرخ:

- " يا رجال.. يا عرب.. يا أهل الشّهامة والمروءة".

عاد يكمم فمها بيده.. رفعت يده ترميها إلى جنبه:

- " هل تريد أن تدخل تجربة أبطالها امرأة وصيّادون"؟

مشى أمامها مطأطىء الرأس طائعا.. وقد عرف حجمه وخفت صوته ولانت أخلاقه.. قالت:

- " استمع إليّ جيدا يا نمر العبد، أمامك خياران لا ثالث لهما: إمّا أن أزوّج فوّاز لزهرة ويبقى فواز ولدك ونكون أصهاراً أحبّاء، أو أنّني أفشي السّرّ فيعرف أنّكما أبوه المزيّفان فيبتعد عنكما.. ويبقى صهري وحدي وعريس ابنتي. فكّر، فأمامك الوقت قصير، مسافة الطّريق من هنا الى البيت".

مشى نمر العبد أمامها مغلوباً على أمره.. وقد دارت الأفكار في رأسه يمحّصها ويقلّبها، فهربت به الذّكريات إلى بلده عكا عام الهجرة، يوم أن حفر أمام البيت يدفن الذّهب . يومها حمل عائلته وعائلة عمران وهرب إلى صور.. كأنه يوم القيامة.. المهاجرون يملأون ساحات المدينة.. والنّاس سكارى وما هم

بسكارى. يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه.. وعندما انتقل إلى صيدا، والرجل جاءه بالطّفل (فوّاز) رمى به وهرب، أيام العسر وضيق الرّزق . وكيف عاد إلى عكّا يسترجع الذّهب، وكان السجن في انتظار، يقضي عشرين عاماً خلف قضبانه، ورجل المخدرات زميله في السّجن، والصّفقة المبرمة بينهما التي رنّته إلى عائلته والليل والضّباب والريح والبحر الهائج والمركب المليء بالمخدرات، والموت يركب الموج يتحيّن فرصة اقتناصه، ومدينة صيدا والشّيخ الورع الذي أهداه المركب، واذا به كبير رجال المخدرات، وعودته الى بيروت يسكن معلّقا بين الأرض والسّماء في الطّابق التاسع، وهروبه من البيت، وحياته في المركب. سنوات من العذاب وحياة التّشرد والشقاء امتلأت بها صفحات تاريخ حياته مدونة بالحبر الاسود.. كأيام عمر، وسني حياته. توالت هذه الأحداث سريعة. تنتقل مع خطواته من الشاطيء حتى باب بيت عمران. هناك هزّته لبيبة من كتفه وقالت:

– " أرجو أن يكون الله قد هداك إلى ما فيه خيرك وخير ولدك".

أهمل نمر العبد سؤالها ولم يجب.

دخلت لبيبة مع الخوف والحيرة لا تعرف كيف تتصرّف، فالموقف ما زال غامضا. دخل نمر العبد . ودخلت هيبته معه، فارتدّ عمران ورنّاد وفواز وزهرة إلى الخلف يتوقعون شرّاً. ساد الصّمت بضع دقائق، والعيون تتحاور مع العيون، والقلوب تنبض منفعلة، حتى طغى الشّوق ينهي الحوار ويلمع في العيون.

قالت لبيبة تستغلّ لمعة الشوق في العيون وفيضان العاطفة:

– " أبوك يا فواز جاء يبارك لك بالزّواج من زهرة".

اندفع فواز يعانق أباه وقد فاضت دمعة من عينه تبلّل كتف أبيه.. شعر بها الأب فأمسك بزندي ولده يهزّه:

– " الرّجال لا يبكون يا فوّاز".

ثم توجّهت لبيبة إلى زوجها تقول:

– " صديق عمرك وأحبّ النّاس إلى قلبك جاء يبارك لك ويهنّئك".

اندفع الاثنان بضع خطوات يلتقيان في منتصف الطريق يحضنان بعضهما. فاضت دمعة من عين عمران شعر بها نمر العبد:

– " صيّاد أبكت ضربات مجذافه البحر وتبكي؟! البكاء للنّساء.. رجل ودموع!! هذا لا يدخل شرعي".

رمته لبيبة بنظرة شرسة، وتشابكت العيون في عراك ، فخفض نمر العبد بصره. أوسعت له لبيبة في صدر البيت، وأحضرت له المساند تهيّئ له جلسة مريحة، ولكنه كان في جلسته قلقا، ساعة يستمع

إلى الحضور وساعة يثور عليه جرح كرامته.. لا يستوعب ما حصل.. يحادث نفسه: " زوجتي تطردني من البيت .. وامرأة تقودني إلى بيتها كالخروف مكتوف اليدين وأخرس اللسان! هذا كثير.. هذا كثير.. هل أصبح عليّ أن أعترف بأن عصر الرجال قد ولّى وبدأ عصر الحريم؟ لا .. لا .. لن أعترف حتّى لو انسحق جميع الرّجال عن الأرض. الدّنيا خُلقت للرّجال. والنّساء جواري. مكانهنّ سوق النخاسة. هذا تاريخ وليس افتراء. آه منك يا لبيبة، لو أن قلبك الشّجاع هذا في قلب رجل.. لبقيت كفّة الرجال راجحة".

نهض نمر العبد يستأذن..سأله فواز:

- " إلى أين يا أبي"؟

- " إلى البحر".

صاح فواز:

- " وأمي"؟

- " الشّروط التي فرضتها أمك لا يرضى بها رجل مثلي" .

قالت لبيبة وقد ساد الجوّ توتّر:

- " غداً بإذن الله أذهب إلى زوجتك وأعود إليك بأخبار الخير.. لا تغادرنا الليلة. نم عندنا. نقضي الليلة سويّاً".

- " وبيتي"؟

قال فواز غاضبا:

- " وهل تسمّي المركب بيتاً يا أبي"؟

- " أيّ مكان تجد فيه راحتك وكرامتك ورجولتك هو خير بيت يا ولدي".

استأذن وذهب.. وقف الجميع حيارى.. على ألسنتهم سؤال واحد: كيف تمكّنت لبيبة من إحضار الرّجل إلى البيت؟

قال عمران:

- " هناك سحر تتسلّطين به على العباد!! فأنا أعرف النّاس بنمر العبد. جيش جرار لا يستطيع أن يأتي به.. لقد غيّرت في الرّجل الطّبع واللّسان.. حوّلتِهِ من وحش مفترس إلى إنسان.. إنّ الذي أتيت به شبه محال.. حقّي عليك أن أعرف السّرّ في الحال".

- لا تكن لحوحا يا عمران.. يضع سرّ، في أضعف خلقه.

قال ينكر عليها قولها:

- " إنّ الّذي فعلته اليوم لا يقوى على فعله الشّيطان" .

أشارت بأصبعها إلى رأسها:

- " بالعقل يتميّز إنسان على إنسان".

صاح زيّاد فاقداً صبره:

- " هل نحن مجانين وأنت العاقلة"؟

قالت تسفزّهم:

- " الله أعلم. المهمّ أنّني وعدت ووفيت.. هيّا.. جهّزي العشاء يا زهرة.. إنني جائعة".

(26)

ذهب نمر العبد إلى حانة الشّاطىء يحمل كرامة مجروحة ورجولة مهدورة. شرب وشرب حتّى نسي لسانه وترك جرحه يتكلم، وخرج من الحانة يصرخ:

- " أيّها الرّجال البسوا الملاية واستتروا في بيوتكم.عصر الرّجال قد ولّى وبدأ عصر الحريم".

التف حوله الصّيادون وبدأ التعليق، فقال قائل:

- " صدقت ، والله انّه قول عاقل وليس كلام سكّير" .

وقال آخر:

- " مسكين.. يبدو محروق القلب.. لا بد أنه عانى منهنّ الكثير" .

وقال ثالث:

- " سلبن عقل الرّجل.. إنّ كيدهنّ عظيم".

وقال رابع:

- " ما عاد اسمه نمرالعبد.. نادوه "أبو ليلى" .. فقد كان الليلة قيساً. لقد رأيت عنده ليلى".

قهقه نمر العبد قهقهة السّكارى:

- " إنّها لبيبة سيّدة الرجال.. كتّفتني بشاربها وقادتني إلى بيتها.. أقسم لك أنّها لبيبة أيها الزّميل".

علا ضحك السّكارى، ووضعوه داخل الحلبة يتبادلون النّكات التي محورها النّساء.

قال خامس:

- " هل سمعتم عن أغلى مهر فتاة في العالم"؟

قالوا:

- " مائة ألف دينار".

- " لا تسوموها بالمال".

- " بالذّهب"؟

- " لا ".

- " بالماس"؟

- " لا ".

وعندما أعياهم الجواب قال:

- " طلبت مهرها أن تعتلي ظهر زوجها كالحمار، يلفّ بها ساحة المدينة ثلاث مرات".. وعندما لجمته، وأمعنت ضرباً به في الكرباج رفسها فطلقته".

ضحك السّكارى حتى انكفأوا على ظهورهم، وركض نمر العبد إلى الحانة، وأحضر زجاجة أخرى وقدّمها للرجل هديّة:

- " والله أنّك تستحقها، فما أكثر الحمير هذه الأيام، أوّلهم صديقي عمران".

كان الصّيادون في آخر خيط من الضّحك. وعندما سمعوه كان كلامه كمن وضع البنزين على النار ، فعاد وعلا ضحكهم يقول أحدهم:

- " إذا كان صديقك حماراً ماذا تكون أنت يا نمر العبد ؟ والشاعر يقول (الطيور على أشكالها تقع) ".

انحنى نمر العبد يمشي على يديه ورجليه ينهق ويرفس، والضّحك ينطلق من أفواه صيّادين صدأت صدورهم من رطوبة البحر.

نهض نمر العبد إلى الحانة وأحضر زجاجة خمر وعاد إلى الصّيادين يقول :

- " اتبعوني إيها الزّملاء".

واتجه إلى البحر يتبعه الصّيادون.. قال:

- " يا بحر.. يا رفيق العمر.. لماذا أنت عابس حزين ، وأصدقاؤك الصّيادون مسرورون ضاحكون؟ أعرفك جيدا . إنّ في قلبك ما فاق الهموم الّتي في قلوبنا أجمعين، ولكنّك صبور. ألَمُك كبير، وصوت موجك أنين. يجلدك الريح وأنت من الصّابرين. يطير الرّذاذ من عيونك دموعاً تندّي وجه القمر وأنت صامت.. لا حسّ ولا خبر.. كريم أنت.. يأكل النّاس من جوفك وأنت صامت دون احتجاج أو اعتراض".

فتح زجاجة الخمر وسكبها في مياه البحر وقال:

- " هيّا شاركنا الضحك يا شريك".

ثم التفت إلى زملائه يقول:

- " البحر لا يضحك يا إخوان ، فما زل حزيناً ".

قال أحدهم وهو يترنّح :

- " بطن البحر كبير.. لا تسكر، زجاجة واحدة، ولا تكفيه بئر من الخمور" .

قال نمر العبد بخشوع:

- " هيّا نشاركه الأحزان يا أخوان، فهو صديق".

بكى نمر العبد ولطم على وجهه يتبعه باقي الصيّادين، ثم قال يطيب خاطر البحر:

- " لست أنت وحدك من تركبه النّساء ، فالرّجال أصبحوا مركوبين.. ابقوا هنا يا رجال.. سأذهب وأذل لبيبة زعيمة النّساء حتى يضحك وجه بحرنا الحزين".

عاد نمر العبد وعبّ كأسين ومشى يترنح تجاه بيت عمران. ووقف على بابه يصرخ:

- " لبيبة يا مبتزّة الرّجال وفاضحة الأسرار أخرجي أيّتها الشمطاء. إذا ظننت أنّك سلبتني رجولتي وامتهنت كرامتي فهذا هراء. اذا كان سرّي عند امرأة سيذلّني فلينكشف السّرّ وتنتشر الأخبار. أنا أبو الرجال أرفض أن تبتزيني يا عجوز السوء. سأفشي السّرّ وأطلق سراح نفسي من عبوديتك.. لا تهديد ولا وعيد بعد اليوم.. الحريّة أتنسّمها ولبيبة زعيمة النساء أذلّها.. وجرح كرامتي أشفيه.. وقيد رجولتي أكسر، وأرميه ، والمرأة في شرعي ناقصة عقل ودين".

نهض الجميع من فراشهم واقفين كأنهّا صرخة رعد دوّت في قلب بيتهم.عقولهم لا تستوعب ما يسمعون. خرجت لبيبة تدفع نمر العبد إلى داخل البيت حتى لا يتسبّب بفضيحة وقالت ترتعش خوفاً:

- " لن أزوّج فوّازاً زهرة، شرط أن تكتم السّرّ وتخفيه حتى لا تدّمر نفسك وابنك، فما من ذنب جناه ذاك المسكين".

- " لا .. لا أريد أن يكون لك عليّ جميل . استمع إليّ جيّدا يا فواز . أبوك رماك على صدر صابرين وهرب ، يوم أن هاجرنا من البلاد والتجأنا إلى مدينة صيدا . هذه حقيقة يجب عليك أن تعرفها وتتحمّلها كرجل ريت في بيت نمر العبد سيّد الرّجال والصّيادين".

ثم زفر زفرة طويلة:

- " زال الهمّ.. أشعر بالرّاحة.. لقد زال عن ظهري حمل ثقيل.. استأذن.. سأذهب لأبشّر أصدقائي الصّيادين.. وأفرح وجه البحر الحزين".

وقف فوّاز مذهولا.. تنتقل عيناه بين الواقفين .

قالت لبيبة:

- " إنّه سكران ، يتحدّث حديث المجانين".

- " لا يا خالتي لبيبة.. إنّك تخفين عني سرّاً عظيما . إذا لم يكن نمر العبد أبي ، فمن يكون ؟ هل أنا إبن حرام.. لقيط"؟

أمسك بتلابيب نمر العبد ورماه أرضا.. وجاء بسطل ماء قذفه على وجهه.. هزّه بعنف وقد انتفخت اوداجه وعلا صوته يصرخ:

- " من أنا أيها السّكير؟ من أنا؟ من أنا"؟

ثم نظر إلى لبيبة نظرة رجاء:

- " كم من أمّ لي؟ هل هي صابرين؟ أم أنت؟ اليوم تخبرونني أنّني جئت من صلب شقيّ تنصّل منّي وانفصل عني؟ هل حقا يا أمي أنني لقيط ؟ أخبروني قبل أن تفقدوني، فالجنون أصبح قريباً".

أيقظت ثورة فواز نمر العبد من غفوته ، فصحا كأهل الكهف تائها يسأل:

- " أين أنا؟ ماذا فعلت؟ هل أنا من طعن نفسه بخنجر؟ قلبي ينزف دماً. فواز.. يا ولدي.. يا روحي ومهجة كبدي.. أنت ولدي الذي ربّيت.. وصابرين أمّك الّتي من ثديها رضعت وارتويت".

- " أنا لا أسأل عن الثّدي الذي أرضعني... إنّني اسأل عن الرّحم الّذي حملني.. من هو؟ وإن كانت لي أم غير اللواتي عرفتهن، أين هي"؟

قال نمر العبد بصوت بحّه الحزن:

- " سنة النّكبة، يوم أن تشرّدنا من البلاد وهربنا، نزلنا نحن وعائلة عمّك عمران في صيدا نستطلع الأخبار ونبحث عن الأهل . كانت المأساة أكبر كثيرا من حجم المدينة ، كل يحمل مصيبته ويركض بها تائها، يبحث عمن يحمل معه أو يعين. كنا نجلس مع الحيرة لا نعرف أين نستقر ، فهناك من يقول إنّ اليهود سيواصلون زحفهم إلى صور وصيدا. وآخر يقول حدودهم حدود فلسطين لن يتعدوها. فقررنا من باب السلامة أن نواصل طريقنا إلى بيروت. وبينما كنا مع الافكار، إذا برجل يحمل طفلا. كان الرّجل يصرخ: (أين شهامة العرب؟ أين الشّرع والدّين؟ الطفل يموت جوعا ولم تتكرّم له أم بقطرة حليب . لقد مررت على جميع أهل البلدة والمهاجرين ، فتنكّر الجميع للطفل المسكين). أخذت الشهامة أمّك صابرين وقالت للرجل: (هات الطفل أقاسمه الحليب مع ابني عواد). أخذتك وألقمتك ثديها فهدأت وشبعت ونمت . بحثنا عن الرجل فلم نجده. لقد أودعك حضن صابرين وهرب. سألنا عنه قالوا: (إنّ أمّ الطفل قضت نحبها في طريق الهجرة الطويل، والرّجل فقير لا يملك ثمن الحليب، فاستودعه عندكم أمانة تربّونه وتعتنون به. سرت في المدينة إشاعة أن اليهود ما زالوا يزحفون، وأنّهم قريبا سيصلون إلى صور وصيدا ، فاضطررنا أن نهرب مع الهاربين. هذه هي حكايتنا معك يا ولدي".

صرخ فواز دون وعي:

- " أنتم لصوص.. أنتم عصابة سرقة الأطفال.. سرقتموني من أهلي.. لا أصدّق أنّ أماً تتخلّى عن ابنها حتى لو أدىّ الأمر أن تطعمه من لحمها".

قال نمر العبد:

- " أخبروني أن الله قد اختار أمّك إلى جوار".

قال فوّاز:

- " وهل يتخلّى أب عن ولده من أجل قطرات حليب"؟

- " مصائب الدّنيا كثيرة يا ولدي ، فكم من أسرة باعت أطفالها من أجل أن تضمن لهم لقمة عيش تبقيهم أحياء على وجه الارض. أنت لم تعرف الحاجة يا ولدي. لقد ربّيت في حضن صابرين حيث الرّزق الوفير. لتعلم يا ولدي أن الحاجة هي التي رمتني في السّجن طوال هذه السنين".

صرخ فوّاز:

- " هيّا.. هيّا بنا يا عمّ عمران.. هيّا بنا يا خالة لبيبة .. هيّا يا زهرة.. لي أم وأب.. وعيني تغفو وتنام؟؟ يا للعار.. سنأخذ أمّي صابرين.. ونبحر إلى صيدا ، حيث الضّياع والفقدان".

قالت لبيبة:

- " الآن بعد أكثر من عشرين عاما !!؟ الله أعلم إذا كانوا أحياء أم أمواتاً.. أين نجدهم؟"

- " سأبحث عنهم على وجه الارض إذا كانوا أحياء.. وأنبش القبور إذا كانوا أمواتاً.. أريد أن أعرف من أنا؟ لماذا تركوني؟ لماذا رموني؟ أريد أن أحلّ لغزَ حياتي".

قال عمران:

- " ننتظر حتى الصّباح، فالنّهار له عيون".

- " بل الآن نسري في الليل، ونصل صيدا في النّهار".

وما جرؤ أحد أن يقف أمام ثورة فوّاز.. أذعن الجميع.

وعندما علمت صابرين أفزعتها المفاجأة وخافت على ولدها فوّاز ومشت مع الرّكب . وأبحروا جميعا إلى صيدا.

(27)

وصلت العائلتان إلى مدينة صيدا.. تعرّف أفرادها إلى المخيّم والمخاتير والنّاس المسنّين. سألوا فأجابوهم:

– " مضى على هذه الحادثة أكثر من عشرين عاماً. من يتذكّر؟ تريدون أن ندلّكم على أهل ولد ضاع منذ أكثر من عشرين عاماً"؟

قال رجل مسنّ يتذكّر:

– " تلك كانت أيّام الصّياح والصّراخ، فالجميع ضائع . الجميع ينادي ويصرخ. ما زلت أذكر.. سمعت أماً تنادي: يا أولاد الحلال، من رأى منكم طفلا أسمر شعر، طويل جميل، رائحته مسك وعنبر؟ إنه إبنها. هكذا كانت تراه. وهكذا كانت تشمّه. وعندما كانت تتعب ويموت الصوت في صدرها ، كانت تنادي بدموعها. ولكن، هل كان أحد يسمع؟ الجميع في تيه. زوجة تسأل عن زوجها.. ولد ينادي على أهله.. أب يسأل عن عياله، الكل يسأل عن الكلّ.. والجميع ضائع. عالم من الضّياع كنّا نعيشه".

ثم نظر إلى فوّاز بعينيه الغبشتين وقال:

– " إنها بالتّأكيد ليست أمّك.. فأنت أبيض اللون ".

ثم استرسل يقول وقد تاهت نظراته وثقلت على لسانه كلماته:

– ألا تعرفون اسم الأب..أو اسم الأم.

قال فواز:

– "لا".

هزّ العجوز رأسه وقال بلهجة يأس مقطوع منها الرّجاء:

– " عشرون عاماً تغيّر المعالم.. تغيّر شكل الوجوه.. تجعل الإنسان تائها حتى عن نفسه. زمن طويل عاش فيه ناس، ومات فيه ناس، فاتركوا الأمر ليوم الخلاص. فليرحمنا الله جميعاً. إذا ضاع منك يا ولدي أب وأمّ ، وعوضك الله بدلا منهما فاحمد الله ، فقد أضعت ابنتين توأمين تركتهما على الشاطيء بحراسة أمهما. كانت قد ذهبت لقضاء حاجة، وعندما عادت لم تجدهما. جاءت تحمل لي الخبر، فبحثنا عنهما حتى كلّت أرجلنا.. وسألنا حتى كلّت ألسنتنا.. أرجو من الله أن يكون قد رعاهما والدان مثل والديك".

سالت دمعة من عينيه واستدار يودّعهما.

شردت لبيبة بفكرها إلى المخيم في بيروت تتذكر ، ثم هزّت صابرين وأمسكت بيد زهرة:

– " قد تكونانِ وفاء وسناء صديقتيك يا زهرة في المخيّم.. فقد ربتّهما جارتنا أم أحمد".

ركضت لبيبة خلف الرجل ترجع به وتسأله:

– " يا شيخ.. صف لي ابنتيك".

قال ولمعة أمل قد أنارت وجهه :

– " كانتا صغيرتين يا ابنتي . كيف أتذكّر" ؟

ثم قال : " هما شقراوتان. كنّا لا نستطيع أن نفرق بين واحدة وأخرى، إلاّ من وحمة كانت على وجه جميلة على خدّها الايسر " .

هتفت زهرة :

– " إنهّا سناء يا أمي. فالوحمة كبيرة على خدها. كانت دوما تخفيها تحت شعرها الأشقر ".

قالت صابرين تؤيدها:

– " نعم أنا أتذكر".

هتف الرّجل:

– أجد ابنتي بعد أكثر من عشرين عاما؟! الله أكبر.. الله أكبر.. سأزفّ البشرى إلى زوجتي. هل تتكرّمون علينا بالانتظار قليلا. لا تذهبوا أرجوكم.. لقد جاء الله بالفرج على أياديكم.. فاكسبوا ثواب عجوزين أعيتهما الحيلة وأعجزهما الكبر".

قال فوّاز:

– " سننتظرك يا شيخ.. أنا أعرف النّاس بلهفة لقاء فلذات القلوب".

قال الشيخ:

– " أكملوا معروفكم، وأرسلوا أحدا معي حتى يطمئنّ قلبي، ويكون شاهدا يؤيد قولي عند زوجتي. لقد لحقت شعاع الأمل حتى نبع حرارته فأحرقه .. ولم تعد تؤمن به".

تأبط ذراع فوّاز وصاحَبه إلى بيته. وقبل أن يصل إلى الباب. صاح الشّيخ بصوت الفرحة يوقظ زوجته التي أغفى عينيها الكبر:

– " جئتك بوجه الخير يحمل البشرى اليك . جميلة وفاطمة في بيروت".

قالت واليأس يزحف في عينيها كطفل يحبو:

- " اجلس أيّها العجوز.. لقد أكل الخرف عقلك..عشرون عاما وأنت تركض وراء وهم حتى ملّ الأمل رؤية وجهك.. كل يوم تقتحم عليه بابه. أقلقته ، فاخجل من وجه ربّك. المفقود لا يعود.. تفضّل اجلس يا ولدي ، واذهب أنت وهات ما تكرم به ضيفك".

قال فوّاز:

- " لا تفقدي الأمل يا خالة.. لا شيء كثير على الله.. عسى أن يكون الله قد أذن بلمّ شملكما مع ابنتيكما".

بعث كلام فوّاز أملا جديدا في نفس العجوز، فانتعشت وسألت فوّاز أن يمدّ لها يد العون، فأمسك بيدها وأعانها:

قال العجوزان يحثّان فوّاز على السّرعة:

- " هيّا إلى بيروت حتى لا نتأخّر .. فالفرحة تضيّق الصّبر في صدورنا، والشّوق يركب جناحين يطيران بقلوبنا. ترى متى نكحّل أعيننا برؤية أحبابنا"؟

قال فوّاز:

- " اصبرا قليلا. أريد أن أبحث عن أمي وأبي".

قالت العجوز:

- " يا ولدي. قلبك قلب شاب يصبر، أما قلوبنا فقد شاخت، أكلها الصّبر والانتظار وفقدان الأمل .. نخاف أن نموت ولا نراهما".

تلفّت فوّاز يسأل العيون حوله ، فوجدها مليئة بالشّفقة:

- " أبشرا.. هيا إلى بيروت.. فلن يطول انتظاركما.. علّ الله يكتب لي ثوابكما.. ويكافئني بلقاء أمّي وأبي."

ثمّ رفع عقيرته في سماء صيدا وصاح:

- " انتظري يا صيدا . لي فيك أحباء هم جذوري وسبب وجودي . إنْ تاهت عنهم العين فهم في القلب شمعة شوق".

عاد الجميع مع فرحة العجوزين.

قال فوّاز:

- " سبحان الله.. ذهبت أبحث عن أمي وأبي، فاذا بي أجد ضالة النّاس وأتيه عن ضالّتي".

كان وجود العجوزين قد خفف من حدّة التوتر بين فوّاز وأبويه ، فقد كانا الدّليل على أن الضّياع كان عاماً شاملاً، وأن فوّاز ليس وحيداً في مأساته.

في طريق العودة كانت زهرة هي هدف العجوزين.. فهي صديقة ابنتيهما، فلم يكفّا عن الاسئلة: هل تزوجتا؟ خاطبتان؟ جميلتان؟ متعلمتان؟ هل تعملان؟ كيف معاملة الراعيين لهما؟ أسئلة كانت تنبعث من قلبين ملهوفين بالشّوق والخوف والأمل. نزل العجوزان إلى شاطيء بيروت واللهفة والشّوق يقويان عزيمتهما ويتغلبان على عجزهما، فكانا يسيران أمام المجموعة يستحثّانهم على السّرعة.

اتّجه الجميع إلى بيت سليمان الحسن " أبو أحمد ". طرق عمران الباب:

– " يا أبا أحمد معي ضيوف لك".

رحب أبو أحمد بالجميع: "أهلا وسهلا ".

التّساؤل يملأ قلبه: ترى .. من هذان العجوزان؟

بقيت الحيرة علامة سؤال معلقة على وجه أبي أحمد. دخلت رتيبة " أم أحمد " ترحّب بالضّيوف وتتفحص بنظراتها وجهَي العجوزين.

قال الشيخ يعرف بنفسه ، وقد نفذ صبره:

– " أنا محفوظ سالم.. وزوجتي حفيظة سالم إبنة عمي. نحن والدا جميلة وفاطمة".

قالت رتيبة أم أحمد ، وقد علت دقّات قلبها ، وامتقع وجهها باللون الاصفر :

– " لا يوجد عندنا بنات بهذا الاسم".

نظر الجميع الى " أبو أحمد ": ترى هل ينكر هو الآخر؟

كان فاغراً فاه، كأنه أخرس لا يتكلّم. أيّ صاعقة هبطت على هذا البيت؟!

علا صوت فوّاز يوقظه من صدمته:

– " لديكما أختان توأمان.. هذان العجوزان هما والداهما الحقيقيان" .

ضرب على رأسه يرفع نفسه من حلم قديم بعيد على الشاطيء. مضى عشرون عاما والبنتان تبكيان، وهو يسأل لمن هاتان البنتان؟ ولا مجيب.. فجميع من على الشاطيء تنصل وأنكر.

قال قائل: " لا بد ان أهلهما قد نسياهما على الشاطيء، وقد هربا مع الهاربين إلى بيروت على ظهر مركب . فحملهما على مركبه يكسب الثواب".

قال فواز وقد تصدّر الحديث يستجوبهما كأنه محقّق:

– " كيف تجرّأتما على أخذ طفلتين ليستا لكما"؟

قال أبو أحمد غاضبا من لهجة فواز وتهمته له ولزوجته:

- " حافظ على كلامك يا فوّاز. نحن لسنا لصوصا إنّما طلاب ثواب ومعروف. طفلتان تائهتان على الشاطيء ، أنكر الجميع ابوّتهما، هل نتركهما للبحر يغرقهما ، أم للجوع يقتلهما؟ هما الدّين والرحمة فقط من الزمنا بهما في وقت كان يصعب على النّاس إيجاد ما يقتاتون به ".

قالت العجوز :

- " لو انتظرتما قليلاً كنت آتية لآخذهما. ذهبت أقضي حاجتي، فاستوقفني بعض المهاجرين من أهلي . أخذنا الكلام واللهفة والسؤل ، وعندما عدت لم أجدهما ".

قالت أم أحمد تستغرب كلامها:

- " أم تلهّت عن ابنتيها بالكلام، وتأتي بعد عشرين عاما وتدّعي حق الأمومة فيهما؟ إنّهما ابنتاي. كبرتا في حضني ونامتا على صدري. احطتهما بعنايتي وطول صبري. سهر الليالي أضعف بصري ونال من صحتي. تأتين اليوم وتدّعين أنهما لك"؟

قال الشّيخ وقد كان حكيماً:

- " يا ابنتي، الحق الأوّل دائما في البنوّة للرّحم".

قالت أم أحمد بحرقة:

- " وأنا" ؟

أجاب الشيّخ:

- " أمّا أنت فقد نلت الثّواب".

قالت أم أحمد:

- " أنت لا تسترنّ نقودا يا شيخ محفوظ.. أنت تأخذ قلبي.. روحي.. عقلي.. عيوني.. حبي. تعبي.. صبري ".

- " وهذا لك عليه ثواب".

ثار البركان في قلب أبي أحمد عندما رأى دموع زوجته ترسم على وجهها مرّ فراق ابنتيهما، وصوتها بالذّل والتوسّل يتوّد:

- " ابنتاي لن تخرجا من هنا إلا على جثّتي".

قال الشيخ ثائرا:

- " لا تستهن بشيخوختي يا رجل. عرضي عندك.. سيكون موتك على يديّ."

وبدأ الانفعال يرعش جسد الشّيخ، يداه تنتفضان ولحيته ترتعش، والكلام يخرج مع اللهاث متقطّعا. أثار منظر، فوزاً فأمسك بتلابيب أبي أحمد يصرخ:

– " عصابة سرقة الأطفال.. قطّاع طرق.. تدّعون عمل الخير وأنتم لصوص.. لا ضمير عندكم".

هجم نمر العبد على ابنه فواز وأمسك به يخلّص أبا أحمد من بين يديه، واستمرّ فوّاز يصرخ، ثم نظر الى صابرين ونمر العبد:

– " هل سمعتما؟ لو انتظرا قليلا لرجعت الأم وأخذت ابنتيها، وأنتما لو انتظرتما قليلا لربّيت أنا في حضن أبي وأمي".

طفح الكيل عند نمر العبد، فأمسك بفواز يدفعه بعيداً عن أبي أحمد ويصرخ:

– " ماذا تريد منّا؟ رماك أبوك.. أعتنينا بك وآويناك في بيتنا. ألا تشكر"؟

علا الصّياح، ودخل الخوف قلوب النّساء، فأخذن يستنجدن بالحكمة والعقل للفصل بين الرّجال.. أمسك زيّاد بفوّاز.. وأمسك عمران بأبي أحمد، والشّيخ ثائر يهدّد ويتوعّد.

قال عمران:

– " اهدأ يا شيخ محفوظ، فجميعنا قد استعجلنا.. نحضر البنتين أولا ونتأكّد".

وقف الجميع جامدين لا يتكلّمون.. علت دقّات القلوب، واللسان ساكت لا يتكلّم.

قال عمران:

– " اذهبي يا زهرة واستدعي وفاء وسناء ".

حضرت البنتان والخوف قد ألجم لساني الشّيخ محفوظ وزوجته وأبا أحمد وزوجته، فالقلوب تقرع قرع الطّبول، والصّمت قتل الصبر.. القلوب تصلّي، والألسن تستدعي. الشّيخ محفوظ وزوجته يطلبان من الله أن يعوّض صبرهما خيراً، وأبو أحمد وزوجته يرجوان من الله أن لا يضيع لهما تعباً في ابنتيهما.

صاح فواز:

– " فليتكلّم أحدكم.. الأعصاب لم تعد تحتمل".

قال عمران يحدّث البنتين:

– " هذان العجوزان أضاعا قبل عشرين عاما بنتين توأمين، وعاطفة الأمومة والأبوّة ما زالت حتى اليوم تسأل. هل تذكران شيئا عن الماضي"؟

قالت وفاء:

– " كنت صغيرة. الماضي في ذاكرتي خيال. أذكر شجرة اسكيدنيا كبيرة كانت تظل بيتنا في صفد ".

قالت العجوز تنكر قول وفاء:

– " بل أنت من يافا.. ابنة الساحل.. أنا أمّك وهذا أبوك.. وكان اسمك جميلة، وكان أمام بيتنا شجرة برتقال، وليس أسكيدنيا".

قالت سناء:

– " أنا أذكر شجرة أمام بيتنا.. الذّاكرة تعود بي خيالاً بعيداً لا أستوضحه".

قالت العجوز:

– " بل أنت من يافا.. إبنة الساحل.. ونحن أبواك. كان اسمك فاطمة.. لقد كنت أميّزك عن اختك جميلة من الوحمة التي على خدك الأيسر".

نهض العجوزان محفوظ وحفيظة يتأكدان من الوحمة على خد ابنتهما .. خالاً كبيراً أسمرعلى خدّها الأيمن، تخجل منه وتداريه بشعرها الأشقر.

فأسقط في يد العجوزين واعتذرا يفطر قلبيهما اليأس وخيبة الأمل.

تأبّطت العجوز ذراع زوجها يسلكان طريق العودة .. ويدعوان لفوّاز والبنتين أن يجمع الله شمل الجميع بأهاليهم . أخذت العجوز تلوم زوجها ومرارة خيبة الأمل تعصر دمعها:

– " كلّما اندملت الجراح يا محفوظ تعود وتثوّرها بفرحة الأمل الكاذب، ويعود النّزف من جديد. يا لك من زوج عنيد. قلت لك أن المفقود لا يعود، وأنت لا تريد أن تصدّقني" .

لحق بهما نمر العبد يطيب خاطرهما. ويمسح أحزانهما، فقد كان تأثّر بهما شديدا. وعاد من فور يبحر في مركبه يبحث عن رجل المخدرات عطيوة ، فالأحداث كبيرة أغرقت الصّبر وشلّت العقل والتفكير . وكان اليأس قد استفحل . وما عاد للخمرة قدرة على أن تنسيه وترفّه عنه، فقرر أن يبيع نفسه للمغامرة.. رأى مركب عطيوة من بعيد فاتجه إليه يصرخ وينادي:

– " أيّها الشّيطان.. أيّها الشّيطان.. جئت أسلّمك نفسي ".

رحب به عطيوة وقد أدرك يأسه وحالته النّفسية المتدهورة:

– " ما دامت الخمرة لم تنفع مع حالتك هذه خذ البودرة البيضاء وجرّب ".

قال نمر العبد:

– " لقد رأيتها في المنام تقتلني" .

قال عطيوة:

– " إنهّا أضغاث أحلام، والتّجربة خير برهان.. خذ.. لن تضرّك في شيء" .

أخذ نمر العبد لأول مرة في حياته قليلا من البودرة البيضاء. قربها من أنفه، وأخذ شهيقا ملأ به رئتيه وزفر ، فخرجت مع الزفرة المشاكل والهموم ، وامتلأ الرأس كيفاً والصدر حبوراً، وعلا صوته على الموج يغني طرباً:

– ما أجمل الدّنيا مع البودرة.. أين كنت يا قاتلة حزني وهمّي؟

(28)

جاء اليوم الموعود، وأعطى عطيوة نمر العبد الأمر بالابحار فنفّذ الأمر والتزم بالأوامر والارشادات. وجد كل شيء ممهداً له، ومرّ على الحدود في الوقت المحدّد، فأغفله الجنود ، ثم واصل إبحاره إلى يافا ليصلها في قلب الليل في وقت محدد أيضا ، ومكان معين، فلم يجد صعوبة ، ولم يعترضه أحد . استقبله الرّجال واستبقوه في مركب آخر ليأخذوا المركب ويفرغوا حمولته ، وعادوا إليه ليحدّدوا له موعد المغادرة ، فالتزم بها وعاد إلى بيروت ليجد عطيوة في الانتظار يسأله عن رسالة، فردّد عليه بعض الكلمات كالببغاء لا يفقه منها شيئا.

شكر، وربّت على كتفه مسروراً وقال:

– " سأعرض عليك أمرين تختار منهما واحداً: إما أن تبيعنا مركبك، أو تؤجرنا إياه مدة ساعة بالمبلغ الذي تريد، وبعدها نعيده اليك".

فهم نمر العبد أن في مركبه شيئا ذا قيمة.. فاتفق معه على مبلغ محدد يسترجع مركبه بعد ذلك.

بعد ساعة عاد المركب، واستلم نمر العبد المبلغ المتّفق عليه .

أدمن نمر العبد المخدرات.. واستعذب السّرحان والتّوهان.

كان يهرب إليهما وينسى.. فالذّكريات المؤلمة كثيرة .. خاصة وأنّه لم يعد يجد لنفسه مكانا في هذه الدّنيا، فأخذ يهرب إلى دنيا الأحلام، وما أسهل الطّريق إليها، فشمّة صغيرة من البودرة تجوب به الدّنيا منتشيا سعيداً.

لكن الأمور تطوّرت.. والهذيان عنده أصبح خطيراً.. خاصة وأنه أصبح يعرف الكثير من خفايا العصابة.. فنهاه عطيوة وحذّره. لكنّ الإدمان كان قد استفحل. بحث رجال العصابة أمره، فخافوا أن يفلت لسانه ويكشف الأسرار، فقرّروا تصفيته.

ذات ليلة، وبينما كان نمر العبد ينعم بالحلم والنّشوة، هجم عليه عطيوة بمركبه الضخم يحطم مركبه الصغير ، فأخذ نمر العبد يعوم نحو الساحل ، لكن عطيوة أمر رجاله بأن يدوروا دوامة بالمركب

حول نمر العبد. واستمّر دوران المركب ، ونمر العبد يصرخ ويستنجد حتى كلّت يداه ويبست قدماه وخارت قواه وانتهت مقاومته، فكان لقمة سائغة للبحر الذي كان دائما يتوق أن يكون له فيه قبر.

عاد المركب حطاماً.. قطع خشب تعوم على وجه الماء. تحمل نعي نمر العبد. حزن الجميع على موته، إلا أنّ عمران كان أكثر من افتقده. كان في كل يوم عند الغروب يعتلي المركب ويبحر، فيقرأ الفاتحة على روحه ويجول بعينيه في أرجاء البحر البعيدة، حيث يتّصل طرف البحر بطرف السّماء.. يطلقان السّحاب كأسراب الحمام الأبيض، ويعود إلى بيته يجترّ أحزان فقدان صديق عمر.

ذات صباح جاء رجل يطرق باب البيت يسأل عن عمران الحمد:

– " أنا موظّف أعمل عند المحامي أنطون نجيب.. تفضّل معي.. هناك ما يهمّك.

ذهب عمران مع الرجل الى مكتب المحامي ودخل غرفة الجلوس فوجد صابرين وفوازاً في الانتظار. نظروا إلى بعضهم ، وأخذت العيون تتساءل:

– ترى؟ ماذا يريد المحامي منّا؟

لم تطل الحيرة بهم. دقائق معدودات حين دخل المحامي أنطون وجلس خلف مكتبه ينهي التخمين والتّساؤل:

– " ترك نمر العبد رحمه الله عندي وصيّة، وحيث أنّكم أنتم الثلاثة المعنيّون بالأمر، فقد رأيت أن استدعيكم . إن موكّلي المرحوم نمر العبد قد أوصى بما يملك إلى صديقه عمران الحمد . قيمة المبلغ مائة وعشرون ألف دولار. وقدم الوصيّة إلى صابرين تقرأها، ثم فوّاز. وقفت صابرين ترغي وتزبد محتجّة:

– " لا تدفع المال إلى عمران.. سأرفع قضية أدافع فيها عن حقّي في إرث زوجي وكذلك ابني".

قال المحامي:

– " أنصحك أن لا تضيّعي نقودك هباءاً للمحامين ، فلم يترك نمر العبد ثغرة تستطيعان أن تنفذا منها لتحصلا على شيء من ثروته".

أمسك فوّاز بأمّه مذهولاً يساعدها على الثّبات ، فالصّدمة أفقدتها الاتّزان، وأفقدته فهم ما يجري حوله من أحداث.

استوقف عمران فوّاز يقول:

– " ولدي فوّاز.. محبتك في قلبي أكثر كثيرا من المال . خذ مال أبيك ، فأنت أحق منّي به " .

هزّ فوّاز رأسه ندماً:

– " لو أنّني كنت أستحقّه ما كان أبي يحرمني منه.. هو لك يا عمّي عمران، فأنت الّذي كنت دوما الأقرب إلى قلبه" .

ذهب عمران إلى بيته يحمل مائة وعشرين الف دولار.. وطارت الأحلام في البيت.. رغبت لبيبة أن تنتقل من المخيم وتشتري شقة في عمارة شاهقة.

استوقفها عمران يقول:

– " كان صديقي نمر العبد يكرر أن يكون معلقا بين الأرض والسّماء. لا تضيّعي النقود يا لبيبة. دعينا نفرح أولا بزهرة وفواز وبعدها نفكر. يعزّ عليّ أن آخذ مال أبيه أمام عينيه.. فوّاز يعيش اليوم مع الاحزان بعد كشف سر، فلا يفكّر في شيء سوى البحث عن أبيه وأمه الحقيقيين، حتى أننا أصبحنا قليلاً ما نراه".

ثم استدعى ابنته:

– " يا زهرة.. كان لنا يوما مع فوّاز كلمة عن الخطوبة.. وقد كان يستعجلها. أراه اليوم تقاعس! ما الأمر.. إلى متى يا ابنتي..؟؟ وقد رفضت كل من تقدّم لخطبتك! "

– " إنّ جرح فواز كبير يا أبي. يدخل في روعه أن الرّجل حمله لقيطاً ورمى به.. فعقله لا يستوعب أن يرمى أب بابنه.. كما أنّه يحمّل نفسه وزر غرق أبيه.. فهو يظنّ أن اليأس دفع بأبيه إلى الموت.. كما أن العقوق ما زل متسلّطا على ضمير، ألم يضرب أباه؟

الحزن ضباب كثيف يغلّف نفسه ويثير شجونه، فلا عقل يعي، ولا عين ترى، ولا أذن تسمع.

ترك البحر والصّيد وانضمّ إلى منظّمة التّحرير الفلسطينيّة يقضي جلّ وقته في التّدريب.

فالتّدريب مكثّف.. والتّعليمات مشدّدة.. والرّجال مستنفرون كأننا في حالة طوارىء، وكأنّ الحرب ستقع غدا.

– كان الله في عونه يا ابنتي.. ولكن ماذا عنك ..؟؟ إلى متى .. إلى متى ستربطين مصيرك بمصير، ؟! سيفوتك قطار الزّواج وأنت في الإنتظار" .

– " لا تقلق يا أبي ..لن أرتبط بغير، .. ولن أتخلّى عنه.. أنا واثقة أنه سيتجاوز محنته قريباً .. ولكن علينا أن نكون عوناً له".

(29)

كانت صدمة صابرين كبيرة في إرث زوجها. اعتبرتها رمز للنّكران والجحود. تذكرت تضحياتها ومراحل العذاب التي مرّت بها.. ضاق صدرها.. وصعب تنفسها. ركض فواز يحضر الطّبيب، لكن الموت سبق.

بعد أيام.. طُرق الباب.. فاذا بهم ثلاثة رجال. رحّب بهم فواز وطلب أن يعرّفوا على أنفسهم. قالوا:

– " ماذا تفعل هنا"؟

– " هذا بيتي، وصابرين صاحبة البيت رحمها الله أمّي".

– " لا يرث أحد بالتّبني.. أموال صابرين ستؤول جميعها للدولة".

خرج فواز كما وجده نمر العبد وصابرين في مدينة صيدا، بلباسه فقط. ذهب إلى بيت آل عمران وقلبه يقطر أسى يسأل: هل الأم فقط هي التي تحمل في رحمها؟ رحمك الله يا صابرين. فقد ظلمتك الدّنيا يا أمّي. ثم تابع حديثه:

– " ما عدت أملك مهرك يا زهرة. أخذني نمر العبد وصابرين من الشّارع وها أنا قد عدت الى الشّارع، لا أسرة ألتجئ إليها، ولا مال أعتمد عليه".

قالت:

–" مصائب الدّنيا كلها أصغر من أن تقف في طريق سعادتنا وبناء عش حبّنا، فالإنسان كان موجوداً قبل المال. الدّنيا امتحان، والشّدائد للرّجال. اصبر ولا تكن جبانا".

استفزّه كلامها، وثار في وجهها:

– " كيف؟ هل سنبني إلى جوار بيت أهلك بيتا من الصّفيح".

– " أعيش معك في العراء. أفترش الأرض وألتحف السّماء. لا.. لا.. لن يقوى علينا الفراق".

– " دعك من الأحلام يا زهرة، فأنا ما زلت أذكر الفقر، وأمي خلف ماكنة الخياطة تخيط للناس بالمقايضة مقابل رغيف خبز أوحفنة طحين، وجميع ملابسنا كانت من مخلّفات ما يجود به المحسنون".

– " صبرنا ووصلنا يا فوّاز".

– " وصلنا إلى ماذا"؟

– " لقد وصلت أنت إلى مركز جيد في منظمة التّحرير، أما أنا فأعتقد أن عملي جيّد، وأنا سعيدة به".

ثم خفضت بصرها خجلة تتمّ حديثها:

– " ووصلنا إلى قلب الحبّ معا ننهل من عطائه ونطير على جناحه وننظر إلى الدنيا بعين خياله. كل هذا وتنكر ما حبانا الله من نعمه؟ أنت طمّاع، فلو حرمتني الدّنيا كلّ شيء وأعطتني فوز تكون قد أكرَمتني".

– " بارك الله بك، إنّك تهونين عليّ مصابي، ولكنّ جرحي لا يشفيه كلام يا زهرة، جرحي عميق، فما رضي عنّي في حياتي أم ولا أب. لذا قرّرت أن أرتدّ إلى أمّ الشّعب الفلسطيني.. أعود إلى حضنها.. أنعم بدفء شمسها وآكل من خير أرضها، وعندما ينتهي الأجل يحضنني ترابها".

قالت لبيبة تدقّق النّظر في ملامح وجهه، تزن عقله ، فقد ظنّت أن الهموم قد أورثته الجنون.

– " من تقصد يا ولدي؟ إذا كنت تقصد البلاد.. لا ترم نفسك في حضن الأحلام، فالأمّ اليوم يرضع خيرها لئام تمسّكوا بها واغتصبوا حق أهلها.. وأصبحت العودة خيالاً".

قال ينكر عليها قولها:

– " لا.. لا تخطئي يا خالة لبيبة. إذا كان الضّعف قد أبعدنا عنها فحبّها عميق في صدورنا، يصل حد العظام".

سنبني هياكلنا ونعود من جديد، وتكون لنا عودة أجدادنا رجال صلاح الدّين .

– " بارك الله فيك يا ولدي أنت وأمثالك من الرّجال.. رنّني إلى عكا، فالشّوق فاض إلى سورها وجامع الجزّار، وإلى بيتي وشجيرات البرتقال".

– " أبشري يا خاله لبيبة.. تعالي معي إلى مركز المنظّمة. سترين الرّجال.. كلّ يحمل روحه على كفّه، وفي الأخرى عود ثقاب، يشعلها ناراً تحرق العدو وتنير سماء الأوطان".

(30)

حلّ الغروب.. وعاد زيّاد وعمران فسرّوا لوجود فوّاز.

جهّزت زهرة مائدة العشاء.. وسار حديث الذّكريات.. تارة تدمع العين وتارة ترتسم بسمة على الشّفاه، إلى أن انتصف الليل.. استأذن فوّاز بالذّهاب. أمسك به عمران وليبية:

- " إلى أين؟ فما عاد لك بيت" ؟

- " سأعود إلى المعسكر في منظّمة التّحرير.. هناك بيتي".

اعترض عليه زيّاد وزهرة.. وأصرّ الجميع أن يبقوه إلاّ أنه رفض، وسار في قلب الليل مع الهدوء، لا يسمع سوى نقل خطواته رتيبة تتناغم مع خطوات مراحل عمر، فلم يشعر بطول المسافة، ووجد نفسه أمام معسكر، يقلب صفحات تاريخ أيّامه: ضياع.. تشرّد.. يأس.. عذاب.. أخذ يحدث نفسه: "إلى من أنتمي؟ ما أشدّ شوقي إلى أن تجتمع روحي مع روح أمّي وأبي حتى أعرف سرّ هجرهم لي".

نام تدور في رأسه هذه الأفكار.. دوّامة تارة تنزل به إلى قعر البحر.. وتارة أخرى تحمله إلى سطحه.. يأمل أن يلتقط نسمة هواء.. ولكنها تعود به إلى القعر ترميه في غياهب المجهول. فرأى فيما يراه النّائم حلما عجيبا: رأى نفسه طفلا وحيداً في ساحة كبيرة، تائها .. يحبو وحوله مئات الأمهات.. كان يقف عند كل أمّ يحاول أن يصعد إلى حجرها.. قريبا من صدرها، جائعا، يشمّ رائحة الحليب:

- " هل أنت أمي" ؟

تهزّ رأسها نفياً، ويرى ابنها في حجرها يسبح في بحر حنانها، فيترك الطّفل ثدي أمه يضحك ، ويعود فيلقم ثديها والحليب ينساب شهيّا من بين شفتيه، فيتلمّظ ويواصل زحفه إلى أمّ أخرى يكرر عليها السّؤال نفسه. الجميع ينكرونه ويبعدونه عن أطفالهم كأنّه وباء. مضت الأيام، والطّفل أصبح رجلا وهو ما زال يبحث عن أمّه وأبيه، إلى أن صادف شيخاً طاعناً في السّن.. سأله الشيخ:

- " لماذا تقلب الأرض يا ولدي؟ عن ماذا تبحث"؟

- " أبحث عن أمّي وأبي".

- " لا تتعب نفسك يا ولدي. لقد رحلا عن الأرض. إنهّما يسكنان السّماء منذ قديم الزّمان".

بكى فوّاز:

- " إنّني لا أستطيع أن أصعد إلى السّماء. ماذا أفعل"؟

- " لا تحزن يا ولدي".

فتح الشيخ عباءته وأخرج جناحين وقال:

- " خذ هذين الجناحين يطيران بك إلى أعلى سماء".

انطلق فوّاز فرحاً تطير به الأشواق، حتى وصل إلى نجمة تتلألأ في الفضاء.. طرق بابها.. ففتح له ملاك.. سأل:

- " ماذا تريد"؟

- " أبحث عن أمّي وأبي" .

- " ما اسم أبيك "؟

- " لا ادري" ؟

- " ما اسم أمّك "؟

- " لا ادري"؟

- " ما اسمك"؟

- " لا أدري".

أقفل الباب في وجهه:

- " عندما تعرف تأتيني وأبحث معك عنهما".

وقف فوّاز مع الحيرة على سطح النّجمة، يجول بنظره في الفضاء الرّحب.. السّماء مليئة بالنّجوم. بريقها يخطف الأبصار.

- " ترى في أيّ نجمة تسكنان يا أبي وأمّي؟ بحثت عنكما حبواً، والشّعر ما زل زغبا.. طويت الأرض بحثاً عنكما راجلاً.. جناحاي في السّماء طائرا.. لكنّني لم أجدكما.. سأطرق باب النّجوم نجمة نجمة حتّى نلتقي".

طرق باب معظم النّجوم، والملائكة دوما تسأل:

- " كيف نتعرّف إلى أهلك وأنت لا تعرف اسمك، وليس لأهلك عنوان"؟

إلى أن صادف على أحد النّجوم ملاكاً طيباً من الأخيار فقال:

- " هناك في قلب البعد، خلف درب التّبان ، نجم الحيرة والضّياع.. اسأل عنه.. فهو لا يحوي سوى أهل التّائهين الضّائعين. هناك تجد أباك وأمك ".

- " كيف أتعرّف عليهما وأنا لا أعرف لهما شكلا أو هيئة، فقد رميتني رضيعاً".

- " يا ولدي.. الأمّ لا تنتيه عن وليدها.. عندما تراك سيخفق قلبها في صدرها وتتعرّف عليك".

انطلق فواز يطير في الفضاء أيّاما وشهورا .. حتّى وصل إلى نجم الحيرة والضّياع.. رأت الأمّ ولدها فهجمت عليه تحضنه وتغسله بدموع الشّوق .. ورعشة البكاء تهزّ جسدها.. سألها فواز:

-" أين أبي؟ لماذا تعيشين هنا وحدك".

- " رأيت عذاب الدّنيا في عشرة أبيك ، فقرّرت أن أنجو بنفسي".

- " وتتركينني" !!؟

- " ما كان عندي صبر على معاشرته.. فظّ.. غليظ.. لا شفقة في قلبه ولا رحمة".

- " تضحّين بابنك من أجل أن تنجي بنفسك!!؟

أنت لست أمّا. هيّا اغربي عن وجهي".

ثم عاد فواز للملاك يقول:

- " أرجوك خذني إلى أبي".

التقى الأب والولد في أحضان الشّوق. قال فواز عاتبا:

- " لماذا رميتني في قلب المجهول وتخلّيت عنّي"؟

- " أمّك تخلّت عنك وعني، فضاقت الدّنيا في وجهي، وكان الجوع قد أكل معدتك.. وكنت تبكي. رأيت صابرين ترضع ولدها، والحليب يفيض غزيرا من فمه فاشتهيته لك. وعرفت أن زوجها صيّاد. ورزق البحر وفير. فقلت في نفسي أنّك ستكون معهم في مأمن من الفقر والجوع. وكنت فقير الحال لا أملك لك ثمن الحليب".

- لماذا لم ترنّني إلى أمي"؟

- " حتّى أحرق قلبها كما حرقت قلبي".

- " تضحّي بي وترميني في عالم الضّياع من أجل أن تنتقم من أمي؟

أنت لست أبا.. هيا اغرب عن وجهي.

أبي نمر العبد.. وأمّي صابرين.. يا لعقوقي.. آه ما أجهلني".

وعاد من فوره إلى الأرض.. وأطعم جناحيه للنّار.. وأقسم أن لا تكون له عودة إلى أبيه وأمه.

استيقظ من نومه يستعيذ بالله من شرّ هذا الحلم. وما أن شقّ الصّباح حتى ذهب إلى خيمة آل عمران يقصّ الحلم على عمران.

قال عمران:

- " اتّق الله في نفسك يا ولدي، فأنت تحمّلها فوق طاقتها. غدا عندما تسألك أمام الله لماذا كنت تعذّبها في الدنيا، ماذا ستقول؟ هل ستقول أنّك لم تكن راضياً بحكم الله وقضائه وقدره؟ شاء الله لك هذا، فاصبر تنل الثواب، وإلا ستبقى أسير القلق وأضعاث الأحلام تعذبك مدى عمرك. إن كنت قد فقدت الأب والأم، فالله سبحانه لم ينسَك، فقد عوّضك بوالدين رعياك وأحبّاك: فاستغفر ربّك وادع لهما بالخير.. مال أبيك أمانة عندي. طالت خطبتك يا ولدي.. خذ عروسك واستعذ بالله وابدأ حياة جديدة. مائة وعشرون الف دولار تكفل لك حياة سهلة رغدة.

صاح فواز مرحاً.. مطمئناً.. مرتاح البال.. ينادي زهرة:

- " أين أنت يا زهرة؟

اشتقت إليك.. حدّدي يوم الزّفاف فقد صفت نفسي وعاد إليّ عقلي".

فرح آل عمران بتصالح فواز مع نفسه.. واقترحت لبيبة أن يشتروا شقّة واسعة يسكن فيها الجميع، فشاركوها الرأي".

قال فواز للبيبة:

- " منذ الغد يا حماتي، انزلي إلى السوق وجهزي جهاز يليق بأجمل عروس".

عاد فواز إلى المعسكر، فوجد أمراً يستدعيه ليحضر أمام الضّابط المسؤول. ذهب إليه فاستقبله هاشا بآشاً يقول:

- " جهّز نفسك يا فواز . أمامك مهمّة صعبة . اخترناك لها بعد أن استعرضنا جميع الرّجال. تدريبك سيستمر ليل نهار حتى نتأكد أن المهمة ستؤدي المطلوب وتعود لنا سالما بإذن الله".

استمر التّدريب قاسيا شرسا في البر والبحر شهرين كاملين، وزهرة لا ترى فوازاً إلا لماماً، فدخل الشّك قلب عمران:

- " ترى ما الذي يشغل فؤازاً عنا؟

مضى شهران لم يزرنا فيهما مرة واحدة" !!

في نهاية الشّهر الثاني من التّدريب، استدعى الضابط المسؤول فواز:

- " انتهى اليوم تدريبك، تأخذ اليوم راحة وتأتي لمقابلتي بعد غد مساءاً".

قال فوّاز:

- " عُلم سيّدي".

أدّى التّحية وذهب من فوره إلى بيت آل عمران . استقبله الجميع بالقبل والأحضان، وبشّرته لبيبة بأنها اشترت معظم جهاز العرس.. وأنّ عمران ما زال يفاوض أحد أصحاب العمارات لشراء شقّة تطلّ على البحر فسرّته الأخبار ، وطال الحديث حتى منتصف الليل عندما طلب أن يحدّث زهرة على انفراد.

قال:

– " يا شعاع الأمل الذي أتعلّق به وأتمنّى أن يصل بي إلى الإستقرار والسّعادة . غداً سأذهب في مهمة يقال إنها صعبة.

تأكّدي أنّي لو كنت أتوق أن أرجع حيّا .. فمن أجلك أنت. حبال حبّك هي التي ستشدّني عائدا إليك رجلا يثق بنفسه، قد أدّى خدمة لوطنه" .

صدمها قوله.. صرخت:

– " فوّاز.. من دخل الحدود صعب عليه أن يعود.. تخلَّ عن هذه المهمة يا فوّاز، فالدّنيا بدأت تضحك لنا".

– " تخلّيت عن أمّي وأبي، ورأيت ما آل إليه حالي. ترى، ما الذي سيحلّ بي لو تخلّيت عن وطني"؟

– " وطنك هنا.. قلبي.. صدري.. حناني".

– " وطني تراب وأرض وشمس وهواء وجذور سقتني من أجل أن أورق وأعطّر الدّنيا برائحة النوّار، وأقدم أزكى الثّمار. سأعود لك رجلا تعتزين به. حرّريني من قيود حبّك.. باركيني.. اطلقيني بركانا يزلزل لهبها، والنّار تتدفق طوفانا يطهّر أرض فلسطين من الغاصبين.

– " لن تخرج إلا على جثّتي.

– " بل سأخرج برضاك.. تصحبني دعواتك.. أغيب أيّاما وأعود لأجدك في انتظاري عروسا تنتظر عريسها. نخرج في زفّة والأحباب حولنا. الولد الأول أسميه على اسم أبي " نمر العبد والبنت اسمها "صابرين.. هل توافقين؟

– " لا تحلم.. فالأمر أكبر من ذلك وأخطر".

– " "إذا تقاعس أولاد فلسطين عن ولوج الخطر، من يتقدّم؟"

– " أنت وحيد في الدّنيا.

– "كيف أكون وحيدا وأنت معي؟"

– "إنّكَ تضحك على نفسك."

– " بل أنا الذي يضحك على الدّنيا. دوما تهدّدنا بالموت، أريدها أن ترى رجالاً يحضنون الموت من أجل بلاد تحيا".

سمع الجميع جدل فوّاز وزهرة.. أمسك عمران بيد ابنته وقال:

– " اذهب يا فوّاز.. الله معك.. جميعنا ندعو لك بالسّلامة.. وجميعنا ننتظرك، فلا تطل غيابك".

بكت زهرة على كتف أبيها، ووقف فوّاز عند باب الخيمة يلقي نظرة أخيرة .. فسمع الجميع ينفجرون بالبكاء.

مشى فوّاز يترك قلبه عند زهرة، يسير وحبال الحب تعرقل رجليه.. تشده ليرجع إليها.. ولكن طموحه كان كبيرا. كان يشعر أنه نكرة دون أهل. وقد ضاعت منه جذور، يطمح أن يقوم بعمل يورث له الخلود.. يطمح أن يجعل من جميع الشّعب أهله.. وهذه فرصة عمر.. يكون.. أو لا يكون.. زهرة تنادي بصوت الحب، والوطن ينادي بصوت الواجب.. صوت زهرة متعة الدنيا، وصوت الوطن خلود.

" لا.. لا تستبدلي يا نفس متعة الدّنيا بأبديّة الخلود. الحبّ يذوب في بحر أحزان الزّمان، أما حبّ الوطن فيبقى وساما يلمع على صدر الوجود".

كان فوّاز يشقّ طريقه إلى المعسكر، وكان الفجر يشقّ طريقه في السّماء ليصل الأرض في الميعاد.

كانت تؤخّر، الافكار، والفجر يحجبه الغمام.

هذا يريد للنّفس أن تصفو حتى يتّخذ قرارا. والفجر يريد للسماء أن تفسح له بين الغمام حتى يصل نور، واضحا للأنام.

(31)

في المساء، ذهب فواز يقابل الضابط حسب الميعاد.. قال له الضابط:

- " بعد ساعة ستأخذك سيّارة إلى صور..وهناك تتلقّى التعليمات".

ونهض الضّابط من وراء مكتبه.. سلّم على فوّاز بحرارة يرجو له التّوفيق والسّلامة.
وصل فوّاز إلى مركز القيادة في صور. هناك استلمه الضّابط المسؤول وعرّفه على اثنين من الزملاء:
- " رمضان ولقمان سيكونان لك شريكين في هذه المهمة يا فوّاز. أمامكم مدّة أسبوع تتعرّفون فيها على بعضكم قبل الإبحار للمهمّة. خلال الأسبوع سيكون تدريبكم متواصلاً حتى يكون هناك توافق وتناغم بينكم في الفكر والحركة، فتعتادوا على العمل المشترك".

في نهاية الأسبوع جمعهم الضّابط:
- " أمامكم مهمّة تؤدّونها في مدينة تل أبيب. يتولّى القيادة فواز، ويليه رمضان.
ستأخذون مركباً مطّاطياً مجهّزاً بما يلزم من غذاء وسلاح.
مع التّوفيق.. ستصلون شاطئ المدينة مركز العملية..."
أحضر خارطة مفصلة للمدينة توضّح الشّاطئ المطلوب النّزول فيه، والمباني القائمة عليه. أشار إلى الشّاطئ وقال:
- " تنزلون على هذا الشّاطئ عصراً. حوالي السّاعة الرابعة تقريباً. الزّمن محسوب بدقّة متناهية، حيث يكون الشّاطئ مليئاً بالمتنزّهين. تدجّجون أنفسكم بالسّلاح: قنابل يدويّة، أسلحة خفيفة أوتوماتيكيّة، ذخيرة ومكبّرات صوت.
تقومون بهجوم كاسح على الشاطئ، وتأخذون أكبر عدد ممكن من الرهائن. (وأشار إلى فندق يظهر واضحاً بالخريطة) ، وتلجأون إليه تحتمون به.

وأحضر خارطة مفصّلة للفندق توضح جميع الصّالات والغرف والمسالك، وأشار إلى أكثر الجهات أمناً في الفندق: " تحتمون هنا. في هذه الصّالة .. ظهركم محميّ، حيث لا مجال لغادر. وتكون جميع المسالك واضحة أمامكم. تسيطرون فيها على كل من في الدّاخل. وكذلك المدخل، فلا يدخل أحد أو يخرج إلا أمام أعينكم. فإذا كنتم رجالاً، وهذا ما نعهده بكم، تنجح العملية وتبدأون بالتّفاوض على الرهائن. مقابل أخواننا الأسرى في معتقلاتهم... نرسلكم وكلّنا أمل أنه سيتم تحريرهم على أياديكم. ستبدأون رحلتكم في قلب الليل، حيث أننا في آخر الشهر، وليل آخر الشّهر مظلم، يُسّهل لكم المهمة، وسيصعب على العين أن تراكم، ولا خوف من شعاع القمر أن يشي بكم".

مع منتصف الليل.. والشّاطئ مهجور.. وظلام الليل مستبدّ يغطّي البحر والشاطئ.. ولا صوت سوى صوت الموج تعباً.. يسحب همساته من صدر البحر أنينا.. ركب فواز وزميلاه المركب المطاطي وأبحروا تلاحقهم كلمات التّشجيع، والقادة يعقدون الأمل على نجاح العملية، ويحلمون بمكاسب عسكرية وطنيّة تدعم مسيرتهم النّضاليّة.

أبحر المركب بالفدائيّين الثلاثة. كان السّكون مخيفا لا يسمع الواحد منهم سوى دقات قلبه تتوالى برتابة. ساعة يحلم أنه في قلب المعركة فتضطرب النّفوس وتثور.. وساعة تهدأ.. فلكلّ حادثة حديث.

أراد فوّاز أن يكسر السّكون.. فللسّكون في قلب الليل رهبة.

قال:

- " لا تخافوا يا شباب، فلنا في هذا البحر من يدعمنا ساعة الضّيق".

سألا بلهفة:

- " من"؟

ضحك وقال:

- " أبي مات في البحر غريقاً. سوف يهبّ إلى نجدتنا إذا وجد أن ابنه في ضيق".

ضحك رمضان وصاح لقمان:

- " لا تذكر الموت على لسانك هذه السّاعة، فحساسيّة الموقف لا تتطلّب مثل هذا المزح".

قال فوّاز:

- " آسف يا صديق. أردت أن أذهب عنك الوحشة وأخفّف الضّيق".

قال لقمان والعصبيّة تشدّ أوتاره:

- " أنا لست مستوحشاً.. ولا أشعر بضيق، إنّما مزحك في مثل هذا الوقت غير مريح".

كان رمضان وقد خشي أن تتأزّم الأمور، فوضع لقمان قلق وليس في صالح أحد أن تتوتّر الأعصاب. قال:

- " ما رأيكم أن نتقاسم الرّاحة، فما زلنا في أوّل الطّريق: ينام اثنان ويسهر على الحراسة واحد".

قال فوّاز:

- " نعم الرأي يا رمضان. اذهبا للنوم، وبعدها آخذ أنا حصّتي من الرّاحة".

فاتخذا من أحد زوايا المركب مركزاً مريحاً وغطّا في نوم عميق.

نظر فوّاز حوله فرأى الأرض مظلمة. والسّماء مضيئة، تتلألأ فيها نجماتها. قال في نفسه: " زرت جميع النّجمات. ترى أيّ نجمة من هذه النّجمات يسكنها أمّي وأبي؟

ترى إذا مت، هل تذهب روحي إلى زمرة تحيطها كهالة القمر، تضيء خطوات دربها؟ أم تذهب في لقاء عتاب مع روحي أمي وأبي، صابرين ونمر العبد؟ أم تلك الأشباح المجهولة التي تنكرت ورمتني في أحضان الضياع تتنصّل من مسؤوليات بنوّتي".

طالت الأفكار، ترتفع وتنخفض مع الموجات، فتارة يثور وتارة يهدأ، ساعة يود أن يُركّب جناحين للمركب حتى يحسم النّتيجة، ففي الموت وحده فقط حل لغز حياته، وساعة يتذكّر زمرة، فيخاف أن يفرّق الموت بينهما، فيبحث عن طرق الحيطة والسّلامة".

(32)

في الوقت المحدّد استيقظ رمضان واستلم القيادة من فوّاز. استلقى فوّاز يأخذ قسطاً من الرّاحة. كانت عتمة ما قبل الفجر حالكة، وصوت ضربات الموج على حافة المركب ناعمة رتيبة خدّرت أعصابه وحملت النّعاس إلى عينيه، فرأى فيما يراه النّائم زهرة تصرخ في وجهه:

- " أنت دائم الشّكوى. تدّعي أنّك مظلوم وتحقد على أمّك وأبيك. فما الفرق بينك وبينهما؟ ولداك رمياك ليتخلّصا من مسؤوليّات بنوتك، وأنت ترميني لتتخلّص من مسؤوليّات زواجك منّي " .

وأجهشت بالبكاء تقول: " لا فرق بينك وبينهما. لقد ورثت قسوة القلب عنهما".

فاحتدّ يدافع عن نفسه:

- " أنا. أنا أعذّبك كما عذّبني أبي وأمي!!؟ لا عشت إذا كان مثل قلبيهما في صدري. ناداني الوطن يا زهرة".

قالت:

- " وناداك قلبي أيضاً".
- " وهل يرضى قلبك برجل تقاعس عن نداء وطنه؟ عودي إلى عقلك وقدّري تضحيتي".
- " تضحيتك كانت على حسابي. على حساب قلبي وحبّي".

وفي تلك اللحظة، جاء رمضان يهزّ فوّاز بيد الخوف:

- " أسمع صوت محرّكات آتياً من بعيد".

نهض فوّاز ولقمان مرعوبين. قال فوّاز:

- " أوقفا المحرك، ودعونا نستعمل المجاذيف".

وأخذوا يجولون بأبصارهم أرجاء البحر الرحب، فرأوا في عتمة الليل باخرة مضيئة تمخر عباب البحر، ينقل سكون الليل صوت محركاتها، فتنفّسوا الصّعداء.

قال فوّاز:

- " إنّها باخرة ركّاب لا يعنيها من أمرنا شيئاً.. هيّا. أديروا المحرك".

وعاد إلى زاوية المركب يغمض عينيه يحاول أن يستعيد الحلم ويدافع عن نفسه أمام زهرة .. ولكنّ الشّمس رمت أشعّتها الذّهبية على صفحة مياه البحر. كشعر حسناء طويل تداعب به عيون حبيبها، ترميه على وجهه فينتشي دلالاً، فيرميها برذاذ موجه. واصل الرّجال إبحارهم بعين يقظة في نهار شمس محرقة، تعكس صفحة المياه أشعّتها ناراً تلهب وجوههم وتعرق أجسادهم وتسلخ جلودهم. صبر الرجال على عذاب الشّمس حتى وصلت أفق المغرب، ترتكز على صفحة المياه وتقف عيناً حمراء تحدجهم تصبّ غضبها ناراً حمراء تصبغ الأفق وتلوّن البحر بألوان غضبها، والبحر يشدّها إلى عمقه يطفئ نارها.. ويمتصّ نورها، والليل يفرد ظلامه شفّافاً ثم يحوّله إلى غلالة سوداء داكنة.

ملأ رمضان رئتيه من هواء البحر وزفر:

- " للشّهيد بيت في الجنّة، وله حور عين. لقد مللت سكن المخيم. ولا أملك مهر زوجة. وقد جئت اليوم أبحث عن البيت والزّوجة".

ردّ عليه لقمان:

- " الجنّة هي الوطن محرراً. حرّر وطنك وارجع إلى بلدك وبيتك تكون في الجنّة. فلو أنّك تعيش في جنّة الأرض ما استعجلت أن تذهب إلى جنّة السّماء".

قال فوّاز:

- " أريد أن أعيش وارتدّ إلى زهرة، فهي حوريّة من حوريّات الجنّة اللّواتي يتحدّث عنهنّ رمضان. أريد الذّريّة. أريد أن أنجب عشرين ولداً وبنتاً. أريد أن أراهم يلعبون حولي. ما أصعب أن يكون الإنسان بلا أهل. قبل أن أموت، أريد أن أزرع في أرض وطني رجالاً يخلّدون ذكري، وأطمئنّ أنّني تركت للوطن من يرعاه ومن يحميه من بعدي".

قال رمضان يخاطب فوّازاً:

- " أيّها المتفائل. كم تظنّ فرصة نجاتنا في هذه العمليّة؟ أنا لا أعطيها أكثر من صفر".

صاح لقمان منزعجاً:

- " لا تدخل الشّؤم إلى قلوبنا يا رجل.. المثل يقول: (أعطني عمراً وارمني في البحر) ".

ضحك رمضان يقول:

- " ومن قال أنك ستخرج من البحر؟ قد تنشب معركة بيننا وبين خفر السّواحل الإسرائيليين، والله أعلم بالنّتائج. المهم أن أموت شهيداً".

قال فوّاز:

- " الأعمار بيد الله، والله سبحانه أمرنا ألا نقتل أنفسنا، فإن أعطانا الله عمراً وطالت فترة جهادنا يكون ذلك أفضل".

قال لقمان .. وقد أثار أعصابه كلام رمضان:

- " ما أغرب هذا الرّجل. إنه يستعجل الموت وكأنّه ذاهب للقاء حبيبته".

لكنه عندما رأى نفسه في عيون رفيقيه.. وعرف أنهما عرفا دخيلة نفسه.. قال يغيّر الحديث يشجع نفسه، ويطرد الرّعب الذي علق بذهنه من كلام رمضان:

- " يدي بأيديكم أيّها الأخوان. إذا ما عدنا سالمين، فسنعيش معاً في عمارة واحدة، لا يفرّقنا عن بعضنا سوى الموت، فلا بد أن القيادة ستنعم علينا بعطاء سخيّ.. فيكون لنا بيت ونتزوج".

قال رمضان يمازحه:

- " ما رأيك أن تكون زوجتك حوريّة، وأن يكون لك بيت في السّماء، وتترك عطاء المنظّمة لأهلك، تتكفّل بهم مدى الحياة".

قال لقمان غاضباً:

- " ما أثقل مزحك وما أسمجه. هات حديثاً نتفاءل به يا رجل".

قال رمضان:

- " أنا في حياتي دوماً أتوقع الأسوأ، فإن حصلت على الحسن أشعر أنّه نعمة من الله . لذا فأنا افترض نفسي ميتاً. أنت الآن تحدّث ميتاً يا لقمان. تعوّد على الموت من الآن. من يدري؟ فقد تكون هذه آخر عملية لك في هذه الدّنيا".

قال لقمان:

- " لمَ كل هذا التشاؤم؟ إذا كنت تقصد بحديثك أن تختبر معنوياتي، فهي عالية والحمد لله. (تفاءلوا بالخير تجدوه)".

قال فواز يؤيد لقمان:

- " نحن بحاجة الآن لحديث الأمل والتّفاؤل".

حسب الرجال المسافة الباقية لمركز العملية، وضبطوا السرعة حتى يصلوا في الوقت المحدد. حوالي الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر، بدأت خيالات عمارات تل أبيب العملاقة تظهر في الأفق من البعيد، وباتت فرحة انتصار على وجوه الشّباب الثّلاثة أنهم استطاعوا أن يخترقوا الحدود، ولم يبقَ أمامهم سوى نصف ساعة حتى يقطفوا ثمار التّعب ورحلة الخطر، إمّا الموت

أو الحياة، فهما ليسا في الاعتبار. المهم أن يسمع العالم صوت نزف الدّم يتدفّق من شرايين الحقّ فينصروه. أن يكون بحراً يغرق الأعداء فيهابوه.

أعاد فوّاز الخطّة على مسامع زميله، وحذّر من انفلات الأعصاب ومن القتل إلا في ساعة خطر الموت. الهدف هو حجز الرّهائن بهدف تحرير معتقلينا من الأسر.

وأضاف فوّاز:

- " ننزل إلى الشّاطئ نبعد عن بعضنا قليلاً. أنا قلب، وأنت يا رمضان ميمنة، وأنت يا لقمان ميسرة. يسبقنا صوت التّكبير والتهليل: الله أكبر. الله أكبر. ونطلق ناراً في الهواء تشلّ أرجل المتنزّهين عن الهرب، ونعود نجتمع نحن الثّلاثة محتمين بالرّهائن أمامنا والبحر خلفنا والعيون تدور في كل اتجاه خوفاً من غادر مسلح. ندخل الفندق. وتتمّ هذه العمليّة على خير ان شاء الله. وبعدها نتفاوض ونغدو بسلام نحقّق حلم لقمان ونعيش في بيت واحد، لا يفرّقنا إلا الموت. الأعصاب قويّة. والمعنويات عالية. والهدف واضح. والنّصر لنا بإذن الله".

في الوقت المحدد تقريباً نزل الرّجال الثّلاثة على الشّاطئ مدجّجين بالسّلاح، مسلّحين بالإيمان، مشتاقين للأوطان .. يسبقهم صوت الحقّ: الله أكبر. الله أكبر. ألقوا ناراً في الهواء فدب الرعب بين رواد الشّاطئ، وعلا صوت الصّياح. تراكض النّاس بأرجل الذّعر يصرخون:

- " فدائيّون.. فدائيّون".

كان هناك بعض الجنود الإسرائيليّين، نشبت معركة استُشهد فيها رمضان، وأصيب لقمان إصابة في صدره، وأخرى في ذراعه، ومع ذلك نجح فوّاز ولقمان في الوصول إلى الفندق، وحجز بعض النّاس رهائن.

نزف جرح لقمان .. صاح:

- " قتلوا رمضان يا فوّاز. قتلوه. سأقتل جميع من في الفندق والرّهائن .

صرخ به فوّاز يأمره:

- " كفّ عن هذيانك وأمسك أعصابك. رمضان جاء يستشهد وقد نالها. كان يستعجل أن يسكن بيتاً في الجنّة وحوله الحور العين، وقد حقّق الله حلمه. ونحن إمّا أن نحقّق الهدف ونحرّر أسرانا، أو نلحق به جيرانا في السّماء".

امتلأ الشّاطئ بالجنود والشّهود، وحلّ سكون. يدرسون الأمر. يحلّلون ويخطّطون ويمكرون.

كانت جثّة الشّهيد على الشّاطئ تداعب نسمات خصلة من شعره، وتغسل جثّته موجات رقيقات ناعمات تمرّ على الجرح القاتل لطيفة، تحمل في طيّاتها دماً طاهراً يذكر التّاريخ إذا نسي أنّ لفلسطين الأمّ أبناء.

علا صوت المكبّرات: استسلموا. لا أمل لكم في هرب أو نجاة. أنتم محاطون من جميع الجهات.

قال فوّاز:

- " لا تهدّدونا بالموت .. فنحن من نصب له الشّباك نطلقه أي وقت شئنا على الأعداء .. فأنتم من يسلم إذا حقّقتم لنا شروطنا ومطالبنا. لنا أسرى في سجونكم. أطلقوا سراحهم ونحجب نحن الموت عنكم".

طال حديث المكبرات، وجرح لقمان ينزف .. وبدأت الدّنيا في عينيه تدور وتزغلل حتّى أغمى عليه .. وبقي فوّاز في الميدان وحده. ابتدأ اللعب بالأعصاب. ولما أرهق التّعب فوّازاً هدّد أنّه سيقتل في كل ساعة رهينة. طالب الطّرف الثّاني تمديد الوقت. يبحثون الأمر مع المسؤولين والرؤساء. كانت خدعة. اقتحم الجنود الصّالة. واحتدمت معركة قتل فيها خمسة رهائن وضابط وجنديان، ولحق فيها فوّاز ولقمان صديقهما رمضان.

حملت الإذاعات الخبر توزعه على العالم. ساد المخيم في بيروت وجوم. فوّاز، ابنه البار انضم إلى قافلة الشّهداء.

أعلن آل عمران أنّهم أهل فوّاز خطيب ابنتهم .. وتقبّلوا العزاء في خيمتهم. وانطلقت الزغاريد ورفعت الأعلام ونصبت الدّبكات يهنّئون آل عمران بشهادة خطيب ابنتهم.

كانت الصّدمة كبيرة على زهرة. تركت عملها وتفرغت للعمل في صفوف المنظّمة تبيّت في نفسها أمراً.

ذهبت إلى رئيسها تقول:

- " علّمني أيّها الضّابط الجسور كيف يموت الإنسان .. حتى أسير على درب الأبطال ؟ كان الضّابط رجلاً كبيراً في السّن حكيماً عاقلاً عالماً بقصّتها وبخفايا نفسها. ضحك يمازحها ويخفّف عنها:

- " لم أمت يا ابنتي بعد حتّى أعلّمك كيف يموت الإنسان، فلم أصل بعد درجة هؤلاء الأبطال ".

كان مساعده إلى جانبه. شاب لم يتعلم من حكم الدّنيا شيئاً. قهقه وقال:

- " الأمر بسيط .. يضرب نفسه بسكّين أو يطلق على نفسه النّار أو يرمي بنفسه من مرتفع شاهق. ألم تسمعي بصخرة الانتحار عندنا هنا في بيروت ".

استاء الضّابط من حديثه وحدجه بعين غير راضية وقال:

- " إنّها لا تتحدّث عن الانتحار، فنحن نتحدّث عن طريقة موت الأبطال. اتركنا وحدنا الآن عندما احتاجك أستدعيك".

قالت:

- " أنت من أخذ منّي خطيبي. أرسلني إليه.. دلّني على الطّريق.
أرسلني في مهمّة.. فالحياة في عيوني تضيق".

قال وبسمة خفيفة ترتسم على شفتيه تدل على استغرابه الطّلب:

- " نحن لا نرسل حبيباً إلى حبيب، ولا نؤيّد المنتحرين، مهمّتنا أن نختار الرّجال الأكفاء رسلاً للوطن نطمئنه أنّنا لم ننسه، وأنّنا في طريق العودة إليه".

قالت:

- " ونحن، ألسنا فتياته اللواتي رضعن الثّدي الآخر من خيراته، ويحقّ لنا أن نكون من جنده"؟

قال:

- " بلى.. ولكن الله والوطن لا يحبّان المنتحر. هناك أسس وقواعد ودراسات تفرز على أساسها الكفاءات، وتختار الشّخص المناسب، فإذا انطبقت عليه شروط أداء المهمات داخل الوطن المغتصب، تأكدي أننا لن نتأخر عن شيء فيه مصلحة الوطن".

قالت:

- " حسناً. أعلمني عن الصّفات الّتي يمتاز بها هؤلاء الأشخاص الّذين تختارونهم لمثل هذه المهمّات".

قال:

- " هذه صفات تكون موروثة، مفطوراً عليها الإنسان. فمثلاً لا ينفع لها جبان أو ضعيف أو ثرثار. قائمة الرّفض يطول شرحها، وهذه الصّفات لا تُكتسب.. إنّها تركيبة في الدّم وطبيعة النّفس والخلق والأعصاب والإيمان والثّقة بالنفس وقوة الاحتمال واللّياقة والتّكوين العضلي وسرعة البديهة والذّكاء..أشياء كثيرة يجب أن يمر بها الإنسان تحت الاختبار.

قالت:

- " لا يوجد عندي صبر".

قال:

- " والصّبر من أهمّ صفات رجل هذه المهمّات ".
- " إذن أنا لا أصلح لمثل هذه المهمّات "؟

- " الله فصّل الكون أشكالاً وألواناً يتوافق ويتناغم مع كل إنسان .. فالذي تصلحين له قد لا أصلح أنا له، والذي تكرهينه قد أجد راحتي فيه. الشّعوب جنود الأوطان .. كلّ يؤدي الخدمة في مجاله، فاستفتي نفسك في أيّ مجال تصلحين حتى تقومين بواجبك".
- " طموحي الشّهادة".
- " حياة الشّعوب لا تقوم على الاستشهاد فقط، فالدّولة تحتاج إلى أخصّائيّين في كلّ مجال. تحتاج إليهم كما تحتاج للجنديّ تماماً. إذهبي إلى بيتك وخذي راحة، فأنت اليوم في إجازة".

عادت إلى بيتها تسأل أخاها زيّاد:

- " أخي. خذني معك إلى البحر أتدرّب على الصّيد".

ضحك وقال:

- " هل سمعتِ عن فتاة صيّادة "؟
- " أريد أن أتدرّب على ركوب البحر".
- " لماذا"؟
- " أريد أن أمشي على خطوات فوّاز".

قال يشفق على أخته:

- " خطوات فوّاز قد محاها الموج، أخاف عليك الضّياع".
- " إذا محا الموج آثار، فعاطفة القلب تشم شذى خطواته".
- " عاطفة القلب لا يفهمها العدوّ.

إذا أمسك بك سيمرّغها في هوان الذّل والعذاب".

- " هل أكون شهيدة"؟
- " بل تكونين منتحرة.. وإذا كان فوّاز في جنّات النّعيم.. فستكونين في نار الجحيم.. لأنّك تقتلين نفسك".

قالت بلسان الحيرة:

- " إذن"؟!
- " الصّبر".
- " أعيش على الأرض، وفوّاز تحتها. هذا ظلم"!
- " لا تكفري. الله سبحانه وزّع الأرزاق والأعمار. ولا اعتراض".

(33)

بعد شهر من استشهاد فواز.. طرق باب آل عمران رجل كبير في السّن.. أضعف الزّمان بصره، وقوّس رجليه، فأبطأ خطواته. يسحب الكلمة من عمق صدره.

ثم تنهّد يتبع الكلمة بالأخرى وسأل:

- " هل هذا بيت عمران الحمد (أبو زيّاد)"؟

قال عمران وقد كان في البيت وحده:

- " نعم. تفضّل".

دخل الشّيخ يرمي نفسه على الأريكة يلتقط أنفاسه وقال:

- " عام الهجرة 1948، رزقني الله بغلام أسميته رافع. هربنا أنا وأمّه من مدينة صفد إلى صيدا. ضاعت أمّه عنّي في المدينة. جاع الطفل. فاستنجدت بسيّدة اسمها صابرين كانت ترضع ابنها، فاستجابت وأرضعت طفلي. ودرت حولي أبحث عن زوجتي. وعندما عدت لم أجد السّيّدة ولا طفلي. وماتت زوجتي حسرة على ولدها. وعشت أبحث عن ولدي حتى هذه اللحظة".

قال عمران متأثراً:

- " ولكنّنا انتظرناك طويلاً فلم تعد".

- " كنت أبحث عن زوجتي، وظننت أنّكم باقون في مدينة صيدا حيث يجتمع المهاجرون، فطمعت أن يبقى الطفل على ثدي صابرين ترضعه. فكيف كنت سأتصرّف وحدي دون أمّ الطّفل؟ في مساء الأمس زارني مدير المخيم، وكان قد تذكّر أن لي ولدا ضائعاً، فاخبرني أن ولدي جاء إلى مدينة صيدا يبحث عنّي، وأعطاني عنوانك، وفرحت أن يجمعني الله بولدي قبل انتهاء أجلي".

كان عمران يسمع ودموعه تنساب على خدّيه ويتنهّد. في تلك اللحظة دخلت زهرة البيت. أسرع عمران يداري دموعه، ولكن ابنته شعرت به:

- " ما بك يا أبي. أما زال دمعك جار على فوّاز؟ أخشى أن تكون قد أحببته أكثر مني".

قال يقطع كلماته تنهيدة طويلة:

- " إنّه أبوه. جاء اليوم يبحث عنه".

لمع الخبر في ذهنها لمعان البرق، فأرغت وأزبدت مندهشة، ملغية العقل فاقدة الحكمة والصّبر لا تدري ماذا تقول وتفعل:

- " أنت أبوه؟ قاتلك الله .. فأنت الّذي عذّب ولده في الدّنيا وكان سبب موته".

وهجمت عليه تطبق بيديها على رقبته تصرخ:

- " هيا اخرج من هنا. أنت شبح العذاب الذي كان يطارد فوّازاً طوال عمره. هيّا اخرج من هنا. لا أريد أن تراك عيني".

وما درت أن روحه خرجت من جسده وهي مطبقة على عنقه .. فشيخوخته كانت أضعف من أن تحتمل ثورة غضبها".

دخلت زهرة السّجن تحدّث نفسها:

- " لقد انتقمت ممّن عذب فوّازاً في حياته. وبقي عليّ أن أنتقم ممن قتله. سوف تقبلني أيها الضابط في صفوف الفدائيّين شئت أم ابيت، فلا يطفئ ناري سوى نارٍ أوقِدُها في قلب عدوّي، ولا يشفي جرحي سوى جرح أفتحه في كبده. هيّا. مرّي يا أيام السّجن، فالحقد يكبر في قلبي، والصّبر يتبخّر".

(34)

بعد شهرين من سجن زهرة استدعيَ زيّاد والعربيد إلى مركز المنظمة من قبل الضابط المسؤول وقال:

- " لقد تم انتدابكما للالتحاق بدورة تدريبيّة لمدّة ثلاثة أشهر، تبدأ بعد ثلاثة أيام".

في اليوم المحدّد ذهب زيّاد والعربيد وبدآ التدريب على عمل العبوات الحارقة والناسفة، الصّغيرة والكبيرة، وصناعة الألغام وتفجيرها بواسطة الموجات وتفكيكها. وقضيا شهرا رابعا يتدرّبان على القتال البحري وطرق التّعامل مع الدوريّات البحريّة إذا ما صادفتهم في عرض البحر.

في نهاية الشهر الرّابع تمّ إرسالهما إلى مركز المنظمة في مدينة صور.. حيث قضيا أسبوعا في المدينة. بعدها تم تسليمهما مركباً محمّلاً بالسّلاح والمواد الأوّلية الّتي تصنع منها الألغام قادماً من جزيرة قبرص.. مرسلاً من قبل رجال المنظّمة هناك.. وقد أُمرا أن يواصلا الإبحار إلى فلسطين.. إلى شاطيء غزّة ليسلّما المركب إلى أحمد الزعفران.. وقد تمّت الرّحلة بسلام.. إلى أن وصلا قريباً من شاطئ غزة، وهناك فاجأتهما العاصفة، فتحطّم المركب على الصّخور وهبّت حميدة الزّعفران تمدّ يد المساعدة بعد أن قذف الموج بالعربيد إلى الشاطيء.. وزحف إلى بيتها يطلب النّجدة.. وتبعه زيّاد وقد عثر عليه ملقى على الصخور، وأحضر الرّجال إلى حميدة الزّعفران.. وتمّ التّعارف بين آل الزعفران والعربيد وزيّاد، فاستقبلتهما حميدة بالتّرحاب، تعتني بهما وتداوي جراحهما، وتحمد الله على سلامتهما:

- " العوض في وجه الله.. إذا ذهب السّلاح، فالرّجال موجودون، وسنحصل على ما نريد قريباً وبكميات أكبر، وفي ظروف أقل خطراً من تلك التي تعرّضا لها. اليوم لا نستطيع عمل شيء. سنترك الرّجلين للرّاحة، فتكون قد هدأت العاصفة. المهم أن يبقى ادريس وخميس خارج البيت لا يقربانه أبداً حتى نتدبّر أمرهما، وسنرسل تقريراً مفصّلاً إلى مركز القيادة في صور بالحادث ونتلقى التعليمات بشأنهما".

استمرت العاصفة يومين كاملين. بعدها تصالح الريح والبحر وهدأت العاصفة وتوقف المطر. أطلّت عين الشمس ونام الموج يلهث على صدر البحر. كان العربيد وزيّاد بحاجة إلى

راحة، خاصة زنّاد، فقد كانت جراحه أصعب وأعمق. كان في أيام الرّاحة القليلة شفاء وألفة بين أهل البيت والضّيفين. وأقامت لهما حميدة غرفة من صفيح شبه منفصلة عن بيتها تداري قدر الإمكان وجودهما.

كانت القيادة في صور قد استلمت تقريراً عن الحادث، وأصدرت أمراً ببقاء العريد وزنّاد في غزة يدعمان بكل ما عندهما من طاقة في مجال خبرتهما، على أن يتم التعامل معهما كخبيرين بعيداً عن الأخطار لشدة الحاجة إلى خبرتهما. إلى أن جاء أمر من القيادة بتحريك الموقف، والقيام بعملية تدعم التحركات السياسية للمنظمة، وتزرع القلق في قلب العدو، خاصّة العسكريين، وتدخل الخلاف والشّقاق بين السّياسيّ والعسكريّ والمدنيّ داخل صفوفهم. كان عند حميدة عربة يجرّها حمار ينقلون عليها رزق البحر من الأسماك إلى الأسواق. طلبت من العريد وزنّاد ذات يوم أن يصحباها إلى مكان تجمع عسكري إسرائيلي وقالت:

- " أريد منكما أن تلغما العربة بقوة تفجير تكفي لإبادة هذا التّجمع".

قام العريد وزنّاد بلغم العربة بكمية كافية من المتفجّرات تؤدّي الغرض، وزوداها بساعة تفجير تتزامن مع التّجمع العسكري في ذلك الموقع. وجاء من قاد الحمار إلى الموقع. وانفجرت العربة. وكان لها ضحايا كثيرون. أقلقت العدو. وأقامت ثورة في صفوف الشّعب فقامت المظاهرات، وانطلقت التّهم والخلافات بين المعارضة والحكومة. وقامت على أثر ذلك اعتقالات كثيرة. شملت إدريس وخميس أبناء حميدة. أقلق الانفجار خبراء المتفجّرات في الدّولة، فهو تطوّر جديد وخطير تتسلّح به مقاومة المنظمة الفلسطينية. واستمرّ العريد وزنّاد يقومان بالأعمال الفنّيّة بالتّلغيم والرّجال يقومون بالتّفجير، ومخابرات إسرائيل تبحث عن هؤلاء الفنّيّين دون جدوى.

(35)

ربطت روح المغامرة والعشرة نوعاً من الاعجاب بين قلوب سكان البيت. فقد مال قلب خلود إلى زنّاد.. أما زنّاد فقد كان يرى في خلود أخته زهرة في بادئ الأمر.. فقد كان مشغول القلب والبال عليها في سجنها.. لا وقت عنده لخصوصيّاته، فالعواطف تكتمها مسؤوليّاته. كبر والداه في السّن وأخته في السّجن، ولولا أن نداء الوطن جاء قويّاً في أذنه لما سمعه وما لبّاه. كان يريد أن ينفذ رغبة أخته وينتقم لفواز.

أما العريد فقد كان يطمع في خلود زوجة. فتعلّق بها قلبه وملكت عليه لبّه، وأصبحت خلود الشّغل الشّاغل الّذي أخذه من نفسه ومن عمله. أمسك به زنّاد من تلابيبه يحذّر، بعد أن ارتكب عدّة أخطاء كادت تودي بحياته. وتخاصم الإثنان لدرجة الضّرب بالأيدي. زنّاد يتّهم العريد بالاهمال وانشغال البال في عمل لا مجال فيه للخطأ، والعريد يتهم زنّاد بالغيرة والحسد ومحاولة استمالة محبوبته. زنّاد يقسم ويقدّم البراهين للعريد أن لا مكان لخلود في قلبه، إنّما العشرة والألفة والحياة المشتركة هي الّتي تقرّب بينها وبينه، إلى أن جاء يوم تأكّد فيه من ميل خلود إلى زنّاد. وظنّ الغدر والخيانة في رفيق العمر، فضاقت الدّنيا في وجهه، وامتلأ قلبه عليه بالحقد، فذهب من فوره يعرض الزّواج على خلود حتى يتأكّد، قتله الشّك والقلق، ولكنّها رفضته. قال والغيرة تأكل قلبه:

- " لماذا.. أهو زنّاد " ؟

أغمضت عينيها خجلة تصارحه:

- " القلب له واحد".
- " زنّاد لا يريدك".
- " ولكنّني أريده ".
- " سمعت عن فتيات يُغصبن على الزّواج، أمّا عن الرّجال.. فهذا ما لم أسمعه!!

قالت تقطع عليه الحديث تداعبه:

- " نار حبّي في قلبك.. عندي مثلها لزنّاد في قلبي. فاعذرني يا أخي".

قال والجدّ يعتلي كلماته:

- " لا أخوّة بين زوج وزوجته. وهذا ما ستكونينه لي.. قَرُب الزّمان أم بعد.

رنّاد لا يريدك. وأنت تريدينه. وأنا أريدك وأنت لا تريدنني. سنرى من منّا في النّهاية يفوز؟ "

علمت الأمّ بحال ابنتها، ولما كان لا يخفى على قلب الأم أمر ابنتها، حدّثتها بعاطفة الأمومة:

- " يا ابنتي. عن طريق هذين الرّجلين طريق الشّهادة. ولا أريدك أن تقضي البقيّة الباقية من عمرك أرملة".
- " إذا كان هذان الرجلان فدائيين، فماذا أنا؟ ومن يضمن لهما عمري"؟
- " الرّجال يتزوّجون. لا يبقى الرّجل أرملاً. أمّا النّساء الأرامل فيعشن البقيّة الباقية من عمرهن مع الحسرة".
- " الحسرة أن يموت الإنسان دون أن يحقّق هدفه يا أمي، ورنّاد هدفي. دربنا واحد ومستقبلنا واحد، ولا يليق بنا سوى المثل القائل: (يا نعيش سوا يا نموت سوا) وقد قلت له ذلك".

عاتب العريد رنّاد يقول:

- " تخونني يا صديق"؟
- " حاشا لله أن يكون بين الأصدقاء خيانة. أزِل الظّنون من صدرك يا صديق.

فليس في صدري هوىً لفتاتك".

- " هي تريدك شئت أم أبيت يا رنّاد".
- " هل الرّجال يغصبون يا العريد؟ كيف يمكن أن تصدّق؟ سأقطع الشكّ باليقين وأخطبها أنا لك".
- " لقد رفضتني".
- " وما ذنبي؟ تريدني أن أخلع قلبها من صدرها وأدخلك فيه"؟
- " ابتعد عنها فقط وأنا أتدبّر أمري".

بدأ رنّاد يهمل وجود خلود ويتحاشى الحديث معها. أحرق قلبها اهماله لها. هي تعلم أنه يميل لها .. ولكنه يضحّي من أجل صديقه، فانتحت به ذات يوم:

- " ما بال جارنا ورفيق دربنا يغض الطرف عنّا"؟
- " لا أفهم".
- " لم تملكني بعد حتّى تقدّمني هديّة لصديقك. أنت تضحّي وتنال الشّكر، والضّحيّة ما ذنبها؟ سيكون نصيبي العذاب أبد الدّهر، فلا تحمل إثمي. القلب الّذي في صدرك وصدري واحد. كفاك كفراً .. أحبّ العريد أخاً .. وليس لك الحق أن ترغمني على الزّواج منه".

- " صدّقيني أنّ الّذي في رأسك وهم، فقلبي مقفل، ورأسي مليء بالمسؤوليّة والمهام. زهرة في السجن، وأمّي مرضت لأجل زهرة، وأبي شيخ عجوز. جميعهم بحاجتي، ولا أسمح أن يسرقني الحبّ من الواجب".
- " نتزوج وأكون لك عوناً يا رنّاد".
- " الزّواج ليس في حسابي الآن".
- " أنتظر".
- " قد يطول الإنتظار".
- " أنتظر حتّى لو بقي لي آخر يوم في العمر".
- " لا أريد أن أظلمك".
- " ادخل قلبي، وستعرف أن ظلمك عدل".
- " تزوّجي العريد، فهو رجل أصيل شهم".

قالت غاضبة وقد نفذ صبرها:

- " ماذا؟ هل تعمل خاطبة ؟ تريد أن توفّق بينه وبيني"؟
- " الرّجل يحبّك. وعمله شاق خطر. ملكت عليه اللّب. أصبحت أخاف عليه".
- " ما دمت تتقن عمل الخاطبة، ابحث له عن فتاة أخرى حتى تطمئنّ عليه". وانسحبت من أمامه.

مضت ثلاثة أيّام وجوّ البيت مشحون بالترقّب والتّوتّر، مليء بالشّك والظّنون. طلبت حميدة من العريد أن يجهّز لها عبوة ناسفة، ولكنّه كان مشغول العقل ملهوف القلب، تعمل يداه دون تركيز، شارد الفكر، فانفجرت بين يديه، وطار جسده شظايا، كتلا من اللحم والعظم تقطر بالدم. أثار المنظر رنّاد، فبكى على صديق عمر، بكاءاً يُفطر القلب، وأمسك بخلود يضربها ضرباً مبرحاً، يصفعها ويصرخ:

- " قاتلة. قاتلة. قاتلة".

انسحبت من بين يديه تصرخ:

- " أرجوك. لا تثقل عليّ ضميري بجريمة ليس لي فيها ذنب، من أنت حتى تحاسبني؟ هو الذي قتل نفسه. أخبرته مراراً وتكراراً أن ليس له في القلب مكان. أنا أحبّك وأنت تهملني. اتّعظ يا رنّاد،

ولا تحمل ضميرك ذنباً كالّذي تُحمّلني، فنهايتي لن تكون أفضل من نهاية العريد إذا استمريت في إهمالك لي".

جمد دمع زنّاد، وانخفض صوته يفكر. نظر إلى يديه يلومها:

- **" لقد ارتكبتما إثماً، ولكنك جعلتني وحيداً في هذا الوجود يا خلود، فالعريد كان بالنسبة لي كما كان نمر العبد بالنسبة لأبي. لقد كان خير صديق".**

(36)

بعد استشهاد العريد كان البيت يعيش مأساة الحزن. الجميع يحاولون أن يتقرّبوا من بعضهم البعض .. ولكن كان في القلب غضاضة. زنّاد يعتقد أن موت العريد كان بسبب خلود .. وثورة كبرياء خلود المتفجّرة التي تشعر أن زنّاد أهانها دون وجه حقّ لم تخمد. آه يا زنّاد، لو لم يكن القلب حصناً لك يحميك، لرأيت كيف انتقامي".

مرّت الأيام، يجمع زنّاد وخلود النّضال والتّخطيط المشترك، وكلّما تمّت عمليّة بنجاح كانت تمحو غباش الأحزان، ويطير قلبها فرحاً. وحين كان يجاملها:

- " يا أخت خلود".

كان يجنّ جنونها:

- " أختك في السجن، وأنا في سجن قلبك. السّجن قضبان وجنود .. وسجن قلبك سراب صحراء .. الذي يدخله يتيه ولا يعود.

اعدل يا زنّاد.. لا تحاسبني على ذنب لم أرتكبه، ولا تجعلني ضحية وفائك لصديق".

- " فارقنا العريد وقلبه مليء بحبّك .. كيف أخطف الحب من قلب صديق ميّت؟

إذا كانت الدّنيا قد قتلته فهو في قلبي لا زال حياً .. روحي تغيب مع الذّكريات .. وأعيش بروحه".

- " مجنون. مجنون. ما سمعت عن إنسان يعيش بروح صديقه.. أنت فدائي.. أنت حطب الثورة.. عش عمرك، فلن تطول على الأرض حياتك".

- " آه يا خلود الحبّ عقل وقلب وروح.. عقلي في عملي.. قلبي مع أهلي.. روحي اشتراها الوطن منّي.. ما بقي شيء أقدمه لك".

قالت والغضب ينفخ أوداجها، فقد كان في حديثه تجريح لأنوثتها وكبريائها:

- " لقد خلقك الله لتعيش الدّنيا، ولكنّك للأسف ميّتٌ على وجهها".

وأتمّت حديثها بلهجة السّخرية:

- " لم نلتقِ في الدّنيا. من يدري؟ قد نلتقي في الآخرة".

- " لا تؤمّلي نفسك كثيراً.. يقال إنّ للشهيد الحور العين في الآخرة".

انسحبت من الغرفة بعصبيّة دون أن تأبه لكلامه.

قال يحادث نفسه:

- " حبّي لك محاط بسياج من نار أشعله العريد قبل أن يموت يا خلود، فلا أستطيع أن أقترب منك. يعلم الله أنني كنت ضحيّة صديق لصديقه. كيف أرتبط بك الآن وأنا أعلم أن روحه تحيط بك".

كان البيت حزيناً، فروح العريد ما كانت تبرح المكان. الجميع يعيش ذكرى أيّامه.. إدريس وخميس في السّجن.. وكبرياء خلود تمنعها التّقرب من رنّاد".

(37)

في شهر أيار عام 1982.. كانت الإشاعات قد ملأت الدنيا بأن إسرائيل ستقوم بهجوم كاسح على جنوب لبنان.. تصفّي فيه منظمة التحرير الفلسطينية، وبذلك تمحو اسم فلسطين عن الوجود.. ويعيش سكّان شمالي فلسطين الذي تحتله إسرائيل بسلام.. وتنتهي المقاومة في البلاد ويعم الاستقرار. اتخذت منظمة التحرير الحيطة وتهيأت للدفاع عن نفسها.. فأعلنت الطّوارئ، وألغت الإجازات، وطلبت من رجال القوات المسلحة أن يلتحق كل فرد بوحدته، واستدعت الخبراء والفنيين من رجالها كلّ يلتحق في مجال عمله.

وكان على رنّاد أن يسلّم إلى مركز القيادة في صور. حملت حميدة الخبر إلى رنّاد فهي التي كانت حلقة الوصل بينه وبين القيادة. علمت خلود بالأمر. جهّزت نفسها وقالت:

- " خطواتي على خطواتك. لن أدعك تموت وحدك. قلت لك أن القلب الذي يخفق في صدري وصدرك واحد".

قال حازماً:

- " دعك من الشّعر وكلام العواطف. أنت مسئولة هنا، وأنا مطلوب هناك، وعلينا إطاعة الأوامر.. جئت غريباً وأريد أن أرحل عنك غريباً، حتى إذا متّ لا يسكن الحزن قلبك".
- " جئتني كدوّامات إعصار.. هبات ريح. حطّمت مقاومتي .. ورتّبت خطواتي على خطواتك".

تصنّع ضحكة يمازحها ويخفّف من ثورتها، فدمعها يضعف من مقاومته.

- " أصبح عليك الآن أن تتعلّمي المشي من جديد".

قالت وقد علا صوتها:

- " لا تستهن بعواطفي يا رنّاد. لا تستهن بعواطفي يا رنّاد.

أهمّيّة هذا اليوم عندي كيومَ ولدتني أمي. أن تهرب وتتركني حطاماً، كسفينة لفظها البحر، تأكلها الذكريات على الشاطئ، هذا ما لا أسمح به.. أنا بركان.. إذا ثار تهتز الأرض تحته .. تصل نار، حدَّ السماء".

- " لا أفهم".
- " تلعب بالنّار ولا تدري؟ أعطني حقّي".

- " لا أفهم".
- " حقي أن تلفظ كلّ ما في قلبك نحوي. عندها أُلملم حبّي وأنت ترحل.

أمّا أن تقدّمني هديّة لصديق ميّت باسم الوفاء .. فهذا ليس من حقّك .. ولا أقبل به ".

- " تريدين أن أقول لك أنني أحبك"؟
- " أنا لا أريدها عطاءاً. أريدها ان تخرج كزفرة تنّين ضاق بها صدر، واكتوى بها قلبه ".
- " ما فائدة هذا يا خلود"؟
- " لا أريد أن أعيش وفي حياتي حلقة مفقودة. أريد اعترافاً بالحقيقة".

تنهّد تنهيدة طويلة تحمل اعترافه وقال:

- " وعد منّي إذا أعطاني الله عمراً أن أعود إليك".

هجمت عليه تحضنه وقد اختلطت الدّموع:

- " قلبي لا يكذب عليّ أبداً. قلبي لا يكذب عليّ أبداً. لقد عذّبني الحصول على هذا الاعتراف كثيراً يا رنّاد، اذهب الآن وقم بواجبك ولبّ نداء وطنك. قلبي يدعو لك بالسّلامة".

ثم وضعت رأسها على صدر، كأنها تريد أن تسمع الجواب من قلبه وسألت:

- " ردّاد، إذا متّ أنا.. هل ستحزن عليّ كحزنك على صديقك العزيز. إنّني أغار منه وهو ميت".
- " رحمه الله كان وفيّاً".
- " رنّاد.. إذا كتب الله لنا عمراً وبقينا أحياءاً.. هل سنتزوّج فور الإنتهاء من العمليّة"؟
- "إذا قدّر الله ووهبنا العمر سنتزوّج.. أما إذا صعدنا إلى الجنّة فأرجو ألا تظلميني وتلتصقي بي زوجة، فهناك حور عين".

وضعت كفّها على فمه تسكته وقالت:

- " عندما تراني الحور العين سيشفقن على حبّي ويتركنك لي".

قال بلسان الحسرة:

- " وهل هذا عدل"؟

فجأة دخلت حميدة تنكر عليهما هذا الموقف، وامتلأ فمها بكلام الخيانة والغدر لغريب دخل بيتاً وخان الأمانة.

قالت خلود تقطع على أمها حبل الغضب والملامة:

- " ما عاد يا أمي غريباً ".

قال رنّاد:

- " أنا طالب القرب".

قالت حميدة تنكر على ابنتها هذه الخطبة:

- " إنّه ذاهب إلى حيث يسكن الموت.. إلى جبهة النّار" .
- " وهل يستطيع أن يمسّه أحد من هؤلاء اللئام؟؟

الله معه. قلبي معه. دعائي معه. الويل لمن يمسّه. ادعي له بالسّلامة يا أمي".

- " تضحكين على نفسك يا ابنتي! إنّها الحرب. انتظري حتّى يعود".

صاحت خلود في وجه أمها:

- " لا توقظيني من حلمي يا أمي. ماذا أفعل إذا كان حبّ الوطن في قلبه أكبر من حبي؟

لا تخاطبي عقلي يا أمي. إذا كنت تريدين لي السّلامة ادعي له بالسّلامة".

قالت حميدة:

- " متى ترحل يا ولدي؟ فالأمر جاء مشدّداً وبالسّرعة الممكنة ".
- " غداً إن شاء الله مساءاً تحت ستر الظّلام".
- " حسناً. سيأخذك غداً مركب إلى عكا. وستجد هناك من يقطع بك الحدود إلى صور".

مضى الليل قصيراً كأنّه رمشة عين.

فرد زنّاد وخلود شراع الأمل على مداه في بحر الاحلام يتقلّبان على موجات الحب ترفعهما إلى أعلى سماء.. تؤرجحهما وتنقلهما بين النّجمات، فبنيا البيت الجميل، وأنجبا البنين والبنات، وقبضا على ناصية السّعادة يسحبانها من قلب الفرحة.. يعبئانها في الصّدور.. والدّنيا تركض بهما وهما لا يشعران".

مضى الليل، وأطلّت رموش الشّمس تسبقها وتسرق من عينيها نوراً تضيء به الأرض بألوان الأمل.. ومشت في السّماء على دربها المعهود حتى وصلت أفق الغرب .. والتّعب قد لوّن وجهها بالاحمرار. أخذت تغتسل وتعطي البحر من وجهها ألواناً.. ورمت النّجمات نفسها إلى البحر ترصّعه بلآليء من ضياء".

في تلك السّاعة حان وقت الرّحيل، وكان زنّاد وخلود والظّلام الدّامس على الشّاطئ يكتم سرّ زنّاد.

صعد زنّاد إلى المركب. لوّحت خلود له بيدها، لكن الظّلام أخفى زنّاد. سالت من عين خلود دمعة. رمتها بحزمة من شعاعها، فلمعت على خدها.. ساق المجذاف المركب فوق الموج غير

عابئ.. إذا كانت على خدّ خلود دمعة، فهذه دموع الزّمن بحر تدوسه المراكب. الحياة ماضية تركض في طريق المجهول، والنّسيان هبّات ريح تعصف على الزّمن تمحو خطوات الماضي.. هل حقّاً أنّ فوّاز ونمر العبد والعريد ورمضان ولقمان أصبحوا ماضياً؟

مسح على رأسه كأنه يمحو الصّورة الّتي أزعجته فقال لنفسه:

- " لا .. فطالما أن قلبي ينبض بحبّهم .. إذاً فهم أحياء، حيث لا معنى لماضي أو حاضر دون مستقبل.. ما أبشع الظّلام.. إنّه يبتلع الدّنيا في لحظات، فلا تكاد عيني تميّز شيئاً حتى يبتلعه.. آه منك يا قمر العشّاق.. لو أنّك في سمائك تعطي الشاطئ من ضيائك، ما غاب عنّي طيف خلود. جئنا اثنين، أنا وصديقي العريد، واليوم أعود وحدي" .

المركب جاد في إبحار، والأفكار تدور سريعة في رأسه: " إنّني حاقد عليك يا دنيا.. لا تتركين أحداً وشأنه.. دوما تأتين بالمصاعب للانسان وتضعينها في دربه. كيف يمكن التّغلب عليك وأنت كبيرة ونحن صغار، وأنت قويّة ونحن ضعفاء؟ قال الحكماء: لا تغلب الدّنيا إلا بالصّبر. والمثل يقول: لا يغلب الدّنيا إلا من رضي. الصّبر مقدور عليه، أمّا الرّضى فهذا هو المستحيل بعينه".

البحر هادئ، وصوت الموج تهليل ينادي النّعاس، ورنّاد لم ينم طوال ليلة أمس وعقارب الساعة تركض، والزّمن بلا قلب، ليس عنده مكان للعواطف.

نام رنّاد ورأى قطع لحم العريد المتناثرة تتجمّع وتركب قطعة فوق قطعة.. حتى عاد العريد كما كان لا ينقصه سوى القلب. سأله رنّاد وقد جحظت عيناه، والخوف يكاد يوقف قلبه:

- " أين قلبك يا العريد"؟
- " أخذته خلود".
- " كيف تعيش دون قلب"؟
- " أريد أن أعيش دون قلب حتى لا تأسرني عواطفي نحوك. أريدها حرباً بيني وبينك لا هوادة فيها. كنت تنتظر أن أموت حتى تأخذ حبيبتي منّي"!؟

ضحك رنّاد:

- " أما زلت نفسك في الدّنيا بعد أن عرفتها يا العريد؟ أنت في جنّات السّماء وحولك الحور العين وتستكثر عليّ دنيا العذاب التي تركتني فيها وحيداً؟ خذ مكاني على الأرض، وأنا أصعد مكانك إلى السّماء.

قال العريد مرتبكاً:

- " وتأخذ الحور العين منّي"؟

أجاب زيّاد متعجباً:

- " لا تريدني أن أعيش على الأرض، ولا أن أصعد إلى السّماء"!!؟

أثقلت عليّ ضميري. أرجوك أن ترحمني".

قال العريد:

- "هل رحمتني في الدّنيا حتى أرحمك وأنا في الآخرة؟ ستكون روحي شبح العذاب الّذي يلاحقك في دنياك.. فالوفاء أيها الخائن أبديّ.. والموت لا يسقط وعداً ولا يبطل عهداً.

لن تتزوّج خلود يا زيّاد .. سأحرمك منها وأنا ميّت. سأكون ناب ذئب ينهش ضميرك، وليل ظلام يسوّد عيشك ويعمي عينيك، ونار جهنّم تحرق قلبك وتطهّر نفسك.. علّه يرجع للوفاء معناه، وتنتهي الدّنيا من شرورك".

- " أنا شرير يا العريد..!!؟ انا الّذي أفرغ الدّمع من عينيه.. وكاد يموت حزناً على فراقك".

- " دموع التّماسيح. عملت منها بحراً حتى تصل إلى مآربك".

قال زيّاد بلهجة حزينة:

- " خلود وحيدة في الدّنيا أيّها الصّديق. أخوها في السّجن، وأمها يوم خارج السّجن وأشهر داخله، لمن نتركها"؟

ضحك العريد ضحكة شقت السّماء، ورفع زيّاد إليه:

- " أنظر.. هذه خارطة عمرك أمامي. أمامك طريق قصير، بعدها روحي وروحك هنا تلتقيان".

وترك زيّاد يهوي من السّماء إلى الأرض. صاح زيّاد مذعوراً. أمسك به قائد المركب يهزّه.

- " ما بك يا زيّاد. أرعبتني".

- " كابوس فظيع. رأيت فيه صديقا يخون صديقه".

- " أضغاث أحلام.. عد إلى نومك. الطريق أمامك طويل والمهام صعبة".

- " أنا أعرف العريد.. إنّه حقود.. ظلمني ولن يتركني.. أرى روحه شبحاً أمامي تنتظر حتى أنام كي تعود وترميني في عذاب الكوابيس".

استغرب الرّجل حديث زيّاد، وهمس في أذن زميله:

- " الظّاهر أن أعصاب زيّاد مرهقة".

اتّخذ زيّاد ركناً من المركب وأشعل سيجارة ينفث دخانها من صدرٍ مليء بالقلق والشّك والهموم. هل حقاً أنّني خنت الصّديق؟

لا.. ويشهد ربّي أنّني قدّمتها هديّة.. انتزعتها من أعماق قلبي، وألزمت نفسي وعداً أن تكون خلوة عروساً له. ولكنّه مات.. ماذا يفيده عذابها وعذابي؟

لقد مات الصّديق، والأموات لا يرثون حتى أتركها له. فكفّ عن تعذيبي أيّها الضّمير.. ولا تدع عذاب النّفس والكوابيس تعرقل طريقي. فأنت تعلم أن عملي يحتاج إلى صفاء ذهن ونفس".

مضى زيّاد مع حديث النّفس.. ساعة يبرّئها وساعة يدينها.. إلى أن وصل عكّا. هناك اصطحبه بعض الرّجال، وقطعوا به الحدود إلى مدينة صور حيث سلّم نفسه إلى مركز قيادة منظمة التحرير الفلسطينيّة.. ثم توجّه إلى الحدود الجنوبيّة للبنان.. يلتحق بالقوّات الضّاربة.

كانت قد تصاعدت الأحداث.. وتبيّن أنّ الإشاعة حقيقيّة.. فاحتشدت القوّات الإسرائيليّة في الشّمال.. وكانت قوّات منظمّة التّحرير الفلسطينيّة تقابلها في الجنوب اللّبناني.

(38)

بدأ الهجوم الإسرائيلي في اليوم الرابع من شهر حزيران 1982، وتصدّى له جيش منظّمة التّحرير الفلسطينيّة. نشبت معارك شرسة بين الطّرفين، مما اضطرّ إسرائيل أن تعزّز قوّاتها بوحدات قتاليّة إضافيّة. وكانت مهمّة رئّاد وزملائه الّذين في مثل تخصّصه تلغيم الطّرق وتفخيخها بأساليب جهنّمية أوقعت المهاجم في بلبلة وخسائر فادحة، فأدت الغرض المطلوب .. وهو تأخير تقدّم الجيش الإسرائيليّ وإيقاعه في شراك الفدائيّين واقتناصه.

صمدت قوّات منظّمة التّحرير الفلسطينيّة أمام جحافل أعدائهم الّذين يفوقهم عشرات المرّات عدداً وعدة، وانسحب رجال المنظّمة بانتظام يتمركزون في خطّ دفاع آخر، يذيقون فيه مرارة التّقدم لعدوّهم خسائر فادحة بالرّجال والعتاد.

كانت تلغم الطّرق وتفخّخها إلى أن اضطرّهم الأمر في هجمات الإسرائيليين التّمركز في قلعة "الشّقيف" التّاريخية العريقة في الجنوب اللبناني. كانت مهمّة رئّاد وزملائه أن يصمدوا في هذه القلعة ويؤخّروا تقدّم العدوّ .. ويعيق تقدّمه نحو المدن الأخرى.

وفعلاً صمد الرّجال الّذين لا يزيد عددهم عن ثلاثين، أياماً عدة أمام جيش كامل العدد والعدّة، يستعين بصواريخه، وقوّاته الجوّية تقصف ليل نهار، والمقاومة والصّمود مستمرّان.

طلب الإسرائيليّون من الرّجال المتمركزين في القلب الاستسلام .. ولكنّهم فضّلوا الشّهادة من أجل القيام بالواجب وإعطاء زملائهم فرصة أخرى لبناء خطّ دفاعيّ جديد آخر يكون مقبرة جماعيّة لأعدائهم.

كانت معركة قلعة الشّقيف نموذجاً لرجال المقاومة الفلسطينية، استقى منه العسكريّون دروساً في أساليب القتال، شهد لهم فيها العدوّ قبل الصّديق، حتّى أنّه حضر إلى الموقع رئيس وزراء إسرائيل مناحيم بيغن ووزير دفاعه شارون يدرسون على أرض الواقع .. كيف تمكن قلّة من الرّجال أن يوقفوا زحف جيش جرّار، وشهدوا بعظمة الرّجال.

استشهد رئّاد وزملاؤه في قلعة الشقيف.. ونقلت إذاعات العالم أخبارهم وصورهم وأسماءهم مع شهادات التّقدير من المدنيّين والعسكريّين.

انتقل زيّاد إلى الرفيق الأعلى. والتقى في السّماء بصديق عمر، العزيز، ولا بدّ أنّه كان هناك حديث بين الأرواح.

قال زيّاد:

- " لا مجال للخصام بيننا الآن أيّها الصّديق.. فلم تتزوّج خلود منك ولا منّي. تركتها على الأرض هناك ستجد إن شاء الله نصيبها رجلاً أفضل منّا نحن الاثنين، يحبّها ويسعدها ويعوّضها عنّي وعنك".

ضحك العزيز ونادى على خلود، فأتت مشتاقة ملهوفة تسلّم على زيّاد.

قال زيّاد مندهشاً:

- " ما الّذي أتى بك إلى هنا"؟

أجابت:

- " أثناء الحشد الإسرائيلي على الجنوب اللبناني.. طلب منّا مركز القيادة في بيروت تصعيد الموقف داخل الوطن. استجابت قيادتنا .. واختارت أخويّ إدريس وخميس ليقوما بكمين في إحدى البيّارات لسيّارة عسكريّة. نفّذ إدريس وخميس العمليّة حسب التّعليمات المطلوبة، وقتلوا اثنين من الجنود، وجرحوا ثلاثة، وكان نصيبهما الشّهادة، واعتقلوا على إثر هذه العمليّة أمّي. أمّا أنا فقد أخفيت نفسي. بعد أيّام علمت أنّك استشهدت في قلعة الشّقيف. تلفتّ حولي فلم أجد أحداً.

قتل اليهود أبي وأخويّ إدريسَ وخميساً، وأنت، وسجنوا أمي. ضاقت الدّنيا في عيني، وانفجر الغضب في صدري، فما عاد لي أحد على هذه الأرض.

حدّثت نفسي.. ماذا أفعل هنا وجميع أحبّائي في السّماء، وأنا أعرف الطّريق. حزمت نفسي بالمتفجّرات من رأسي حتى قدميّ، ولبست ملاءة تسترني، وذهبت من فوري إلى موقف الباصات حيث يتجمّع الجنود الإسرائيليون، وفجّرت نفسي، وجئت إليك أفي بوعدي.. ألم أقل لك: (يا نعيش سوا يا نموت سوا)"؟

تمّت بحمد الله تعالى